الرقص على طبول مصرية

(رواية)

" الطبعة الثانية "

فؤاد حجازى

أدب الجماهير

كتاب أدبي يشرف عليه:
فؤاد حجازي

المراسلات :
المنصورة - ش المندراوي -
عمارة الفردوس - جوار
مدرسة الشيخ حسنين
الرمز البريدي ٣٥١١١
ت : ٢٢٤٧١٦٨ / ٠٥٠

كلمــة

أسابيع قليلة مرت علي صدور الطبعة الأولي من هــذه الروايــة ، ونفدت . فما سر إقبال القراء علي هذه الرواية .. ؟!

الأفضل أن نستمع لحديث النقاد .

فى الندوة التى عقدت فى قصر ثقافة المنصورة فـى ٢٠٠١/٢/١٨ تحدث الناقد / عزازي علي عزازي . قال :

كتب أحد كبار النقاد فى أوربا فى القرن الخــامس عشــر : علــي سيف أخيل نقشت آداب اليونان . بدأ الفن فى العالم إذا اعتبرنا الإلياذة أصل الأنواع الأدبية فى تاريخ البشرية ، فقد أسســت علــي حــرب ، وكانت تعبر عن البطولات الخارقة التى خاضها اليونانيون فى طروادة.

وتبع الرومان اليونانيين فى الإنيادة ، ثـــم الفرنســيون فـــى ملحمـــة شارلمان ومعاركة الشهيرة ، ثم شهنامة الفردوسي فى فارس ، وكذلك مها مارتا الهندية . وبدأ تاريخ الأدب العربي بأدب الحرب التى أفرزت القصائد والمعلقات التى عدت ديوان العرب .

الرواية تتمثل الحرب ، لا لكي تتحدث عنها ، لكن الحرب نوع مـــن القناع الروائي يستخدمه الكاتب المختبئ خلف شــخوصه ، ليقــول أن الحرب ليست علي الجبهة فقط ، ولكن الحرب شملت كل البشر وكـــل الكائنات ، التى صنعت معادلات رمزية وجمالية علي امتـــداد الروايـــة وتكاد لا تخلو صفحة منها .

وتخلو الرواية من الحبكة بمعناها التقليدي ، وهذا ليس معنـــاه أن الرواية ليست بلا بؤرة مركزية . الحرب هنا ببعديها الإنساني والمادي هي العنصر المهيمن الذي منح العمل تبلوره ونظامه الكلي .

وتعتمد الرواية علي ركيزتين . تيار الوعي ، يعتمد عليه الكـــاتب لنقل فيض الخبرة الإنسانية إلي شخوصه وأحداثه وزمانه الروائى .

والركيزة البنائية الثانية تعتمد علي قوانين الإبداع الشعبي الشفاهي والتى تقوم علي قوانين الأدب الشعبي مثل قانون التكرار .

وضمن قوانين الإبداع الشعبي قانون الثنائية ، فكرة الثنائيـــة فـــى الحكاية الشعبية معروفة بدءً من مجنون ليلي حتي حسن ونعيمة ، فـى الثقافتين الشعبية والرسمية ، والثنائية قائمة فى الروايـــة ، صفـوت وصفية ، حمدي وحمدية ، سعد وندا .

وهناك أكثر من نهاية لهذا العمل ، أشهرها نهاية أولـــي ، خليـة النحل التى ترفض وجود ملكة النحل الأمريكية المســتوردة ، ونجـاح شغيلة النحل البلدي فى طرد الملكة وانتاج ملكة أخري مصرية .

بعد نظرية النسبية لأينشتين ، ظهر الحديث أن المكـــان والزمـــان لا ينفصلان ، لكنهما مظهران لبنية واحدة ، وسماها الفيزيائيون قبـــل أهل الأدب (الزمكانية) وهذا ما حاول فؤاد حجازي مـــن خلالـــه أن يبني نسقه الروائي ، فضلا عن أن المركزية فى الرواية تعـــد حلقـــة وصل بين وجهي هذه البنية الزمان والمكان . الحركة هي التى تجعـــل

الزمان يتحرك فى المكان . أو المكان يتحرك فى الزمان عبر خاصية الاستدعاء .

أما دراسة الدكتور جمال عبد الناصر أستاذ الأدب الإنجليزي بآداب القاهرة فيحار المرء فيما يجتزئ منها ، يقول الدكتور : العمل في تقديري يقترب من الملحمة النثرية ، أحداثه تعود إلي ما يقرب من نصف قرن . ولكن نستطيع أن نعود بهذه الأحداث إلي مصر القديمة، فهناك مصر الفرعونية ، هناك المعتقد المصري القديم ، وهناك صور البطولة (أحمس) . وهناك مصر القبطية وهناك صور البطولة ، مارجرجس ، وهناك مصر الإسلامية ، فهناك ذكر لعمرو بن العاص ، وهناك أيضا إن شئنا نستطيع أن نعود من خلال هذه الملحمة إلي العصور القديمة ، مرورا بالعصور الوسطي حتي اللحظة الراهنة .

ويقول فى موضع آخر : أهم من ذلك كله ، ما يتطلبه مثل هذا العمل من تحليل ووصف وتفلسف ، أزعم أن هذه القدرات وأكثر قد توافرت لدي الكاتب . بالطبع ليس لمجرد التفاخر بهذه القدرات . وليس للحرب فى حد ذاتها ، الرصد وتسجيل ويلات الحرب ، وليس لتمجيد الجندية المصرية وإنجازاتها ، لمن يقرأ الرواية علي عجل ، فهذا لون دعائي يرفضه حجازي ، ليس لمجرد التطهر بعد الانكسار في سبعة و ستين يكتب عن الانهزامية ، يكتب عن ٧٣ ليتطهر من تلك المشاعر . لكن وظف قدراته لسببين ، الأول هو التأمل ، والثاني الاستدعاء . التأمل للوقوف علي حقيقة الأشياء والاستدعاء بهدف التعرف علي هويتها . يتأمل فى ربع قرن من الزمن ، من ٤٨ إلي ٧٣ ، وهذه فترة قيام وشباب ونضج مصر . مصر اللحظة الآنية وإن كانت نتاج نصف قرن من الحرب ، كانت مصر فيها طرفا مباشرا ، أو طرف غير مباشر كما نعرف . أما بالنسبة للاستدعاء فهو أن يستدعي الماضي من البداية البعيدة . من مصر القديمة حتي اللحظة الآنية . ونقول أن مصر الراهنة هي نتاج مجموعة الحضارات التى ازدهرت علي أرضها . لعل التأمل والاستدعاء فرضا علي الكاتب تقنية التداعي الحر أو تداعيات اللحظة بمعني أن حرية التجوال دون قيد مابين

الماضي والحاضر ، والحاضر والماضي ، وأن يدع اللحظة تفرض عليه الحدث وتفرض عليه الشخصية .

ويقول فى موضع آخر : هناك صراع دائم ومستمر والبقاء فى هذا الصراع لمن لا يستسلم ، لمن لا يسقط . وهذا ما نستشفه من رمز مهم جدا ص ١٠ " الطبعة الأولي " عندما يتحدث عن طيور البلشون فيقول " استشعر وخزات الأسلاك الشائكة فى أجسادها وقد تساقطت قطرات من دمها علي الزوايا الحديدية المشدودة بينها الأسلاك . ومع ذلك بدت عفية ، وخيل إليه أنها من الممكن أن تطير فى أي لحظة " .

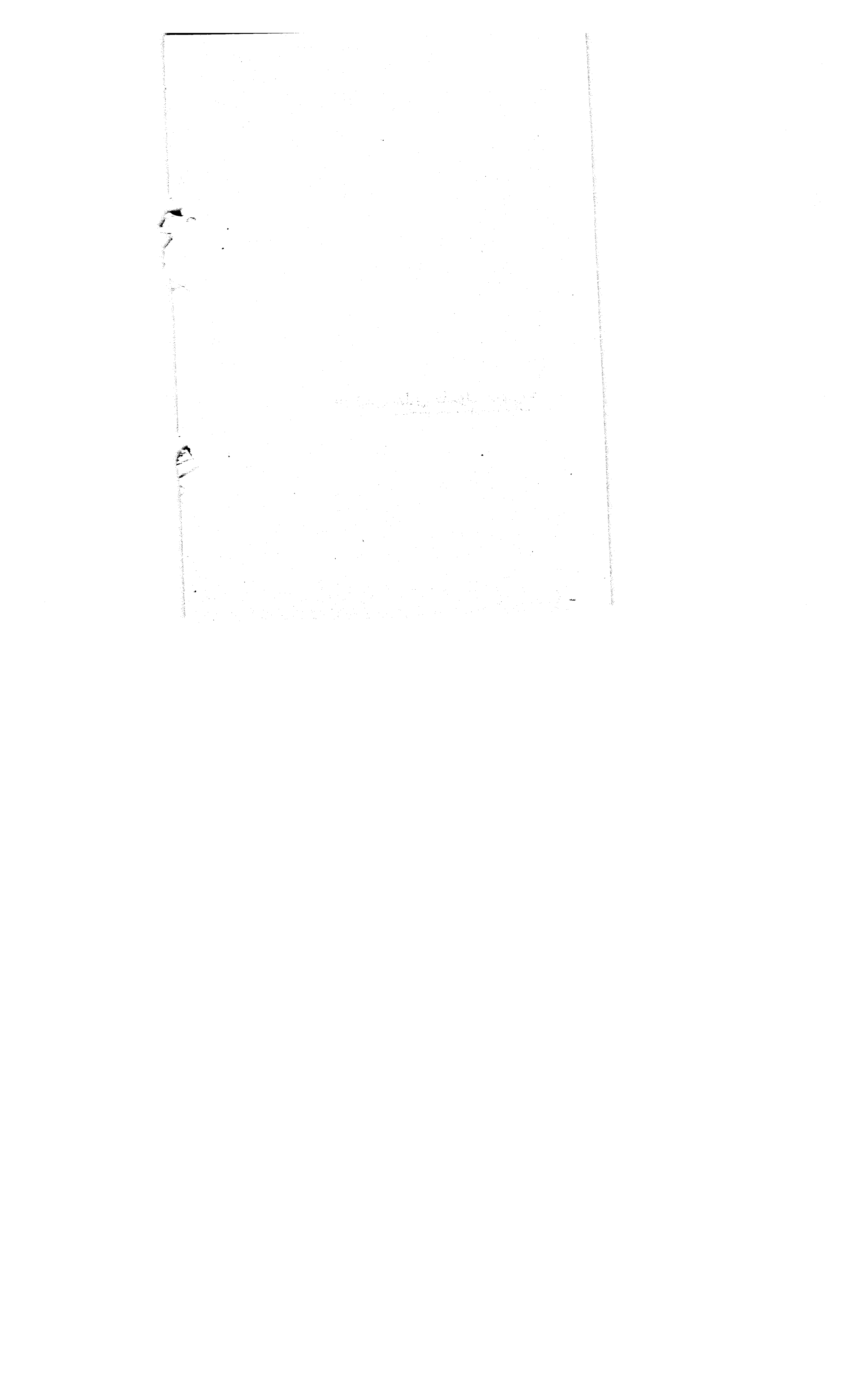
المصري الذي لا يستسلم سينتفض مرة أخري فى أي لحظة . وهذه طبيعة المصري الفريدة ، التى يؤكد عليها الروائي . الشموخ رغم السقوط ، والسمو وقت الانكسار . هذا يعطي قيمة فنية عالية للرواية، لأنها ملحمة حياتية توظف الحرب وسيلة وغاية فى نفس الوقت .

فالحرب مسألة ضرورية لدفع آلية الصد والردع عند الهزيمة ، وهي غاية لأنها غاية البقاء فى عصر تجبرت فيه قوي الشر ، ما جعل الإسرائيليين فى نهاية الرواية يرقصون علي وقع طبولنا / مدافعنا .

أقول ولا أجامل ، وبحكم قراءتي فى الأدبين الأمريكي والإنجليزي وروايات الحرب الكثيرة ، أقول أن " الرقص علي طبول مصرية " هي من أفضل ما قرأت من روايات الحرب التى قرأتها فى الأدبين ، ما يجعلني عن قناعة أعلن " فؤاد حجازي " أميرا لرواية الحرب فى مصر.

أدب الجماهير

الرقص على طبول مصرية



(١)

بعد ظهر السادس من أكتوبر البشير عام ١٩٧٣ ، وبالتحديد في تمام الساعة الثانية وخمس دقائق، كان جندي الشرطة العسكرية ، ينظم المرور المتجه من الضفة الغربية لقناة السويس ، إلي الضفة الشرقية ، مشيراً بيمناه ناحية الشرق .

وظل هذا الجندي ، يؤدي عمله ، رغم زئير الطائرات فوقه ، وصفير دانات المدافع، تمرق بجانبه وفوقه ، ودوى انفجارها ، ورغم الغبار الذي تثيره الدبابات ، وهي تدمدم في غضب مكتوم ، حوله ، بينما طلقات الرصاص ، تنطلق – حتى هذه الساعة – من الغرب بغزارة .

وحقيقة ، لم أكن أدري ، هل هو جندي واحد ، ظل واقفاً علي هذا النحو حتى بعد أن غابت الشمس ، أم أن الجندي ، كان يسقط ، ويحل محله آخر ، دون أن يلحظ أحد .

تطلع من زجاج نافذة العربة . طالعته الرمال ، بتموجاتها ، حتى تماسها مع قوس الأفق ، تتهد ، وتساءل : هل حقا ، تخلت الرمال عن هدوئها، وماجت بالحركة والغليان.

انحدرت الطريق . صعدت ثانية . في الواطئ ، إلي يساره ، قبل مدخل العريش بقليل ، طالعته مصاطب مقابر ، ترتفع وتنخفض ، تبعا لتموجات الأرض الرملية . وقد نمت بينها أعشاب قليلة ، داكنة ، لم تطغ علي لون الرمال التي بدت صفراء ، مشبعة بلون رمادي ، ولفتت نظره كثرة المقابر ، مع أن العريش مدينة صغيرة .

ارتفعت العربة مع الطريق .. لمح علي البعد ، مياه البحر ، هادئة ، ترفرف فوقها النوارس البيضاء ، بأجنحتها ، هاشة .

كانت الطائرات ، تحرك أجنحتها يميناً وشمالاً ، كأنها تحييهم ، فصاح الجنود مهللين، وقد غادرتهم لحظات القلق ، التي عمتهم منذ دقائق ، حين عبرت الطائرات

القناة.. وسرعان ما دوت مدفعيتنا من الغرب .. باتجاه الساتر الترابي والحصون الحجرية لخط بارليف .

لكزه جندي ، ليختبئ فى حفرة ، أو خلف مصطبة ، وهو المدني .. إلا أنه لم يفعل، وقد شده المشهد .. آلاف من الجنود ، لا يدري كيف انشقت عنهم المصاطب الرملية ، يحملون قوارب مطاطية ، ألقوا بها علي صفحة مياه القناة . سرت قشعريرة لطيفة فى الماء، وحين عملت المجاديف ، رجف قلبه بفرحة مبهمة ، وتعلقت عيناه ، بقطرات الماء ، تنساب من الحواف العريضة للمجاديف، كفراشات بيضاء شفيفة ، ترقص وتتقافز فى الماء.

ألقاه أحدهم جانباً فى قوة ، وقع علي ظهره ، هالته السماء المغطاة بآلاف القذائف الحمراء، وقد استدارت الشمس . وأصبحت فى ظهر جنودنا ، عندئذ قال فى نفسه : الشمس فى عين العدو.

دخلت العربة شارع العريش الرئيس ، حيث مركز المدينة ، وحيث تقوم بعد المنتصف تقريباً ، مبان جديدة للمحافظة ، وللمصالح الحكومية المختلفة ، ويتعامد الشارع فى نهايته مع الشارع الموازي للبحر .

قبل أن يصعدا فى الشارع ، وحيث المقاهى البلدية ، قال السائق :

- نركن قليلا .

كان ذراعه مطوحاً خلف مقعده ، لامست أصابعه شتلات الخوخ ، قال :

- لا وقت لدينا .

وأشار له ، ليسلك الطريق الدائرة ، حول العريش ، طالعتهم أشجار الزيتون ، بجذوعها التى تميل إلي القصر ، وأوراقها النضرة ، فى لونها الأقرب ، لما نسميه أخضر زيتي .

ضغط السائق بقوة علي دواسة الوقود . ولكنه اضطر لتخفيف الضغط ، فقد التوت الطريق، وضاقت . علي جانبيها نهضت أشجار اللوز القصيرة ، الكستنائية ، وأطول منها قليلا أشجار المانجو بأوراقها العريضة ، واخضرارها البهيج ، ولاحت علي البعد أشجار البرقوق ، وتفصل بين المساحات المزروعة بالأشجار ، أسوجة من التين

الشوكي، اختفت ثمراته الحمراء ، بين أوراق غليظة ، باهتة الاخضرار ، تنفـــر منـــها أشواك متحدية .

لكم اشتقنا إلي زرع ، يرطب هواء الصحراء الجاف ، اللاهب وقت الظهيرة ، فقط ثلة من أشجار الخروع ، كانت بالقرب من شريط السكة الحديدية للعريش ، رأفت بحالنـا، حين كنا نهرع إليها ، في أي فرصة نقتنصها ونتسلل من معسكرنا القريب .

وفي هذا الصباح ، من الخامس من يونيو ٦٧ ، ولم نكن قد انتهينا من فطورنـــا ، ولم تكن الشمس قد شحذت همتها ، فى تسليط أشعتها ، فكر بعضنا ، الخالى من الخدمـة، في تدخين سيجارة عند الخروع ، وحيث يحلو الكلام ، ولم تكن الســاعة قـد تجــاوزت التاسعة ، حين لمح جندي المدفعية المضادة للطائرات ، من حفرته بجوارنـــا ، طـــائرتي مستير ، تحومان ، استعد للضرب . عاجله ضابطه :

– لا تضرب

قال : ...

– اسرائيليتان

– لا توجد أوامر .

نقرت إحدي الطائرتين مخزن الوقود ، والأخرى حملة السيارات . وبينما تصـــاعد الدخان أسود ناعقا ، عادت الطائرتان ، ونقرتا حفر المدفعية . التقطت جهازي اللاسلكي، وأسرعت إلي زملائى أفراد الإشارة ، كان ضابطنا ، يسأل فى بوق تليفونه الميداني :

– هل قامت الحرب .. ؟!

نزلت العربة بقوة ، مع انحدار الطريق ، حتى كادت جبهته تصطدم بزجاج العربـة الأمامي التفت إلي السائق فى ضيق . سرعان ما صعـــدت العربـــة ، فأمسـك كلماتــه الغاضبة.

تلفت إلي الخلف ، من نافذة العربة إلي يمينه . رأي أشـــجار الزيتـــون تتبـــاعد . أحس، ولا يدري كيف ، أنهما غادرا وادي العريش ، وتحقق من صدق إحساسه ، حيـــن نبهه السائق :

– الوادي الأخضر .. نقف .. ؟

لم يرد . وقد أدهشته كثافة الأشجار ، خاصة المانجو والخوخ ، ولاح علي البعد ، سور عال من الأسلاك .

تفحص بعينيه الأرض علي الجانبين . جُرفت طبقة رملية بعمق متر ، وأحيانا بعمق مترين أو أكثر ، ونمت فى الأغوار ، المربعة ، والمستطيلة أحيانا ، أشجار اليوسفي والخوخ والمانجو ، والبرقوق ، وبين الأغوار نهضت تلال رملية . حمل الهواء لهما رائحة البحر . وطالعا صفحته الزرقاء الفيروزية حين صعدت العربة الطريق . استوت الطريق ، فأبطأ السائق من سرعته ، ليعطيه فرصة ليحدد وجهته ، ولما لم يفعل، انحرف السائق بالعربة يمينا مع الطريق ، متفادياً دخول رفح ، ومبتعداً عن البحر .

وكان ما زال يلوك فى ذهنه ما تعنيه كثافة الأشجار التى ازدادت .

فجأة توقف السائق ، انتبه ، فإذا هما لا تفصلهما عن السور سوي أمتار قليلة ، تتبع بناظريه امتداد السور ، فاصلاً مصر عن فلسطين المحتلة . تأمل السور بأسلاكه الشبكية ، كشباك العنكبوت ، وعلوه الذي قدره بما يزيد علي ثلاثة أمتار . ولفت انتباهه، خلف الأسلاك ، أشجار متناثرة ، رجح أن تكون أكاسيا وسيسبانا .

كان برج المراقبة قريباً من هنا . لا يدري كيف وصل إلي هنا مع سرية الإشارة ، بعد تدمير الحملة فى معسكره قرب العريش ، كانت الأوامر أن تتقدم . تشعلق مع زملائه فى عربات زل مارة تارة ، ومشوا تارة أخري . طلب جندي البرج ماء . حملته إليه . رأينا تجمعا من العربات المدرعة . أسرع جندي المراقبة إلي تليفونه الميداني ، وأبلغ عما يراه أمامه فى مستعمرة الدنجور .

رأينا دبابات ، يبدو أنها خرجت من مرابض ، مختفية بين الأشجار ، حمل الهواء إلينا دخانها.

أسرع الجندي يصرخ فى البوق :

– تشكيل من الدبابات فى وضع هجوم . الطابور يتجه ناحية الحدود .

نزلت مسرعا . ضبطت جهازي اللاسلكي ، علي تردد قيادة اللواء ، وشرعت فى إبلاغ إشارة جندي المراقبة . صرخ بى ضابط الإشارة :

– هل هذا عملك .. ؟

أسقط في يدي ، فاستمر زاعقا :

– أترك جهازك الآن ، وأذهب مع زميلك ، لتتبع سلك التليفون ..للكشف عن أعطال.

أحضر زميلي بنسة وشريط لاصق ، ولفة من السلك ، ولم نكد نغادر ، حتى لاحقتنا القذائف . هرولنا وانبطحنا أرضا ، ثم نهضنا نبحث عن ملجأ ، وفي اللهوجة ، اختفي زميلي ، لا أدري هل أصيب ، أم وجد ملجأ . كل ما أدريه ، حين رفعت رأسي ذات مرة ، وقد خف القصف قليلاً ، تساؤلي فيما يتوجب علي عمله ، هل أنضم إلي الزملاء عند البرج، أم استمر في تتبع سلك التليفون . لم تطل حيرتي .. وفيما أقترب من البرج ، لمحت جندي المراقبة معلقا من قدمه ، وجسده مدلي .. نظرت حولي . حجرة واطئة علي طريق فرعي ، إلي خروبة . أسرعت إليها ، تلاحقني القذائف ، وأصوات المجنزرات .

التفت إلي السائق :

– استتر .

لماذا لم أتتبع السلك . أليس من الجائز أن عطبا أصابه ، تسبب في عدم وصول إشارة جندي المراقبة ، وكيف أتتبعه وسط قذائف الدبابات ، وطلقات الرصاص ، كان عليك العودة إلي موقع البرج . لقد قصف الموقع . ربما كان هناك من ظل حيا ، وفي حاجة إلي مساعدتك ، وربما لقيت ضابط الإشارة ، وعلمت منه الموقف . لا .. كان يجب أن أتتبع السلك ، وأكشف عليه.

وقف السائق فجأة . ارتجت العربة ، وارتج معها ، تطلع في غيظ إليه ، فأشار أمامه. بوابة رفح ، علي بعد أمتار قليلة . طالع السور الممتد بحذائها من الجانبين ، وقد علقت بأسلاكه ، بعض طيور البلشون ، أتراها لم تميز الأسلاك ، بسبب سرعتها في الطيران ، أم بسبب إرهاقها ، فلم تستطع أن تحيد عنها حين رأتها في اللحظة الأخيرة ..؟!

كانت رقابها الطويلة ، مائلة قليلا إلي جانب ، دون أن يفارقها كبرياؤها . وبـــانت ألوانها المتناغمة ، التى تضاهي ألوان ريش الطاووس ، أقل زهوا ، ربمـــا بفعـــل مـــا أصابها ، وربما بفعل دكنة غير مرئية ، تشيع فى الجو .

أشار للسائق ، باتجاه مبْنى صغير ، وسط الأغوار ، بالقرب من البحر .

بينما يلف السائق عجلة القيادة ، تعلقت عيناه بطيور البلشون . استشـــعر وخـــزات الأسلاك الشائكة فى أجسادها ، وقد تساقطت قطرات من دمها علــــي الزوايـــا الحديـــدة المشدودة بينها الأسلاك . ومع ذلك بدت عفية ، وخيل إليه أنها من الممكن أن تطير فـــى أي لحظة .

(٢)

خرج من المبني ، يتبعه سيناويان . مشي باتجاه طريق ضيقة ، موازية للبحـــر . تأمل التلال الرملية المرتفعة والمنخفضة ، وقد نمت فى الأغوار بينها ، أشجار الموالح . أبصر غورا متسعا ، قصده ، وربت بيمينه ، علي ما يحمله من شتلات خوخ ، وقد لفــها فى جريدة قديمة ، حماية لجذورها من أشعة الشمس .

لحظ أن السائق يتبعه . التفت إليه ، وأشار إلي المبني قائلا :

– تستطيع الانتظار هنك لو أردت .

نفي بهزة من رأسه . وفي مكان ظليل ، جلسوا جميعا . شرع الســيناويان يعــدان الشاى . طاف بنظره علي الأغوار من حوله . طالعته أشجار اليوسفي والمانجو والتفــاح والخوخ ، تلامس الساحل ، كأنها تغار من النخيل ، التى اقتربت بعض أشجارها منــه ، ولمح علي البعد أكواماً خرسانية ، بينها فجوات سوداء ، كأنها رؤوس أشباح ، ألهبتــها سياط الشمس ، وتجاهد فى الإفلات من قبضة الأنقاض .

وتذكر كلمة الرئيس السادات ، حين أراد الإسرائيليون الاحتفاظ بمستعمرة يـاميت ، مع أنها تقع داخل حدودنا ، فقال" يحرثوهــا" فنشروا الكلمة فى جرائدهم " يحرقوهــا" استقرت عيناه علي الغور الخالي من الشجر ، وأخذ يتصاعد ببصره علي جوانبه ، كأنــه يقيس أطوالها . قال أحد السيناويين :

– ستطول المياه الجوفية .

أوما برأسه ناحية البحر ، فاستمر الرجل :

– عذبة .

لم يعلق ، وتساءل فى نفسه : قريبة من الشاطي ولا تتأثر بملوحة مياه البحر .. !!

ناوله الآخر ، كوبا من الشاي ، أمسكه بين راحتيه ، لسعته السخونة ، وضعه بجانبه، وإذا امرأة في عباءة سوداء ، فضفاضة ، تخطو نحوهم . ثقلت قدماها ، تبسم موزع الشاي وقال :

- أقدمي .. ليسا غريبين .

بان عليها التردد ، وهي تستطلعهما ، فاستمر الرجل :

- الباشمهندس حمدي ..

توقف وقد تعلقت عيناه به ، فأكمل حمدي :

- أبو زيد

ظلت عينا الرجل معلقتين به ، فاستدرك :

- آه .. الأخ سعد الدري .. معنا علي " الجيب " .

أخذت كوب الشاي من اليد الممدودة ، وجلست علي استحياء بالقرب منهم . قال موزع الشاي :

- ندا ستساعد فى أرض الخوخ .

تبسم سعد الدري ، وهو يتفحصها . تفادت وخز النظرات ، مشيرة إلي الغور قائلة:

- الأرض جاهزة ..

رجع حمدي بضاضة جسدها ، رغم عدم إفصاح العباءة . قال :

- المهم الجذور تعض فى الأرض .

حانت منه التفاتة إلي سعد . وجده يضفر نظراته مع الخطوط الطولية الحمراء ، المشغولة علي صدرها ، وعند الوسط خطوط عرضية مضفرة معها فتلة ذهبية . صعد بنظراته إلي أذنيها الدقيقتين ، تدلي منهما قرط في لون سن الفيل ، وتلكأت نظراته نازلة علي رقبتها الطويلة ، فاستوقفها عقد من نفس اللون والخامة ، عاقها عن التلكؤ فوق ما ظهر من نحرها العاجي الأبيض .

طالعته عيناها الواسعتان المتسائلتان ، فسقط بصره علي يدها الملتفة حول الكوب. لحظ بضاضة عقل الأصابع ، فتيقن من ترجيحه ، وأكد لنفسه أن العباءة ، لن تخدعه عن

حقيقتها . رفع رأسه ناحية سعد ، فالتقت عيونهما في ومضة خاطفة ، أفصحت له عـــن ادراكه لحقيقتها مثله . نهض حمدي فجأة وقال :

- شربنا الشاي وحمدنا الله .

حمل أحد السيناويين شتلات الخوخ ، ووضع الآخر فأسا علي كتفه ، وفي أثرهمـــا نداء، بينما مال عليٌ بجذعه علي شجرة خلفه ، يلاحقها ببصره ..

خطا حمدي وهو يتساءل .. هل يصح الغرس .. وتنمـــو الشـــتلات .. أم يصـــاب بالخزي ويكون مادة للتندر تلوكها أفواههم . الأفندي المتعلم ، القادم من الوادي .. وهناك في محطة التجارب .. سوف تكون خيبته بجلاجل .

كان السؤال الذى يتردد علي الألسنة في محطة التجارب الزراعية . لمـــاذا خـــوخ سيناء طرى ، ملئ بالماء . إذا أمسكت حبة منه نزعت نصفيها بسهولة عـــن نواتـــها ، كحبة المشمس الناضجة ، ويسمونه " خوخ فرك ".أما خوخ الوادي فناشف ، متخشـــب ، تنزع لحمه عن نواته ، بصعوبة تتعب الأسنان أحيانا . ولكن رغم هذه الميزة المحببة في خوخ سيناء ، يفسد بسرعة ولا يتحمل النقل ، أو الاحتفاظ به في ثلاجة .

فكر حمدي أن يهجن الخوخ السيناوي مع الخوخ البلدي . يريد أن يحـــافظ علـــي حلاوة السيناوي مع إكسابه شيئا من صلابة البلدي ، فيخف ماؤه ، ولا يعطب بســـرعة . عرض مذكرة بذلك علي رئيسه ، لتكون موضوع بحثه .

تصفح الرئيس المذكرة بسرعة ، وقال متهكماً :

- بعد أن ينقشع الضباب .. !!

نشعت النكتة التى أومأ إليها رئيسه في ذهنه .

كان السادات ، قد وعد أن هذا العام عام تحرير سيناء من الإســـرائيليين ، وحيـــن انقضي العام دون أن يفعل ، تعلل في حديث له ، أن الضباب غطي قناة الســـويس فـــي موعد الهجوم ، مما عاق قواتنا عن العمل ، وشاعت علي الألسنة نكتة تقـــول : ذهـــب السادات إلي منزله فسأل أحد أبنائه عن الذي حضر ، فأجابه آخر : ضا بابا .

وحمدي ينصرف ، حاول رئيسه التخفيف من وقع تهكمه .

- حتى لو وافقتك .. كيف تحضر خوخ سيناء .. ؟!

لم ينبس حمدي ، ربما الرجل عنده حق ، كيف يحصلـــون علـــي شـــجيرات ، أو شتلات من سيناء ، والجنود الإسرائيليون يدلون بالسنانير فـــى ميـــاه قنـــاة الســـويس ، لاصطياد السمك. وقت الظهيرة ، يرتدي بعضهم ألبسة الاستحمام ، ويقفزون فى المـــاء ، غير عابئين بنا علي الضفة الغربية .

وبينما هو فى حيرته ، طالعته عناوين الجرائد ، قواتنا عبرت قناة السويس ، علـــي مستوي كتيبة،استولت علي موقع فى الضفة الشرقية ، عدة ساعات ، ورفعت العلم المصري . وأحضرت بعض الأسري .

داخل محطة التجارب فى اليوم التالي . صاح فى زملائه :

– وجدتها يا أوغاد .

أراهم مذكرة ، يطلب فيها من رئيسه ، رفعها لرئاسة الجيش ، لكي تحضر القـوات العابرة شتلات من الخوخ .

ضجوا ضاحكين وقال أحدهم :

– قابلني .. لورد عليك أحد .

لم يأبه لكلامه ، ودخل إلي رئيسه .

– تريد أن تضحك الناس علينا

– يا أفندم ..

– فكر فى بحث آخر .

ظل حمدي ساهما ، طوال بعد الظهر فى بيته . نفسه عازفة عن الطعام . ألحـــت عليه شقيقته حمدية ، حتى أخبرها . قالت :

– شقيق رئيستي فى الشغل ، عبر مرة مع قوات الصاعقة .

– نعم .. ؟!

وبعد أن استوعب كلامها ، قال :

– فكرك .. ؟

– أحاول

ود لو يتملص من مطاوعتها . لا شك تقصد الشاب الذى تحدثت عـــن زياراتـــه ، عرضا ، لرئيستها صفية صبور . اشتم من أحاديثها رائحة إعجاب . ولم يخف نفـــوره ، عندما علم أنه ليس حاصلا علي مؤهل عال مثلها .

هل تريد الماكرة ، أن تحدثه بما أريد ، لتحل مشكلتي ، أم لتوثق علاقتي به فـــأقع فى حرج إذا ما طلب مني يدها .

بينما هو فى تساؤلاته ، فوجئ بزيارة رئيستها ومعها شقيقها .

- الأستاذ صفوت .

سلم بيد حذره .. ولم يكن انتبه للفة ورق جرائد يحملها معـــه . عندمـــا رأي مـــا حوته، جرفه الحماس ، وسلم ثانية بحرارة ، ود ، معها ، لو يحتضنه ، وسرعان ما ألجم نفسه .. وجلس غير مصدق .. علي أيه حال يشكر ، ولكنى لم ألتزم بشئ .

وفي الصباح لم يكد يخطو داخل المحطة ، حتى صاح :

- أين أنتم يا أوغاد .. ؟!

تحلقوا جميعا حوله ، وذهبوا فى زفة إلي المدير ، ما أن رأي شـــتلات الخـــوخ ، حتى قال :

- يشرع فى التنفيذ فورا

تأمل حمدي الشتلات وقد غرست فى الغور ، دعا الله فى سره أن يشتد عودهـــا .

سأل:

- هل ما بقي يكفي غور خروبة .

ردت ندا :

- ويزيد

أشار إلي سعد الدري ، ليحضر العربة ، وقال :

- بنا

فى الطريق إلي غور خروبة ، وبالقرب من مدرسة علـــي الطريـــق ، استشـــعر حمدي، ولا يدري كيف ، رهبة شملت كيانه ، أشار لسعد بالتمهل .. ثم ما لبث أن طلـــب منه التوقف أمام المدرسة . فى باحة أمامها ، طالعته زهور قرنفلية حمراء ، زادتها أشعة

الشمس المسكوية يناعةرفع السلك العلوي ، وانحني بجزعه إلي الداخل ، محاذراً أن يمس السلك ، تحت قدمه المرفوعة وهو يعبر .

عدة فصول ، هي كل المدرسة ، لحظ من طريقه بنائها ، وحداثة طلائها ، أنها أضيفت لحجرة أقدم ، واطئة قليلا .

لم أكد ألجأ إليها ، حتى توافد بعض الزملاء من موقع برج المراقبة تلاحقهم دانات الدبابات ، نتوقع انهيار الحجرة فى كل ثانية . خرج أحدنا إلي الباحة ، عاجلته شظية فرقد مكانه . مبني بالقرب من العريش ، أطلقوا عليه مركز الإمداد بالرجال . كانت أول مرة أسمع فيها هذا التعبير ، أخبرني ضابط صف ، أنه عندما تبدأ المعارك ، تفقد الوحدات بعضا من مقاتليها ، فيتم استعواضهم من هذا المركز . وهكذا تظل الوحدة بكامل قوتها طوال الحرب .

وعندما لاح تساؤل فى عيني ، أردف ، طبعا فيه من كل الأسلحة ، مدفعية وإشارة ومشاة .. تبادلت والزملاء النظرات ، وقد اقشعرت أجسادنا . ضابط الصف يتكلم ، كأنهم يستعيضون ترابيزة بأخري ، أو كرسيا بآخر .

بعد تدمير موقعنا القريب ، أسرعنا نحتمي بالمركز.وجدنا الدبابات الإسرائيلية قد حاصرته بالقذائف من بعيد .

اقتربت أصوات الجنازير . وقف أحدنا بباب الحجرة ، وأخذ يطلق الرصاص من رشاش بورسعيد ، فجأة توقف عن إطلاق الرصاص . ظننت عطلا أصاب الرشاش ، الذي كثيرا ما كنا نتندر عليه ، ونسميه رشاش صيد العصافير ، لقلة مداه ، وكثرة أعطاله ، وسقوط خزينته .

وجدته ينزف ، سحبته إلي الداخل . لكزني زميل ، فرفعت رأسي . وجدت ثلة من الإسرائيليين فى الطريق إلينا .

خرج بعضنا بالرشاشات . ومن كان تسليحهم بنادق ، ساندوهم من الخلف .

انهال علي زملائنا رصاص غزير ، من مدافع مكنة سريعة الطلقات ، فسقطوا فى الباحة ، وأخذنا نطلق الرصاص من داخل الحجرة ، فى مواجهة الراجلين ، حاملي رشاشات عوزى القصيرة .

سرعان ما انسحبوا   ونحن لا نصدق عيوننا .. ولم نهنأ لحظات .. حتى انـــهالت قذائف الدبابات . سقف الحجرة الواطئ ، وبعض النخيل المنثور ، عاقا وصول أى قذيفـة مباشرة إلي مكمنـا .

لم نكد ننتبه إلي حلول المساء ، حتى سمعنا محركات الدبابات تدور . خمنا أنــــهم في طريقهم إلي السير .

وعندما سمعنا دوران الجنازير ، تنفسنا براحة ، عزت علينا طوال النهار .

صمت يغلف المدرسة ، حيث التلاميذ ومدرسوهم فى إجازة الصيف ، سارقا منــه الوقت ، وعيناه لا تفارقان الزهور الحمراء . تسلقت إلي سطح الحجرة للتأكد ، وجــدت طابوراً من المدرعات ، والجنود يغدون ويروحون حولها . هالني صغر سنهم ، وتـــورد خدودهم ، ولم يهتموا ، حتى بوضع الخوذات فوق رؤوسهم . وفي جانب مـــن الطريــق عربة تعيين ضخمة ، وبعضم يلتفون حولها ويتصايحون . وضابط سمين ، أو مســـاعد ، لم أفهم ما تعنيه علامتا كتفيه المعدنيتان ، تشبهان فرعي شجرة . يهشهم عـــن العربـــة ، ومجندات يقتربن ، أخذن علب " سفن آب " وبسكوت وشيكولاته . كثر صيـــاح الجنـــود وتزايد عددهم . خلع السمين قايشه ، ولوح به مطارداً ، فروا من جهة ، وعادوا من جهة أخري ، وهم يتضاحكون ويتصاخبون .

كان طابور مدرع بريطاني ، قد اصطف بحذاء قناة السويس ، ومدافعه فى اتجـــاه بورسعيد . تقدمت دبابة ووقفت فى مقدمة احدى الشوارع ، التي تصـــب علـــي القنـــاة . أطلقت عدة قذائف ، فتوقفت الحركة فى الشارع كله .

كنا فى مجموعة من خمسة أفراد ، تسللنا من بحيرة المنزلة ، إبان حرب ٥٦ ، فى زي الصيادين وبمعاونتهم ، قال قائدنا .. لو أعطينا واحدة فى أول الطابور ، وأخري فى نهايته لأصابهم الارتباك ونلنا منهم .

كانت معنا قنابل يدوية ، وقنابل " أنارجه " إذا وضعتها بجوار أي جسم تلتصق به .

اقترب أحدنا من الدبابة التى أطلقت القذائف ، ونجح آخر ، مستتراً بـــالبيوت ، حتـــى اقترب من مؤخرة الطابور ، وكمنا بأحد البيوت المطلة علي الشارع الموازي للقناة .

خرج بعضهم من الدبابات ، وتجمعوا حول إحدى محال البقالة في " الأفرنج ".

تخاطفوا المثلجات والشيكولاته والبسكوت . زحف زميلنــا بحــذاء الرصيــف ، وتمكن من لصق " أنارجه " بجنزير الدبابة . واستطاع الآخر القفز فوق دبابة المؤخـــرة وألقي قنبلة يدوية في فتحة البرج . دوت الانفجارات . تركــوا المحــل وهرولــوا إلـــي الدبابات، ورصاصنا يلاحقهم ، حتى انضم زميلنا إلينا . أسرعنا نحتمي بحـــي المنـــاخ ، حيث البوص وعشش الصيادين ، ومياه بحيرة المنزلة .

ارتد ببطء إلي الخلف يتأمل المكان . لامس ظهره السلك الشائك للســـور .. آه .. ليتني تتبعت سلك التليفون الميداني ، وهل كانت هناك جدوي .. ؟!

هبت ريح طرية ، تمايلت معها أغصان الزهور . لم ينل حفيف الريح من الصمت الذي يغلف المدرسة ، وأحس بجلال يملك عليه كيانه ، وهو واقف تحف بـــه الزهـــور الحمراء .

(٣)

خطرت فى عباءتها السوداء ، انحنت علي شجرة لوز . حين تمكــن مــن تقديــر عجيزتها طار لبه ، وكأنما لسعتها نظراته ، اعتدلت . قامة فارعة ، ممشوقة ، أبــرزت العباءة رغم أنها فضفاضة ، حجم ثدييها المتوسطين . شعرها الأسود الغزيــر ، حــول رأسها كالحواية . عصبته بمنديل أسود شفاف ، تساقط منه ترتر ملون ، يهزر مع جبينها عند كل لفتة . لم يطق صبرا :

– ردي يا بنت الحلال .

فرت من أمامه ، وانحنت علي شجيرات اللوز القصيرة ، تجمع ثمراتها الطحينيــة اللون . فى المساء كعادته ، جلس فى مقهاه ، فى آخر الشارع الرئيسي بالعريش ، ناحيــة السوق ، فى ركن بعيد عن دوشة التليفزيون ، حيث الرواد ملتفون ، يشــاهدون إحــدي المسلسلات الأجنبية . أحضر له العامل البوري ، وحجرين عــامرين بالمعســل . لــوح بمصفاة النار ، يميناً ويساراً .

ثبت الحجر فوق فوهة البوري ، كبس المعسل ، وضع النار ، ونفخ .

– شد يا أسطي .

شد الأسطي ، فتأججت النار ، وسُمعت طقطقتها .

نظر إليه بعينيه ، ففهم عنه ، وصاح :

– قهوة مضبوط ، لزوم الأسطي سعد

مع أنه يسمعه كل يوم ، لم ينتبه إلي لهجته الممطوطة من قبل ، وكل مــا يعرفــه عنه اسمه ، العايدي . وهو يضع صينية القهوة علي ترابيزته ، أمسكه من ذراعه .

– من أين .. ؟!

استمهله لحظات ، لبى طلبا ، وعاد إليه :

– دمياط .. عزبة البرج .

لمح التساؤل علي وجهه ، ما الذي رماك هنا . أسرع يلبي بعض النداءات . شـــد سعد نفسا عميقا ، اشتعلت معه الجمرات ، وأطلق دخاناً أبيض ، غزا المكـــان حولـــه . عاد إليه :

– كنت أعمل مع أبي علي مركب صيد سردين ، قلّ الطمي بعد الســـد العـــالي ، فهرب السردين. باع أبي المركب سداداً لرهن ، وسافر إلي اليونان . دلني أولاد الحـــلال علي بحيرة البردويل. لمح العايدي الدهشة علي وجه سعد . نزع الحجر ، وضـــع آخـــر مكانه ، نفخ فى الجمرات حتي تأججت .

– ما الذي أتي بى إلي المقهي . عملت فى البحيرة فترة .. سمك الدنيس الممتاز ، محصوله وفير ، وثمنه معقول ، ولا تنتظر الطريحة .. فى الحال يتم توزيعها .. حتـــي جاء الإسرائيليون .

– حضرت ٦٧

– استولوا علي البحيرة ، كأنها ملك لهم من قديم الأزل . ومنعونا من الصيـــد إلا بتصاريح ، وفي أوقات معينة ، ومناطق معينة . أحضروا مراكب ، وعملوا عبوات مـــن سمك الدنيس .. وطائرات كارتر ، تنقلها يومياً إلي مطاعم فرنسا وإيطاليا .

ضحك سعد ، وقد أدرك الخلط الذي حدث له . فقد وردت أمريكـــا لمصـــر أيـــام كارتر ، بعض الباصات ، سارت فى شوارع الإسكندرية ، وكانت تحدث فرقعات انزعج منها الناس ، وكلما رأوا واحداً حذر بعضهم بعضا : انتبهوا باص كارتر .

– تقصد شارتر .

– أنا عارف .. المهم .. لم أستطع العودة إلي دمياط بخيبتي .. فعملت فـــي هـــذا المقهي .

تصاعد تصفيق من جوانب المقهي ، أسرع العامل .. وسعد يشير إلـــي البـــوري ليحضر له حجرين . عاد إليه ، وقد انشغل أغلب الرواد ، بمتابعة المسلسل الأجنبي .

جذب سعد نفسا عميقا ، قضي به علي تردده فى مفاتحته ، وقال :

– عاشرت الميناوية زمنا ..

– أمرك .

- واحدة .. يعني ..
- سيناوية
أومأ برأسه ، وهو يتغلب علي حيائه ، بضبط الحجر علي فم البوري .
تفحصه العايدي ، وقال :
- ناي .
نظر إليه متعجباً ، بينما أسرع يلبي طلبا ، وهو يقول :
- ثوان
طلعت علينا الشمس ونحن نتحرك باتجاه القناة .. إذا انحرفنا إلي جـانب لا نـري السفن . إذا سرنا فى خط مستقيم برزت السفن ، وكأنها تسير فى الرمال . فلم تكن المياه تبين للسائرين من التباب الرملية . ضحك أحدنا معلقا ، وقد خيل إليه أنه سـمع صـوت ناي .
- السفن تظهر علي نغمات الناي
قال آخر :
- ثعابين يعني
استرحنا قليلاً فى حماية التباب الرملية ، نمنا نوما متقطعا علـي فـترات ، ليلـة العاشر من رمضان . تحركنا بعد الإفطار بساعة تقريباً . عند الكيلو عشرة ، أحسسنا فى الجو شيئا . لكن .. لم يتوقع أحد أن تقوم الحرب . ظننا الأمر لن يعدو إحدي العمليـات . نعبر لعمل كمين ثم نعود . كعادتنا قبل كل عملية ، تصافينا . تركنا عناوين بيوتنـا مـع جندي المؤخرة ، وأكدنا عليه :
- إذا لم يعد أحدنا أبلغ أهله .
كنت سأقبض جمعية علي العيد . تركت القسط مع الجندي ، وكان يتولي الجمعية.
قلت له :
- إذا مت لا أكون مدينا لك بشئ .. وإذا رجعت سلمني المبلغ .
نشعت عيناه بدمع خفيف ، وعقب وقد هرب صوته :
- فأل الله ولا فألك .

انتابتنا حمي صرف ما بقي معنا من نقود . بعد قليل لن تصبح لها قيمة . وتساوينا، من كان معه ، مثل الذي لم يكن معه . هفت نفسي لبلح رطب .

– ما رأيكم يا أولاد

– موافقون .

لبس كل منا سترة الحرب الواسعة ، ذات الجيوب الكثيرة ، لوضع القنابل والرصاص والسلاح والألغام .

فى الصباح مر علينا قائد القطاع ، وكان يركب عربة التعيين المحملة بالطعام ، حتى لا يشك أحد فى شئ .

وكانت التعليمات ألا يظهر فى موقع المشاه ، أكثر من العدد العادي ، وأن يمارس المشاة حياتهم اليومية المعتادة ، حتى لا يلحظ الإسرائيليون شيئا .

فى الحادية عشرة ، علمنا أن الطائرات ستعبر فى الثانية إلا خمس دقائق . بعدها ستقوم المدفعية بثلاث قصفات حتى الثانية وعشرين دقيقة . بعد ذلك نعبر . خلعنا سترات الحرب ، ولبسنا سترات المياه ، الفضفاضة ، جيوبها محشوة بالفلين . لمحنا القوارب المطاطية مموهة ، وشددوا علينا بمنع ظهورها قبل الساعة الثانية . قبل الموعد بساعة ، اقترح زميل لنا أن نفتحها ، وتساءل .. ماذا يكون الحل إذا فتحناها وقت الضرب ، ووجدنا أحدها مخروما ، وبالفعل وجدنا واحداً مخروماً . استبعدناه ، وأمرني القائد ، بإعداد قارب احتياطي كان معنا .

تطلع ناحية النصبة ، وبه شوق لسماع باقي كلامه . وتعجب لتأخره ، خاصة ، وقد غرق الجميع تماما فى مشاهدة المسلسل .

وتساءل : هل سيكون له حظ مع ندا .. وهل من الأوفق إخبارها أنه اقترب من الأربعين أي فى مفترق طرق ، أم أن هذا بدلا أن يقرب بينهما ، يصدها عنه .

أخبرنا القائد بواجبنا القتالي : سنعبر القناة بسريتين من الصاعقة ، نمر بجوار نقطة اسرائيلية فى الكيلو عشرة وتفاداها نسير مسافة تسعة كيلو مترات ، حيث سنجد مفترقا للطرق ، يؤدي إلي الموقع الاسرائيلي خلفنا .

علمنا من الاستطلاع ، أن لهم خمس دباباتوثماني عربات مجنزرة في الاحتياطي، تهب لنجدة هذا الموقع ، إذا تعرض للخطر ، واجبنا احتلال مفترق الطوق ، وتدمير هذه الدبابات . هذا المفترق يؤدي إلي الكيلو التاسع عشر ، ونقطة التبة والكيلو عشرة . وهذه الطرق مدقات عملتها اسرائيل بعد عام ١٩٧١ .

أوماً العايدي برأسه أنه حاضر .. هل سيفيد كلامه حقا .. أم أنه يضيع وقته . هو جالس علي أية حال . ولاحت له ندا بوجهها الصبوح ، كلما رآها ، أحس برجفة ، وأن الهواء الذي يتنسمه في وجودها ، يجعله خفيفا ، قادراً علي الطيران .

ما أن عبرنا ، حتي أحسست بالهواء الداخل إلي صدري ، يجعلني في خفة الريشة، لم يستمر هذا معي طويلا .

لمحت قنبلة مضادة للدبابات ، ملقاة بالقرب من القناة . تلفت حولي ، لم أجد من انتبه لي أو لها . تجاوزتها وأنا في عجب من هذا الجندي منعدم الضمير . تجاوزنا المكان . وقفت متردداً ، وزملائي ينظرون إلي غير فاهمين . عدت مسرعا ، التقطتها ووضعتها في حزامي . أم تري زواجي من ندا ، يغرزني هنا ، ويجعل من الصعوبة الرحيل لو أردت العمل في مكان آخر .

سرنا عدة كيلو مترات ، غرزنا في منطقة طينية .

ظللنا نعافر في طينة صفراء ، مشبعة بالماء ، وصلت حتي صدورنا . لم نكد نستقبل الطريق ، حتي رأينا الدبابات الخمسة . وزعنا أنفسنا بحيث نحتصن الطريق .

أطلقنا مدافع الـ ار – ب – ج . دمرنا أربع دبابات . أصيبت الخامسة في قطاعي في الجنزير . رشقنا مدفعها نصف البوصة بالرصاص . احتمينا في جانب من الطريق . انهالت علينا قذائف مدفع البرج . درجة ميل المدفع فوق الدبابة ، جعلت القذائف تحيد عنا . حاولنا إعطاب جنزيرها تماما . استدارت الدبابة للخلف ، لكن مدفعيها موجهان ناحية مجموعتي . مات أحدنا وجرح آخر .

زحفت لأحاول نسفها عن قرب . هممت باعتلائها وقد جهزت في يدي قنبلة يدوية . فوجئت بمن يطل من فتحة البرج . ألقيت القنبلة وقفزت بعيداً ، انبطحت ، وطلقات الرصاص تلاحقني ، لا أدري من أين . أحسست بتمزق في وسطي من الخلف ، وشُلت

إحدي يدي . أطل الإسرائيلي برأسه ، ألقيت عليه قنبلة بيدي السليمة ، يبدو أنها أخطأته، أحسست بعجزي تماما عن الحركة . كلما أطل ألقي عليه أحد الزملاء قنبلة يدوية . وفي كل مرة يختفي داخل الدبابة ، التى بدا أنها عاجزة عن الحركة .

تذكرت القنبلة فى حزامي ، الآن وأنا أجلس هادئا أتساءل : هل كان الجندي معدوم الضمير ، أم أنها سقطت منه فى لهوجة ولم يتمكن أثناء الزحف من التقاطها . ناولتها لزميلي الذي زحف إليّ . أخبرته أني سأشغلهم من الأمام ، وعليه أن يقفز علي الدبابة من الخلف ويلقيها من فتحة البرج ، وهو علي وشك القفز ، سقط تسيح منه الدماء ، لكن القنبلة أصابت الجنزير من ناحيته ، ناداني أحد الزملاء فى اللاسلكي ، شرحت له الموقف، تقدم ، وتمكن من القفز علي الدبابة ، جاءني صوته يصيح من عزم ما به ، وهو يلوح بقنبلة فى يده :

- سلموا يا أولاد الكلب .

خرج اسرائيليان ، وقد وضعا أيديهما فوق رأسيهما ، لم يكد يخطو بهم بضعة خطوات ، حتى زمجرت طائرات إسرائيلية فوقنا ، حاولا الفرار ، عاجلهما الزملاء بطلقات الرصاص ، فخرا علي الأرض . لففت رباط الميدان حول جرحي ، بمساعدة أحد الزملاء ، لوقف النزيف . حملني زميلان إلي المؤخرة .

نادي أحدهما علي الزملاء فى الضفة الغربية ، حتي لا يطلقوا علينا النار . فالتعليمات المبلغة لنا ونحن نركب القوارب : لا رجوع للوراء علي الإطلاق . ومهما حدث فسوف نركب القوارب . إذا انفجر لغم فى أحدنا . ولو اضطررنا سندوسه ، لكي يستمر العبور . لو طال الرصاص أحدنا فى القارب ، سنتركه ونعبر .. لا رجوع للوراء مهما حدث.

تركاني علي الأرض . أتحسس بيدي السليمة ، خلف جنبي الأيسر ، بعد أن تيقنت من مكان الجرح ، أخذت أقدر حجم الإصابة ، فتعثرت أصابعي فى دم متخثر ، أخذت أتخلص منه ، بفرك يدي بحبات الرمال .

غادر المقهي ، وقد حط الليل .. هل يأخذ بنصيحة العايدي بشأن الناي . وإذا لم يفلح هل ستكون فضيحة بجلاجل .

طافت البقرة في شوارع الحي ، قبل ذبحها ، وقد ، زينوها بأزهار حمـــــراء فـــي جانبي رأسها ، ووضعوا حول رقبتها عقداً من الفل ، تتدلي منه أجراس صغيرة ، ومشي صبيان المعلم بطبول فى أيديهم . وأحدهم يصيح علي قرع الطبول :

– بكم يا أولاد ..

فيرد الأولاد ، الذين تجمعوا علي الزيطة :

– بعشرة قروش

وغلب علي ظنه أن ما رآه منقوشا علي حجارة معبد فرعوني قريب مـــن بلدتـــه ، هو نفس الزفة ، أبدي ملاحظته لمعلمه فى التأهيل المهني ، حيث كان يـــدرس ميكانيكـــا السيارات، فأخبره أن ما رآه ليس زفة .. لكنهم كانوا يقدسونها . وإزاء دهشـــــته ، قـــال المعلم :

– ألا تقرأ الجرائد .. منذ أيام نشروا أن بقرة كانت تمر فى وسط عاصمـــــة الـــهند نيودلهي ، وتعطل المرور ، ولم يجرؤ أحد علي سحبها ، حتـــى تعطفـــت ، وتحركـــت بجلالة قدرها .

(٤)

واربت حمدية باب الشرفة ، وتطلعت إلي الأفق . سحاب رقيق أبيض ، يفصح عن مساحات زرقاء حينا بعد حين ، سرعان ما تخللته أشعة شمس واهنة فأخذ يشف ، ويرق، سابحا ببطء تعلوه زرقة لبنية . وبان سموق برج كنيسة مارجرجس ، وبدت في موازاتها ، غير بعيدة عنها ، مئذنة جامع السنيين ، مع أنها خلفها بشارع عريض .

تلاشت أصداء جرس الكنيسة ، وهو ما جعلها تنهض مبكرة ، وهي تتساءل .. يا ساتر .. ليس اليوم أحداً .. فلماذا دق الجرس . هل مات أحد .. وهل يفعلها أحد في هذا الجو البارد .

جاءتها أصوات عربات أجرة مبكرة ، من شارع سندوب ، الذي تري جزءً منه ، من فوق البيوت غير العالية ، هل تستقل عربة ، وتقف بعد كوبري سندوب ، علي الطريق الزراعية ، وتستلقط عربة متجهة إلي الشرقية . وربما صادفها الحظ ، ولحقت بباص العريش . المحادثة مع حمدي تليفونياً لم تعد تجدي . لابد من مواجهته ، ليفهم أنني لست متعلقة بصديقه الرائد عبد السلام ، ولن أستبدله بـ " صفوت " .

حانت منها التفاتة إلي البرج . بدا لها أن الجرس يترنح فى هوادة ، مستهلكا ما بقي من حركته ، ورجحت أن يكون الدق إعلانا عن عيد أحد القديسين. كثيراً ما لعبت فى الباحة أمام الكنيسة ، بين الأشجار ، يحدها سور كانت بجواره طريق ترابية في جانب منها ، عند اقترابها من الشارع المسفلت مقام شيخ ، خلفه مقابر المسلمين . الآن نقلوا المقابر فى آخر شارع سندوب ، وتوارت قبة المقام ، حيث نهض جامع كبير لجماعة السنيين . وعجبت من أمر حمدي ، هل هو حقا شقيقها الذى تعرفه . ولماذا لا يصغي لها . لا تتكر ، وهو يحكي لها عن مساعدته له فى مشروعه ، أنها قدرته ، وعندما التقته ، أعجبتها شخصيته . لكن هذا شئ ، وذلك شئ . عزمه حمدي ، بعد

حرب ٧٣ ، وأخذا يستعيدان ذكرياتهما ، كأنهما يمحوان الأيام التـــي فصلــت بينــهما . أوصاها أخوها بإعداد كعكة بالبرتقال التي تجيدها ، وكانت تضحك بينها وبين نفسها مـــن حماس أخيها ، كأنه أحد المشاركين في العبور ، مع أنه بقي في الخلف ، بـــل واضطـــر إلي التقهقر حين حدثت الثغرة.

قال أخوها:

– كان القائد موفقا ، حين عبر بقواته من موقع فيه أكثر من خمـــس مئـــة حفـــرة ، أحدثتها الدانات الإسرائيلية ، زنة ألف رطل ، رداً علي إحدي عمليات العبـــور ، قبـــل الحرب ، ورغم صعوبة تحرك الأفراد والمعدات والمركبات بين الحفر ، أصر القـــائد ، فالإسرائيليون لن يتوقعوا العبور من هذا المكان بالذات . وهكذا عبرت قـــوات الفرقـــة الثامنة عشرة دون خسائر تقريبا .

– لا تنس ، موقعنا في أرض زراعية واطئة ، وموقع العدو مرتفع فوق منصـــات رملية ، تطولنا نيرانه بسهولة ، وحصونه في هذا الجهة من أقوي تحصيناته .

كادت تفلت منها ضحكة مدوية ، وهي تغلق باب الفرن ، للهجة التي يتكلم بـــها ، وكأنه القائد الذي فتح القنطرة غرب .

– هاجم القائد المصري معظم التحصينات من الأمام ، والتحصينات البعيـــدة مـــن الخلف والأجناب ، وبني خطته ، كما لا حظت ، علي مواجهة سريعة جدا ، بكل القـــوة الضاربة دفعة واحدة ، مع محاصرة المدينة بنفس السرعة ، وباندفاع بقوته الرئيسية .

قاطعه أخوها :

– بالتأكيد كان مشكل القائد المدنيين في القنطرة .

– بالضبط ..

قالها ممطوطة ، ثم وهو يضحك :

– كما كان مشكلي تأمين مزرعتك .

وانفجرا ضاحكين .

– وهذا صعب من مهمته ، كيف يقتحم المدينة ، دون أن يمس ســـكانها بســـوء ، وكان أمامه كما تعلم سبعة حصون من خط بارليف ، ومسافة المواجهة حوالي أربعيـــن

كيلو مترا ، ركز قواته وهجومه علي حوالي عشرين كيلو مترا ، أمام الحصون الأربعــة الرئيسية ، واقتصر بضرب النيران علي النقاط المتطرفة شمالاً وجنوباً .

بدا لحمدية أن نضج الكعكة سيتأخر ، فأجلت صنع الشاي ، واعتزمت أن تقدم لهما القهوة أولا . دخلت بالصينية ، لحظت صديقه منفعلاً ، وقد اشتعلت عيناه ببريق ، كأنــه يري ما يتكلم عنه:

– هاجم النقطة الأولي والرابعة ، وأحاطهما بدرع من قواته خلفهما ، حتي يكــون فى وضع يتصدي فيه لاحتياطات العدو .

وجدت نفسها تهتف :

– شاطر .

– وجعل لدعمه ، أعماقا متتالية ، يصعب اختراقها .

أومأت لأخيها ، ليقدم القهوة . لكنه كان مشغولاً عنها ، فأمســكت الطبــق بيــد ، وسندت بالأخري الفنجان فوقه ، وناولت الضيف . حدق في عينيها برهــة ، ولا تــدري لماذا أحست برعشة .

– تم احتلال النقطة الأولي والنقطة الرابعة ، بعد خمس وعشرين دقيقة بــالضبط ، من العبور بالمشاة والأسلحة الخفيفة . ورُفعت الأعلام المصرية .

انطلق أخوها ، وقد تألقت عيناه :

– هذا هو الكلام .

– وبدأ حصار القنطرة بعد خمس وثلاثين دقيقة بالضبط .

تطلعت إليه ، وقد عجبت من دقته فى تذكر ما تم بالدقيقة . تفهم نظرتها ، وعقب :

– لأن بعدها بخمس وعشرين دقيقة ، يحين دوري فى العبور ، وبعد أن كنت مــع وحدتي مقدمة لقواتنا بالقرب من القناة ، سأكون نظراً لمعرفتي الجيدة بالمنطقة ، مؤخــرة لقواتنا العابرة لتأمين عودة الجرحي ، وتأمين عبور المهمات والإمدادات ، والتفت إلــي أخيها ، بينما يحدق فى عينيها :

– وتأمين المزرعة .

أفلتت منها ضحكة خافتة ، جاوبها بابتسامة ، ووجدت نفسها مشدودة ، ولا تريد أن تطاوعها خشية احتراق الكعكة .

– هاجم النقطة الثانية واحتلها ، وفي الثامنة من مساء نفس اليوم ، السادس من أكتوبر بعد مقاومة شديدة ، امتد الحصار من منطقة شمال البلاح ، وكان الجانب الأيسر منطقة الحرش .

تناول فنجانه ، ورشف رشفات سريعة ، قدرت معها أن القهوة بردت ، انتبه أخوها فتناول فنجانه ، بينما سرحت عيناه إلي بعيد ، فخمنت أنه لاشك ، يستكمل ما نقص من الصورة ، التى رآها ، ولم يكن يستطيع أن يلم بكل أبعادها ، من موقعه في الخلف ، وجاءهما صوته ، بطيئا ، متهدجاً :

– بدأ الهجوم الإسرائيلي فى الثالثة إلا ربعا ، واستمرت الهجمات المضادة ، حتى الغروب فى السادسة مساءً تقريبا .

هاجم العدو من اليمين واليسار والمنتصف لفك الحصار ، وركز ضربة شديدة في السادسة إلا ربعا علي الجانب الأيمن ، واخترق الحصار بالفعل .

وضع الطبق بيد متوترة ، والفنجان يهتز فوقه . نهضت مسرعة وقد خيل إليها أنها شمت رائحة شياط ، وصوته يلاحقها :

– تراجعت القوة المصرية ، حوالي ثلاثة كيلو مترات ، نظم القائد دفاعاته بسرعة، وعلي أعماق متتالية ، حتي إذا اخترق العدو ، وقع فى مصيدة نيران فى مساحة عمليات تقرب من ثمانية كيلو مترات .

استمرت المعارك طوا ل الليل ، عطل الاختراق قدرتنا علي عبور الدبابات ، وركز العدو علي ضرب المعديات، فكان عدد محدوداً من الدبابات يعبر كل ساعة تقريبا.

أحست بصهد حارق وهي تفتح باب الفرن ، وكادت تنسي وتمد يدها دون بطانة لتسحب الصينية .

– الاختراق من الجانب الأيمن لم يفلح ، لكن الإسرائيليين استعادوا حصن شمال البلاح ، ثم استعدناه ، واستمر الموقع مناصفة بيننا طوال الليل . وفي السادسة من صباح اليوم التالي ، هجمة مصرية مضادة ، واستعادت قواتنا الموقع تماما ، وتقدمت ثلاثة كيلو

مترات بعد أن دمرت ما يقرب من أربعين دبابة ، وهرب بعض الناجين بأربع دبابـــات ، لكن القذائف لحقت بها ، وفجرتها . لم نكد نهنأ ، حتى وجهوا ضربـــة للجـــانب الأيمـــن لقواتنا من اتجاه حوض " أبو سمادة " جنوب رمانة .

– آى ..

نهض حمدى مسرعاً . وقف بباب المطبخ . بنظرة سريعة أدرك ما حدث . انفلتـت منها البطانة ، فلسعتها صينية الكعكة . عاد بهدوء وأومأ له برأسه أن يستمر :

– وعند الظهر تمكن العدو من اختراق جزء من مواقعنا ، لكـــن الدبابـــات التـــى عبرت طوال الليل أمكنها استعادة الموقف ، حتي صباح اليوم التالي ، ولم أكـــن نمـــت بالمعني .

قال حمدي :

– ولا أنا

وكادت تقول :

– ولا نحن

وجاءتها ضحكاتهما . وقد فهمت ما تبطنه ، ففرق بين نوم ونوم .

– وجه الإسرائيليون ضربة فى خطين . وحذر قائد الجيش الثاني قائد القنطـــرة : لواء مدرع إسرائيلي يتقدم إليك مع أول ضوء . رجونا أن يكون الاستطلاع تمكن حقـــا من معرفة نوايا العدو . علي أية حال انتظرناه عند نقطة معينة ، بحيث نفاجئـــه بقصفـــة نيران مركزة . وطلب منى القائد أن أكون مع جنودي بالقرب من القناة ، متوقعا ترحيـــل جرحي كثيرين ، وأن أكون مستعداً بنقطة إسعاف سريعة . واختار القائد موقع قيادته فـــى مكان مرتفع يطل منه علي الجبهة . ويستطيع أن يراقب الموقف ، ويقدر المسافات .

دخلت حمدية ، وهي تؤكد ، أن الشاى والكعك ، في طريقه إليهما حالا ، بينما كان يؤكد لأخيها :

– آه .. المعركة الناجحة تقدير مسافات مع تقدير موقف .

افتر فمه عن ابتسامة ، وركز عينيه علي وجهها ، كأنه يخصها بها ، وقال :

- فوجئ اللواء المدرع بالقصف الشديد فارتبك . ظهرت الطـــائرات المصريـــة ، وأعتقد تم تدمير حوالي ثلثي المدرعات ، وكنت من موقعي علــــي حافــة القنـــاة ، أري الطيار المصري ، يدور ثلاث مرات ، كأنما يتأكد من مواقعهم ، ويقصف ، ويقصف .

علق أخوها :

- طبعا طائراتهم لم تشترك بفاعلية فى هذه المعركة للخسائر العاليـــة فـــى بدايـــة الهجوم.

أومأ برأسه وهو يقول :

- بالتأكيد . فشل الهجوم علي الجانب الأيمن ، ولكن العدو ما زال يهاجم الجـــانب الأيسر ونجح فى تحقيق اختراق جزئى .

رفع ناظريه إليها واستمر :

- وحياتك .. ماهي إلا خمس وأربعون دقيقة ، حتي طهرنا هذا الاختراق .

تنهد ، كأنه عائد من مشوار ، وأخذ راحته فى الجلسة ، وشملهما بعينيـــه ، وعـــاد صوته هادئا رزينا :

- بعدها ، يئس العدو من استعادة القنطرة ، وفي مساء الثامن من أكتوبـــر ، كـــان جنودنا يسيرون بين الأهالي فى الشوارع ، يتبادلون الأحضان ، وقد أطمأنوا إلي ســلامة الناس .

أسرعت إلي المطبخ ، أخرجت الصينية . تأملت وجه الكعكة المضئ ، وتمتمت :

- صنعة يدي وحياة عيني .

(٥)

اضطجع صفوت بظهره علي كرسي الشاطئ ، ومدد رجليه . أحس بعدم راحـــة . نهض ونزع عارضة الكرسي الخلفية ، من تعشيقتها فى قائمي ظهر الكرسي ، ووضعـها فى تعشيقتين أخريين إلي أسفل . وجرب الاضطجاع . اســـتراح ظـــهره مـــع تقويـس قماش الكرسي ذي الخطوط الطوليـــة العريضـــة ، زرقـــاء وحمـــراء . مـــدد رجليـــه فى استرخاء ، وتطلع إلي مياه بحيرة التمساح الوادعة ، الممتدة ، عن يميـــن وشـــمال ، وفي الأمام ، تمسح صفحاتها موجات ، كقطيطات ، لطيفة ، مداعبة . وتســـاءل : هــل ستأتي حمدية ..؟!

علي البعد ، زورق منساب من طرفيه ، يشبه انسياب خرطة المحوجة من طرفيها. وعكس لونه الأبيض ، شمس الضحي ، فرأي من خلال زغللة عينيـــه ، فتـــي وفتـــاة ، والزورق ينزلق فى خفة ، فهو بالكاد ، شريحة من الخشب ، لا بطن تذكر لها . وضحك في نفسه ، حين تخيل منظره ، وهو يسقط من القارب المطاطي ، فوق بحيرة قـــارون . كانت "الشدة" تعوقه ، لكن لابد من التدريب علي العبور بها ، وإلا بماذا سيلاقي العـــدو . كان يحمل حزامين ، واحد به زمزميتان وقنبلتان يدويتان دفاعيتان ، وآخريان هجوميتـــان، الدفاعية مقسمة إلي مربعات ، تتحول إلي شظايا ، كأنها طلقات الرصاص . والأخـــري ملساء ، ويمكن للمرء أن يلقيها وهو يجري ، أو من خلف ساتر . وكان معه كوريـــك ، وأزميل لزوم جماعته .

قالت حمدية :

– ليتني كنت معك .

أغرق فى الضحك ، ولم يستطع أن يتصورها ، تحمل حقيبة المـــهمات ، بقامتـــها المتوسطة ، تميل إلي القصر ، مع استعداد للسمنة . وهذا عيبــــها ، كمـــا يـــري . فـــإذا تزوجت وجاءت لوازم الزواج من حمل وخلافه ، هل تبعجر .. ؟! .

كانت الحقيبة محملة بــــالذخيرة ، قذائــف مدفــع أر - ب - ج . وهـــذا المدفـــع اسطوانتان ، تركب الواحدة فى الأخري ، وتوضعان علي ما يشبه مجري ، ويوجد تتـــك لإطلاق المقذوف . وفي الحقيبة ذخيرة رشاش خفيف ، وطلقات بندقية آليـــة ، وطلقـــات لمسدس يعلقة فى أحد جنبيه . هل كان جزعها البسيط ، بثدييها الرهيفين ، يتحمـــل هـــذا الثقل . أم كانت تضعها فوق عجيزتها وتسندها إلي ظهرها بيديها ، وأين عجيزتها ..؟!..

كانت المصالح الحكومية ، وطلبة الجامعات والمدارس ، يقومون برحلات لمشاهدة خط بارليف ، بعد الحرب .

انتدبته وحدته ليرافق بعض الرحلات ، التى تزور قطاع السويس ، لخبرته فى هذه المنطقة . وعندما أخبرته شقيقته ، أن مصلحتها ، في طريقها للزيارة ، استأذن قــــائده ، ليكون فى رفقتهم ، مع أنها لم تكن ورديته . فصفية قالت للزمــــلاء والزميـــلات ، أنــــه سيكون معهم ، وتوقعوا أن يأخذوا راحتهم فى التجول والمشاهدة .

أخذهم إلي موقع أبي جاموس . هذا المدفع الضخم ، الذي كان يقذف حممه علــــي مدينة السويس .

تحلقوا حول المدفع وتطلعوا إلي ماسورته .. ونقلوا أنظارهم إلي صفـــوت .. فـــي ضعف قامته الطويلة .. وهو الذي من فرط إحساسه بها ، قد انحنت رأسه قليــــلا إلــــي الأمام ، وبانت رقبته منحنية بين كتفيه البارزتين . وقاعدة المدفع ضخمة تتحـــرك علـــي عجلات .

- كيف لم يستطيعوا اصطياده .. ؟!

أشار صفوت إلي باب ضخم من الفولاذ ، انبعجت إحدي ضلفتيـــه ، مـــن قذيفـــة مباشرة علي ما يبدو . ووجه نظرهم إلي أسفل حيث مجري حديدي ، يســـمح بحركـــة الباب ، يمينا وشمالا ، وقال :

- حين يطلق المدفع ، وقذيفته ضخمة ، تشع نارا ، من السهل أن نلمحها على بعد عدة كيلو مترات ، ونحدد موقعه ، وندمره . لكن الذى كان يحدث أنه فور الإطلاق ، تنغلق ضلفتا الفولاذ ذاتيا بالكهرباء فلا يلمح أحد وهج القذيفة ، ونفس الأسلوب ، تقريبا ، اتبعوه معنا فى حرب الاستنزاف .

علقت حمدية :

- بوابات أيضا .

أمسك ، وقد أخذته القفشة ، وخفة الدم ، والعفوية فى الكلام ، ضحكوا جميعا .

قال :

- كشفت الملاحظة عدة مصاطب ترابية ، على ارتفاعات مختلفة ، مختفية خلف المصطبة الترابية العالية ، المواجهة لنا على شط القناة . تطلق الدبابة ، وسرعان ما تهرب على منحدر إلى المستوى الأقل ارتفاعاً ، وتختفي عن أعيننا .

أشار لهم بيده ، ليشاهدوا الأجزاء الأخرى من الحصن . كاد يخبط فى حمدية ، وقد انثنت ، تتفحص مجرى الباب الفولاذي ، كأنما لتتأكد من كيفية غلقه بسرعة البرق، وقد التوت فوقها ماسورة المدفع الضخمة ، طالعته مؤخرتها ، قال ياما هنا ياما هناك ، وعندما رآها معتدلة ، حدث نفسه ضاحكا : خُدعت ،أم خدعنى الفستان المحبوك.

صعد بنظره إلى أعلى .. شعرها قصير ، خفيف ، ملتف فى أنصاف دوائر للخارج ، حول رقبتها القمحية ، وقد تسرب نمل من الزغب ، من طوق فستانها .

رفعت ناظريها إلى ماسورة المدفع الضخمة ، المعوجة ، التفتت إليه فجأة ، فلاقى عينيها الدهشتين .

قالت أو بالأحرى ، دارت ارتباكاً خفيفاً ، وهى فى مشروع ضحك :

- أبو جاموس ..!

أسرع صفوت يمسك إحدى يديها ، وكادت تتعثر فى الرمال غير المستوية والحجارة ، وهى لا تمكنه منها ، وقد علا وجهها عبوس خفيف ، لم يحدث أثره ، لإطلالة خفة الدم من عينيها العسليتين الصغيرتين..

قال :

- هذا المدفع ، كاد يصيب أهل السويس بالجنون ، فهو يطلق قذائفه طوال حرب الاستنزاف قبل حرب ٧٣ فتسقط فوق البيوت ، فى أحد الشوارع ، لذلك أسموه أبا جاموس.

قالت ضاحكة من حنجرة حشوها ملبن :

- أبو جاموس فعلا .

وهي تعبر ، مجري بوابة المدفع ، تركت له يدها ، وقد أخذه صوتها ، المبطن بحنان مستتر. لا يدري من أين ظهرت صفية . أخذت يدها من يده وقالت :

- أبو جاموس .. ولا أبو جلامبو .. !

سرح ببصره فوق الماء ، آخذاً فى عمق شهيقا أنعشه .

ينظرون حولهم ، فلا يجدون غير الماء . عبروا خليج السويس . لحظ قائد الطائرة صمتهم . فتح باب قمرة القيادة ، وقال :

- لماذا الوجوم .. قواتنا التى اقتحمت القناة ، حققت انتصارات كثيرة .

زال عنهم الخوف ، بعض الشئ ، لكن لم يتبادلوا أي كلام

خلال الباب المفتوح رأوا الملاح الذي يساعده . تقدم فني الطائرة عدة خطوات ، كانوا قبل آخر ضوء من يوم السادس من أكتوبر ، وقال :

- هيا يا رجال

وفتح بابا فى مؤخرة الطائرة . وقف الرقيب متردداً . صاح الفني :

- هيا يا رجل .. هل تخاف .. ؟!

قفز الرقيب ، وكان صفوت التالي له ، لتأمين مكان الإنزال .

سمع حفيفا ، تلفت . وجد فتي وفتاة يتقافزان ، وبينهما لوح خشبي أبيض ، مطوي الشراع . تنهد .. قالت حمدية بصوت مندي بالأنوثة :

- لو كنت في الطائرة .. ؟!

غاص فى عينيها ، عميقتي الغور . هل هذا الغور هو الذي أغرقه فى بحورها . أم هي النظرة الدهشة التى طالعها فى عينيها ، عندما أخبرها ، أنه قبل أن يقفز من الطائرة سمعوا جميعاً صدمة فى طائرة علي يمينهم ، لكنها كانت دهشة معززة بالإشفاق .

كانت الطائرة فوق الخليج ، وسرعان ما اختفت عن أعينهم ، ولمحوا في الأفق طائرتين اسرائيليتين . أغلب الظن مستير ١٧ . أغلق الفني باب الطائرة . اقتربت إحداهما وأطلقت قذيفة ، تفاداها الطيار بالانحراف قليلا ، ثم ارتفع بسرعة ، فلم تصبنا طلقات الفيكرز ، التى أطلقتها الطائرة الأخري .

امتلأنا ثقة بقائد الطائرة ، وأننا فى مأمن معه . كدنا نتخطي مكان الإنزال بالقرب من جبال سدر . متوسطةالإرتفاع ، أعلي قمة فيها فى ارتفاع عمارة من أربعة أو خمسة طوابق . كفت الطائرتان عن ملاحقتنا ، طرنا إلي نقطة التجمع ، وبينما عجلات الطائرة تلامس الأرض ، فوجئنا بخمس طائرات تطلق القذائف ، وتصيب بالفيكرز الأفراد الذين قفزوا .

قالت حمدية فى جزع :

– كنت قفزت .

– لا سبقتنا عدة طائرات ، كنا كتيبة صاعقة من أربعمئة فرد ، وكل ثمانية فى طائرة هليكوبتر .

استردت أنفاسها .. تسير بخطوات وئيدة . فصل الزحام بينهما . تلفتت حولها وقد انعقد جبينها ، اقتربت منها إحدي الزميلات :

– مال القمر ماله ..

رفعت حاجبيها الرفيعين ، وعلقت :

– بلاهْ

ضحكت زميلتها ، وقالت فى دلال :

– اتركيه لي

عقصت مابين حاجبيها وعاجلتها :

– " اتلمي " يا بنت

أوصلتهم أقدامهم ، وقد تعبوا من التجوال في الحصن وما حوله ، إلي كشك قريب فى وسط الصحراء . وجدت صفوت فى انتظارها وقد أمسك فى يده زجاجة مياه غازية، وإلي جواره علي حافة الكشك علبتان من البسكوت ، تطلعت بامتنان إلي عينيه

السوداوين ، جفناهما العلويان منتفخان قليلا ، في وجهه المدبب الذقن ، والذي يشبه وجـه تحتمس الثالث ، كما يقول شقيقها حمدي . ويعطي سواد عينيه مع شعره القصير الغزير ، الأسود ، المتدرج فى الانخفاض من الجبهة حتي الخلف .. إحساساً بالألفة لمـن يـراه .

تناولت الزجاجة باسمة :

– جاءت فى وقتها .

تناول زجاجة من فتحة في الكشك ، يقف فيها جندي ، يلبي طلبات مـن تكـاثروا عليه . نضحت حبات من العرق علي شفتها العليا ، جففتها بمنديل ورقي وقالت :

– وعدتني بالغداء عند عيون موسي .

سمعها جندي المقصف ، فقال :

– لا تذهبا .. فالإسرائيليون ليسوا بعيدين .

أحس صفوت بقلقها ، وهي تتململ فى وقفتها ، طمأنها بصوته الخفيض المتـأني ، وقد حدبت عليها قامته النحيفة .

أتراها ، أخفقت فى الحضور .. ؟! لا يدري لماذا وافقها علي الذهاب إلي شـقتهم فى " عرايشية مصر " .

حقا ، الشارع واسع ، لكن منظر البيوت علي جانبيه ، بألوانها الكالحـة ، يشـبه منظر المساكن الشعبية ، فى مداخل المدن ، يوحي بالفقر ، ولا يخلو الأمر مـن امـرأة تفترش مدخل سلم بيت تنقي أرزا ، أو أخري تبيع حلوي رخيصة ، وأطفال فى حـال لا يسر ، يصخبون حولها ، أو بالقرب منها . هل استخف حمدي بحجتها ، عرض بعـض الأوراق علي رئيستها المريضة ، ومنعها ، وقد استشف أنها تسعي للقـاء ، أو أن هـذا سيحدث لا محالة .

لو علمت ما بي .. لركبت طائرة .

كانت الطائرة لا تقف تماما . ما أن تمس عجلاتها الأرض ، أو تقترب منها ، حتي يسارع بعضهم إلي القفز ، وتحلق الطائرة ثانية وتعود ، سقطت عـدة طـائرات علـي الأرض ، كأنما رشقها عملاق بقوة . علموا أن قائد التشكيل مات . كان مصابا بـانزلاق غضروفي ، وممنوع من القيادة الميدانية ، لكنه أصر علي الاشتراك .

وحين حطت الطائرة بقوة ، تأثر عموده الفقري ، حيث كان فى مقدمة الطائرة ، يشجع الأفراد علي القفز .

فُتح باب الطوارئ ، فى جنب بالقرب من المقدمة ، وظل الطيار محتفظاً بمسافة بسيطة بينه وبين الأرض ، لا يلامسها ولا يرتفع عنها.يميل يميناً وشمالاً ، حتى يفوت علي الطائرات المهاجمة دقة الإصابة . ترددت وأنا قرب الباب . صاح الفني :

– اقفز يا وحش .

لم أدر بنفسى إلا وأنا فى الهواء .

يبدو أن الطائرة كانت فى حالة تحليق بسيط ، فاختل توازني ، لست أعى بالضبط ما حدث .. كل ما أعيه ، سقطتي بقوة علي أحد جنبي ، وشيئا ، انفجر تحتي بصوت مكتوم ، وإحساسى بالبلل .

ضحكت حمدية ، وقد مالت زجاجتها ، فتساقط بعض الشراب علي البنطلون . كان فخذاها الممدودان ، ملتصقين ، تقريبا ، وهو يستمرئ ، إحساساً بالدفء والحنان ، وقد استندا بظهريهما إلي خلفية الكشك ، وبحث بعينيه عن صفية ، فحمد الله أنها غائبة وسط أفراد الرحلة .

– قم يا رجل . الماء سال من زمزميتك .

ومد يده لي .

– ظننت ضلعا كُسر .

نهضت حمدية ، وقد احمر وجهها ، حين لاح وجه صفية تبحث عنهما ، وترددت فى شده من يده الممدودة .

تجمعت فصيلتنا ، وسرنا لنأخذ أماكننا .

نجا نصف القوة تقريبا ، وتولت أقدم رتبة القيادة ، وكان رقيبنا قد أصيب ، فتوليت مكانه . وأعيد تشكيل الكتيبة من جديد ، احتللنا قمة جبال سدر ، وقسمنا إلي مجموعات ، تحتل طوال الليل ، وتذهب للراحة نهارا ، مع ترك نقطة ملاحظة . وكان معنا تعيين يومين فقط . وظللنا علي هذا الحال ستة أيام .

نظر وراءه ، لم يلمح أحدا ، وحجب عنه الشارع المبني ذو الطابقين ، حيث تؤجر حجراته للمصطافين ، والطلبات تخرج من مقصف علي يمين الداخل ، وقد بدأت تتوافـد بعض العائلات إلي الشاطئ .

هل وقع حادث فى الطريق . طلبت منها ركوب البـاص ، ولا داعـي لاسـتخدام البيجو ، التى تغرى سائقيها بسرعة غير مأمونة . طبعا نفذت ما في رأسـها ، ركبـت الأسرع ، وغير المقيدة بمواعيد .

أم تراها صفية ، وهي تعرف بحسها ، ولابد ، أني فى انتظارها ، قـد أخرتـها ، تشفيا بي ، لأني لم أصارحها .

هل تستعذب الآن رؤيتها لحمدية ، تقفص ، وتبالغ فى إكرامها ، مدعية عدم الفـهم لتعبيراتها غير المفصحة ، عقاباً لها هي الأخري ، لأنها لم تخبرها بموعدنا ، وإحساسـها أن شيئا يتم من خلف ظهرها .

أم تري حمدية أخبرتها ، فلا أحد يستطيع أن يتكهن بالضبط ما يدور بين امرأتين ، وأن الأمر لا يعدو ، قيام صفية بواجب الضيافة ، مستكثرة ، أن تكـون رئيسـتها ، ولا تحتفي بها كما يجب .

هل علاقة صفية ، غير المستتبة مع حمدي ، قد انعكست علينا ، وهي تعلم ما بيننا . لا .. لا أظنها تتصرف بوحي من ذلك .

هل أذهب إلي البيت .

لن تتركنا صفية ، ننعم بالحديث فى خلوة ، ليس تطفلا منها . سوف تجد من غـير اللائق أن تترك مضيفتها .

وإذا طلبت منها إعداد طعام الغداء ، ستغضب ، لأني لم أطلب مبكرا . وأذهـب .. وأشترى من أي مطعم ، وتكون النتيجة أن تختلي هي بها .

أصبر .. لعلها فى الطريق ..

صبرنا ، وفي اليوم السابع ، بعد الفجر بقليل ، لم نكد نذهب إلي مغارتنا ، حتـــي أنبأت الملاحظة ، بقدوم تشكيل اسرائيلي ، عربة جيب وعربتان مدرعتـــان ، محملتـــان بالجنود ودبابتان .

صاح القائد :

– كما كنت .

رجعوا جميعا ، وأخذوا مواقعهم أعلي الجبال ، واستعدوا بالرشاشات طويلة المدي، ومدافع الـ آر – ب – ج ، المضادة للدبابات ، ومدافع الهاون .

قال رئيس العمليات :

– تشكيل لجس النبض ، لا داعي للتعامل معه .

قال القائد :

– الأوامر، ألا تمر نملة من المضيق .

– نحن فى انتظار طابور مدرع من الاحتياطي التعبوي ، لنجدة حصون بارليف علي شط القناة .

– استعد .

– أمر سعادتك .

جلس كل منهم خلف مدفعه ، وأصابعهم علي الزناد ، فى انتظار الأمر بالضرب .

كانت الأوامر تقضي ، أن يتركوا التشكيل يمر دون أن تفارق أول عربة مدي مرمي أول جندي فى المقدمة ، وأن يكون آخر جندي ، فى متناوله آخر التشكيل ، وأن يضرب هو علي المقدمة ، ويضرب جندي المقدمة علي المؤخرة ، وهكذا يحاصرون التشكيل .. فلا يستطيع أن يتقدم أو ينسحب .

تسرع جندي المؤخرة ، وضرب أول عربة مارة . فتحوا علينا النار ، ففتحنا عليهم جميع الأسلحة . تمكنا منهم ، عدا الدبابة الأخيرة ، استدارت هاربة .

أحس بجوع خفيف ، وسئم رواح ومجئ عامل المقصف أمامه .

أحد الضباط يمر علي مواقعنا ، يختلس من الطعام ، ويشرب مما بقي من الماء ، تدبرت الأمر ، وقسمت التعيين علي أكبر فترة ممكنة ، وكنا قبل المهمة ، نعرف بوجود بئر علي بعد ستة كيلو مترات من مواقعنا . نجمع الزمزميات ، وأذهب لملئها يوميا . عاتبت الضابط فمنعني فى اليوم التالي من الذهاب إلي البئر . ذهبت فاشتكاني

للقائد . صارحته بما حدث ، فلم يجازني ، وعلمت فيما بعد أنه وبخه ، وكلفه بمهمـــة لا يتحرك فيها من مكانه .

التفت ، حين خيل إليه أنه سمع وقع كعب حذائها العالي ، علي بــلاط المشــاية ، المؤدية إلي الشاطئ .. مدد ساقيه فى استرخاء . لم نكد نهنأ بانتصارنا ، حتــي فوجئنــا بالطائرات تدك مواقعنا بكثافة . ليست معنا مدفعية مضادة للطـــائرات . تكفلــت نتــوء الصخور بحمايتنا ، ولم يصب منا سوي فردين . كنا نحس بالقذائف تئز فى الصخــور ، ثم تخمد كمدا . أما قنابل الطائرات ، فكانت الجبال تمتص عنفوانها ، وتشتت النتـــوءات شظاياها .

أنبأت الملاحظة عن تشكيل من الدبابات الإسرائيلية قادم مـــن بعيــد . وســرعان ما زامت طائراتهم وألقت ما فى جعبتها من قنابل ، وأمطرتنا بطلقات الفيكرز .

أتراهم يريدون العبور ، أثناء انشغالنا بالطائرات . حددنا مواقعنا وموقــع دبابــات الإسرائيليين ، ونوع الطائرات المغيرة . هل الجنــود ، عندمــا حضــرت مقاتلاتنــا ، معرضين أنفسهم للقتل . نهرهم القائد .

انتظرنا إفادة الملاحظة ، التى جاءت ، بعد أن التــهمنا القلــق . دُمــرت بعــض الدبابات ، وهربت بعضها ، واشتبكت طائراتنا مع طائراتهم ، ظللنا فى انتظــار نتيجــة المعركة ، حتي خلت السماء من جميع الطائرات .

أمر القائد بسرعة إخلاء مواقعنا ، فلاشك أنهم رصدوها بدقــة . وأن نحتــل فــى سلسلة الجبال من الجانب الثاني للمر . جهزنا مواقع جديدة فى الصخر بالأزاميل . حلقت هليكوبتر اسرائيلية علي ارتفاع منخفض . طلب قائد فصيلتنا التعامل معها ، رفض القـائد حتي لا نكشف أماكننا الجديدة . ألقت الطائرة قنابل دخان فوق مواقعنا القديمة ، وانشــقت السماء عن مقاتلات اسرائيلية ، قصفت المواقع القديمة بالقنابل ، وبعـــد قليــل حومــت طائرات أخري وألقت بالمظليين فوق المواقع ، وأخذوا يطهرونها بالرشاشـــات . أنبــأت الملاحظة أن مظليين آخرين سقطوا عن يميننا . أيقن القائد أنهم يريدون تطويقنا .

هل أخطأت لأنني تركت حمدية تقابل صفية أولاً . أردت أن تخلص من مهمتــها ، ويروق لنا الجو .. وهاهي آخرتها .

أغارت الطائرات علي مواقعنا الجديدة ، ولم تلتفت إلي أمكنـــة قنـــابل الدخـــان .
أحسسنا من مرارة صوت القائد فى اللاسلكي وهي يلقي بتعليمــــات جديـــدة ، إحساســه بالخطأ لعدم مطاوعتنا فى ضرب الهليكوبتر ، وأنها خدعتنا بقنابل الدخـــان ، ورصـــدت مواقعنا وأبلغتها لقيادتها . أمر القائد بتركيز نيراننا علي من بيميننـــا ، حتـــي لا ينجـــح التطويق . وحين تراجعوا ، وجهنا نيراننا إلي من احتلوا مواقعنـــا القديمـــة . أخـــبرت الملاحظة عن مدرعتين آتيتين من الشمال .. آه .. فشـــلوا فـــي تطويقنـــا بـــالمظليين ، يحاولون بالمدرعات . أمر قائد فصيلة الــ آر - ب - ج بالتسلل إلي أسفل والتعامل مـــع الدبابات . وأخذ يؤكد علي ما سبق أن تعلموه :

تذكروا .. مدي ثلاثمئة متر تكون القذيفة مؤثرة ، وخمسمئة متر تبقي طوبة .

كان القائد ، يخشي لو تعاملوا مع الدبابات من أعلي ، أن تتكشف مصادر النـــيران للمظليين فى المواقع القديمة فى مواجهتهم .

فوجئت الفصيلة المتسللة بثلاث دبابات أخري ، تسير بحذر فى جانب من الوادي . دمرت العربتين المدرعتين ودبابتين ، وفرت الثالثة ، تتعرج فى مشيتها ، ولا تبتعد عـــن الحد الصخري فى جنب الوادي ، حتي لا تطولها قذائفنا .

أمر القائد ، باللاسلكي ، وحدة رشاشات ، أن تبتعد قليلا عن باقي المواقع ، حتـــي لا تكشفها عندما تفتح نيرانها . وأمرها بالتدخل ، إذا أطلق المظليون النار لنجدة زملائـــهم .
وأمر الفصيلة المتسللة أن تبقي فى أماكنها بعض الوقت ، حتي يتأكدوا من عـــدم ورود دبابات أخري .

وعندما يتأكد لهم ذلك ، يبثون ألغاما مضادة للدبابات فى الجانب الأيسر ، الـــذي أتوا منه ، حتي لا يستطيعوا التطويق ثانية .

فتحنا النار علي المظليين أمامنا . وأمرت فصيلتنا بالتسلل إلي مواقعـــهم . عندمـــا اقتربنا من نقطة ملاحظتهم ، لاح لنا جنديان فى متناول اليد . أطبقنـــا عليـــهما فجـــأة . وأمرني قائد الفصيلة أن أعود بالأسيرين .

زعق قائد الكتيبة :

- من أين أطعمهما .. ؟!

وعندما دقق فى وجهي ، قال :

- أنت .. ؟!

عندما سقط جريحا زميل من فصيلتنا ، عند الهبوط ، لم أتركه كما تقضي الأوامر . كان زميلي الذي أنهضني حين تعثرت . وكان النتيجة أن سبقت فصيلتنا باقي الكتيبة ، ولولا أنني تذكرت السبورة الرملية ، والمواقع مجسمة عليها ، ما أمكننا الوصول . لكنهم، رأونا نتقدم نحوهم فأطلقوا النار باتجاهنا . صاح قائد الفصيلة :

- يا أولاد الكلب .. نحن مصريون ..

استمر إطلاق الرصاص .

- نحن مصريون ..

وظل يزعق ، حتي نبههم ، قائد الكتيبة ، كما علمنا فيما بعد ، لحقيقتنا ، فكفوا عن الإطلاق ، ولحظنا لم يصب أحد .

صاح قائد الكتيبة :

- اسمع ..

تطلعت إليه ، متوقعا توبيخا ، لكنه استمر :

- أمّن عليهما فى إحدي المغارات .

هبط المساء فوضعوا أجهزة الرؤية الليلية ، فى مقدمة البنادق الآلية . وأفادت الملاحظة بانسحاب المظليين . تعجبوا . هل يريدونهم فى مكان آخر .. هل حدثت خسائر عالية بينهم ، فآثروا سحب من بقي حيا . علي أية حال ، لم يضع القائد وقته ، وأمر ببث الألغام المضادة للدبابات فى الجنب الأيمن من وادي سدر .

لابد من تصبيرة ، منك لله يا حمدية ، أو ياصفية ، التفت ناحية المقصف ..

حضرت هليكوبتر مصرية ، وألقت بالطعام . وأخبروهم لاسلكيا ، أن عربة محملة بالطعام والذخائر ، كانت فى الطريق إليهم ، تعاملت معها طائرة اسرائيلية ، فدفنوا الطعام والذخائر فى مكان حددوه لهم .

مرت عدة أيام ، دون أن يروا أي دبابة اسرائيلية . استخفهم شعور بالفرح ، لنجاح مهمتهم ، وأن القوات التى تتقدم فى عمق سيناء بروؤس كبار ، لا تهددها أي هجمات

اسرائيلية مضادة ، من ناحية مضيق سدر . ومع ذلك .. كانت عيونهم طوال الوقت تمسح الوادي ومدخله الشرقي ، والجبال حوله خشية أي مباغتة .

انبعثت نظرات حمدية ، قلقة ، وإن تظاهرت بالاطمئنان ، عندما احتدم النقاش مع أخيها.

فجأة ضحك حمدي مسترسلا ، فأشعت عيناها بالرضا ، قال حمدي :

– وهل ننسي ما قاله بيجن .

جاراه صفوت في الضحك ، وقد تذكر ما نشرته الجرائد ، عن عرض الرئيس السادات بفتح قناة السويس ، خدمة للملاحة العالمية ، نظير انسحاب جزئي من سيناء . وصرح عضو الكنيست وقتها بيجن : الأفضل له أن يأخذ " ذكري " ، ونطق اللفظ الأخير بالبولندية ، لغته .

اقترب حمدي من أذنه :

– أعطاهم السادات " ذكره " .

انفجرا ضاحكين ، وعيونهما علي حمدية ، خشية أن تكون الكلمة الأخيرة قد وصلت إلي سمعها ، بينما هي سعيدة ، لانسجامهما معا .

واسترسل صفوت في الضحك ، فقد كان بيجن ، رئيس الوزراء ، هو الذي وافق علي الانسحاب من سيناء كلها .

أحس بعبق يتخلل الهواء . نفس الرائحة التي أسكرته في موقع أبي جاموس .

عطر الفل الممزوج برائحة عرقها ، ماذا في رائحة عرق الأنثي يجذب المرء.. ؟!

وأحس بيديها المنداتين ، فأدرك أنها أسرعت في مشيتها لتلحق به . أحاطت براحتيها جانبي جبهته ، وامتدت الأصابع المضمومة بجوار عينيه ، حتي لا تتحول نظرته ، وأحس بجزعها اللدن خلف رأسه .. والرائحة تدخله أكثر فأكثر .. يحاول التملص .. فلا تمكنه يداها .

(٦)

صعد حمدي الطريق المؤدية إلي البحر ، لتفقد بعض الأغوار . عند التقاطع ، إلـي يمينه حيث الشارع المؤدي إلي بوابة رفح الحدودية ، طالعته عربات محملـــة بـــالبطيخ وجوز الهند واللوز . من أحجام البطيخ الصغيرة ، قدر أنه بطيخ سيناوي . وحين تذكـــر أن ندا ، استأذنت ولن تحضر اليوم ، عرج إلي مقهي فى بداية الشارع ليشرب الشـــاى . ويستريح قليلا . لفت نظره ، أرضية المقهي الواطئة ، وخشب ترابيزاته وكراسيه وبابـــه ونوافذه ، تشى بالقدم ، تقشر عنها طلاؤها ، وحبب فى بعض المواضع ، وتغير لونـــه ، بفعل الشمس.

أحضر له رجل عجوز ، معمم ، ما طلب من شاي ، قلب بملعقة رفيعـــة متآكلـــة الحواف فى كفها . لم يخرط الشاي ، وبقي الماء عكراً ، أومأ للعجوز ، وحيـــن اقـــترب منه سأله :

– ألا يوجد شاي أكياس ؟

نفي الشيخ بهزة من رأسه .

– أي نوع هذا

– سوزكي

– نعم ..   ؟!

– من إسرائيل

– أعوذ بالله .. هات قهوة أحسن .

ضحك العجوز ، وانفرجت شفتاه عن أسنان مهشمة ، سود مـــابقي منـــها دخـــان المعسل.

– بورسعيد ملأي بالبضاعة .. وهناك شاي جيد .

– رد العجوز ، وهو يتحاشي عينيه :

- الأولاد يستقربون .

وأشار ناحية البوابة ..

خمن حمدي ما يحدث . فهذه البوابة . لا تعبر منها العربات . يعبر منها الراجلـون من أبناء رفح سيناء خاصة ، إلي رفح فلسطين .. حيث يعملون هناك نهاراً ، ويبيتـــون عندنا ليلا .. وكثير من العائلات مقسمة بين الجانبين .. وأثنـــاء عودتـــهم .. يكونـــون محملين ببضائع مختلفة .

أدار ظهره للشارع ، ولم يكد يخطو فى الطريق الرئيسية ، حتى مرت به عربـــة جيب كالسهم ، فوقف مكانه مرعوبا ، وكاد يفقد توازنه . لحظه صاحب عربة يد بالقرب منه ، فقال :

- أمريكان .. هم دائما هكذا ..

لم يعلق ، ولاك في خاطره .. غالبا تابعة لمحطـــة الإنـــذار المبكـــر .. ينـــذرون الإسرائيليين من ماذا .. ؟!

وطفا إلي ذهنه ، ما سمعه من أولاد ، في إحدي حارات شبرا ، حيـــن كـــان فـــي زيارة لصديق له : " كنت ماشي فى شارع النجاشي

قابلت بنت حلوة ، قالت لي :

رايح فين ..

قلت لها :

رايح سينا .. أحرر أراضينا "

صعد فى الشارع ، إلي يساره ، بيوت من دور واحد ، ترتفع وتنخفـــض ، تبعـــا لارتفاع التباب الرملية ، التى تحف بالطريق . وعبقته روائح أشجار الكـــروم والنخيـــل الطالة من أحواشها ، والمعرشة علي بعض جدرانها . مختلطة بهواء البحـــر الرطـــب ، وأحس ناحية هذه البيوت بدفء وحنان غريب .. آه .. لو توافقني صفية ، وتأتي لنعيـــش هنا .

طالعته صفحة مياه البحر ، شديدة الزرقة ، أحس لها عمقا ورهبة ، وكلما أوغـــل النظر فى البحر ، خال صفحة المياه ترتفع . وأخذ شاطئ البحر زاوية قائمة ، ضلعـــها الأيمن شاطئ فلسطين .

لاحت رُبى عالية ، أقيمت فوقها ، وعلي المنحدرات ، بيوت متناثرة ، تقترب فـــي خطي وئيدة حتى تكاد تلامس خط حدودنا . وانتصبت أشجار فـــي المنـــاطق الخاليـــة ، فروعها ملتفة حول بعضها بعضا . أقنعنا الإنجليز ردحا من الزمن ، أن سيناء لا تصـــح فيها سوي أشجار الخروع ، أين هم الآن ليروا البرقوق والمانجو واللوز والتفـــاح ومـــا تبعثه من شذا ، أنعش جو سيناء الجاف . وتساءل : تري .. هل هذه بيوت اسرائيليين .. أم فلسطينيين .. ولماذا تقترب حتى تكاد تقتحم حدودنا .. بينما بيوتنا تبتعد .. ؟!

وأحس بالألفة نحو البيوت إلي يساره ، مع أنه لم ير إنساناً يطل منها ، فليست لـــها نوافذ علي الطريق ، وأبواب الأحواش ، لم ير أحداً يخرج أو يدخل منها . فقـــط فـــروع أشجار تطل من فوق حافة باب ، أو جدار . لو يلبي دعوة تلك الأشجار الطالة ، ويطـــوق أحد الأبواب .

سار بحذاء البحر ، ارتقي ربوة ، مطلة علي غور إلي يساره . تمعن فى شـــتلات الخوخ جيدا .. أكثر نضارة .. وفي طريقها لأن يشتد عودها .. عمت نفسه بهجـــة . ود لو يشاركه فيها أحد .. وبتلقائية تحسس بإبهامه موضع الدبلة فى إصبعه .. عندما جاءتـــه دفعة أخري من شتلات الخوخ ، قبل حرب ٧٣ ، أخبره محمد عايش ، أنها مهجنة علـــي برقوق .

– ولماذا برقوق وهو ناعم مثل الخوخ ، وملئ بالماء مثله .. ؟

رد عايش :

– جذور البرقوق أطول ، حتي يطول الخوخ المياه الجوفية .

لكن حمدي خشي ، إذا هجن هذه الشتلة علي خوخ الوادي ، أن يفقد بعض مميزات الخوخ السيناوي ، التى يود الاحتفاظ بها . لذلك طلب شتلات غير مهجنة . وقـــام بـــزرع شتلة لوز ووضع عليها فرع خوخ سيناوي غير مهجن . وحينما نمت الشتلة ، قص بـــاقي الفروع ، وترك العود السيناوي علي الساق اللوزي ، وبعدها ، أخذ فرعـــا مـــن النـــاتج

الجديد ، ووضعه علي شتلة من خوخ الوادي ، وحين نما ، فعل نفس الشئ وأخذ الناتج الجديد ، وأكثر منه ، وهكذا أفاد من الجذور الطويلة لشجرة اللوز ، وخشونة ثمرها .

وكثيراً ما تساءل .. متي تعبر قواتنا القناة .. يطول الانتظار .. هل يذهب تعبه هباءً .. تحتدم مظاهرات طلبة الجامعة .. تتعجل طرد الإسرائيليين من سيناء . فتنتعش نفسه بالأمل .. آه .. طول العمر يبلغ الأمل .. هل يجدي هذا مع صفية .. أم أن طول العمر فى حالتنا .. يوهن العزم ويضعف القدرة والرغبة ..

أيام الأسر ، كان يحلو له ساعة العصاري ، أن يسحب صفيحة قديمة من البطيخ .. يضعها مقلوبة ، بالقرب من الخط الأبيض ، المحظور عليهم تجاوزه ، فى حذاء الأسلاك الشائكة التى تسور المعسكر . ويسرح فيما وراء التباب الصخرية ، التى نمت بينها حشائش ونباتات برية . ومع الوقت مهد قطعة أرض بحذاء الخط الأبيض ، وقسمها إلي أحواض صغيرة ، وضع هياكل من عيدان الكبريت والورق ، تمثل فلاحين .

من يركب حماراً .. ومن يضع غبيطا فوق ظهر الحمار .. ومن انحني وقد أمسك بفأس .. وشق ترعة رفيعة حول الأرض . صب فيها الماء بكوب بلاستيكي . تعود الحراس منه رعاية الأرض كل يوم فتركوه . واعتاد زملاؤه أن يسألوه :

- كيف حال الزرعة .. ؟

- متى الرية الشتوية .. ؟

يرد عليهم ، بما يريحهم ، وعيناه لا تغفلان عن الخبثاء منهم ، خشية أن يغافله أحدهم ويلقي بماء مضمضة الأسنان ، المخلوط بالمعجون ، فى قناته ، فيتلف الزرع . كان الصليب الأحمر ، بعد طول غياب ، قد أحضر هدية من مصر ، لكل أسير حقيبة ورقية، بها غيارات داخلية ، وعطر ، وصابون ، ومعجون أسنان وفرشاة . وكان من المألوف أن تري الأسري ، وقد انتشروا فى باحة أمام العنابر الخشبية ، وإلي جوار سور الأسلاك الشائكة التى تحيط بالمعسكر، مزهوين أمام الحراس بالغيارات الجديدة ، وقد أمسك كل منهم كوبا بلاستيكيا مملوءً بالماء وفرشاة أسنان ، محاولا إزالة ما تراكم طوال عدة شهور .

لم يتخلف عن ملاحظة المزرعة إلا يوم أذا عوا فى مكبرات الصـــوت تســجيلا ، التقطوه لمحادثة هاتفية بين الرئيس المصري عبد الناصر والملك الأردني حسين . يقــول عبد الناصر : أنت تعمل بيانا ..ونحن سنذيع بيانا أن الطائرات الأمريكية قصفت مطارتنا . ظلوا يذيعون التسجيل عدة مرات فى اليوم الواحد .. لما يقرب من أسبوع .

ولم يفارق الطنين آذاننا ، حتي عند النوم " أنت تعمل بيانا ..ونحن ســنذيع بيانــاً ". كانت إسرائيل قد دفعت بكل طائراتها ، لمهاجمة الطائرات المصرية علي الأرض ، فــى المطارات شمالا وجنوباً فى وقت واحد . ولم يصدق أحد أن تدفع اسرائيل بكل طائراتها، تاركة مجالها الجوي دون حماية . لكن حاملات الطائرات الأمريكية كانت علي مقربــة ، وأعلنت حالة الاستعداد القصوي فى القاعدة البريطانية في قبرص .

تلفت أعصابنا ، وأهملت الأرض والزراعة .. ثم وجدت نفسي ، ولا أدري كيف ، أعاود العناية بهما .

عاد حمدي ثانية ، ولحظ أن عينيه لا تفارقان البيوت علي يمينه . وخيل إليه أنــــه ستَرِكنُه ما يشده نحوها . يحس علي نحو ما ، أنها موغلة فى الزمن ، وأنها تصله علــي نحو ما بالقِدم .

تخطا الشارع المؤدي إلي البوابة .. واقترب من ميدان تعامدت عليـــه طريقــان . إحداهما تؤدي إلي العريش ، والأخري تؤدي إلي منفذ رفح البري ، حيث تعبر السيارات والمسافرون إلي غزة .

هنا فى هذا الميدان ، أو بالقرب منه ، كان مقهي فوقه برج خشبي ، وكانت أمامــه تلك الباحة . أقام الإسرائيليون فيها معسكراً مؤقتا لتجمع الأسري ، أوقفوهـــم ووجوههم لصق الحائط ، وشرعوا يفتشون عن أسلحة فى طيات ملابسهم ، بينمـــا تــدوي طلقـــات الرصاص .

اقترب منه أحد العسكر . جرده من ساعته وحافظته ، وحين حاول سلت دبلة زميل بجواره عصلجت ، دق قلبه بعنف . منذ قليل فعلت دبلة خطوبة نفس الشئ مع عســكري آخر ، فما كان منه إلا أن أحضر سونكيا ، وأطار الإصبع بما حمل . انبثق الدم غزيراً . أخذوه بعيداً وسمعنا دوي رصاصة .

طلبوا منهم الانبطاح علي بطونهم ، بينما طلقات الرصاص تدوي فوق رؤوســـهم .
طارت الحمائم من البرج الخشبي مذعورة . أطلق بعضهم النار عليها . تهاوت إحداهـا ،
فتعالي صخبهم ، وهم يرطنون بالعبرية .

(٧)

ما ذنبي .. ؟!

أظل واقفا ، حتي ينتهي من فحص الشتلات . ألم يفعل قبل أن يأتي بها ، وكأنما قرأ حمدي ما جال في خاطره ، قال :

- حالاً .

واستمر في فحص جذور الشتلات ، ذات الجذر الضعيف يستبعدها . ويضع الشتلات المتجانسة معا .

لاحت ندا من بعيد ، أشار لها حمدي ، فقدمت لمساعدته .

لاحظها حمدي برهة ، وحين ارتاح لسلامة عملها ، تركها وانصرف يفحص التربة ، ويتحقق من وجود ماء ، أو رطوبة ، من عمق ثلاثين إلي خمسين سنتيمترا .

- قعدت .. ؟!

لم يعلق سعد . وأخذ يتأمل ندا وهي تمسك الشتلات في رقة . وضعت بعضها في التربة ، وضغطت في رفق الرمال حولها .

أحس بنفسه تهفو لها ، وأخذ يتأكد من صدق شعوره ، وهو يعجب من نفسه .

من فترة وجيزة ، كان سيذهب إلي السعودية برفقة امرأة ، حصلت علي عمل هناك ، ولما كان يلزمها رجل ، يعصمها من الفتنة كما يقضى قانونهم ، لتحصل علي تأشيرة الدخول ، فقد اقترحت عليه الزواج . وإزاء تردده ، لحداثة معرفته بها ، سهلت له الأمر .. ليكن زواجا صوريا ، أنا أشوف شغلي ، وأنت ربنا يسهل لك .

حين أخذ رأي حمدي ، فزع .

- ليكن صوريا ..

عجز عن كبح غضبه ، وقال :

– أما كفانا من الصوري ..

لم يفهم سعد سرا اشتعال غضبه بهذه الصورة . قال حمدي :

– الفلسطينيون باعوا أرضهم .

رد سعد بتلقائية :

– يستاهلون ما جري لهم .

كأنما داس له علي طرف ، انتفض :

– هأنت قلتها .. أيام العثمانيين ، كان الفلاحون الفلسطينيون ، تهربا من الضرائب الباهظة ، ينسبون أراضيهم إلي أسماء عائلات مشهورة مثل سرسق وسلام ، وحين جاء الصهاينة إلي فلسطين وجدوا الأرض مقيدة فى السجلات باسم هذه العائلات .. وأغلبها مقيم فى لبنان ، ولا يعلم شيئا عن هذه الأراضي .. فاشتروها .. صوريا .

ثم ساخرا :

– ماذا لو قرطستك هذه المرأة .. ؟!

انصرف إلي عمله ، بينما أطرق سعد صامتا ، وهو يقول فى نفسه : لا تخف ياباشمهندس .. لن يعطش النبات .

كان أمام القناة ، وقد شعر بالعطش . فى الحقيقة ليس عطشا ، لكن جفافا فى الحلق. فجأة عرف أنهم علي وشك الاقتحام . جرعة واحدة من الزمزمية ، ولم تمتد يده إلي حزامه الممتلئ بالأدوات والقنابل وطلقات الرصاص ، فقد انطلق الصوت فجأة ، فى مكبرات الصوت ، دون أي اتفاق أو تعليمات :

– الله أكبر .

طغت علي صوت تحرك المركبات ، وأزيز الطائرات .

– الله أكبر .

وكأن قوي سحرية ، قد ركبت الجنود والمعدات ، يقتحمون ، غير عابئين بشئ ، كأنهم يحملون رقيات ضد الموت ..

– الله أكبر ..

وفي اليوم الثاني أو الثالث ، لم يكن أحد منهم قد أدرك حقيقة ما حدث .

- الله أكبر ..

قال له حمدي مرة :

اقشعر جسدي ، ونسيت ، زرعي وسنينه .. مليون جندي .. أكثر .. علي طـــول القناة من السويس إلي بورسعيد .

- الله أكبر ..

وبعد أن أفقت ، تعجبت ، فلم يصب زرعي بسوء .

فعلا لحظات غريبة . كنت أنتظر مع كتيبتي دورنا فى العبور . جندي ، بعلامة حمراء علي ذراعه ينظم مرور المركبات إلي المعابر . يشير بهدوء إلي هذا الطـابور أن انتظر ، ولهذا أن أعبر ، ولذاك أن تنحي إلي جانب ، بينما القذائف تحول مياه القناة إلـي نافورات فى الهواء ، وعندما عبرت إلي الضفة الغربية ، وجدت زميلا له ينظم المرور، أيضا ، أمام فتحة فى الساتر الترابي ، والطائرات تحوم من حوله ، وطلقات الرصـــاص تئز فى الهواء . واختلط عليّ الأمر . هل هو نفس الجندي الذي كان ينظم المرور فـــي الضفة الغربية .

اعتدلت ندا ، وذهبت لتأخذ حزمة أخري من الشتلات . تعثرت ، وقد لحظــت أن هناك من يرقبها . أفلتت منها بعض الشتلات . انحنت فى لهوجة ، تلتقطـــها ، قبـل أن تصل إلي الأرض . وفي لهوجتها ، كادت تسقط باقي الشتلات .

نظرت إلي سعد ، الذي لم يسقط عينيه عنها . تصاعد الدم إلي وجنتيها ، والتفتــت إلي الناحية الأخري .

وتشاغل سعد بالنظر إلي بعض السيناوية ، علي مقربة ، وقد شمروا عن ســيقانهم وسواعدهم ، وانحنوا علي الأرض .

علي الطرق الزراعية فى بحري ، خاصة فى الشرقية والدقهلية ، رأهم بملابســهم الفضفاضة فوق أجسادهم ، سوداء وحمراء ، تتدلي أقراط مستديرة ، كبيرة الحجم مـــن آذان نسائهم ، وتحيط رقابهن مشغولات نحاسية شبكية ، تحدها أهله صغيرة متجــاورة ، تتدلي منها حبات من الخرز اللبني ، فى الغالب . ويعلقن فى خرم من أحد جانبي أنوفهن أقراط نحاسية صغيرة . يتسولون حبات من البرتقال والخوخ ، رأهم يبيعونها فى بعــض

الأسواق. وفى مداخل المنصورة والزقازيق ، كثيرا ما اعترضت سيارته ، قطعان أغنامهم ومعيزهم ، وهم آحاد فى وسطها ، يحفزونها علي الإسراع ، اتقاءً لأصوات أبواق السيارات .

عاد بناظريه إليها .. أتراها عششت داخله .

أمسكت الشتلات بيد ، وبالأخري تحبك طرحة سوداء حول رأسها . شئ ما علق بكمها الواسع . رفعت يدها إلي أعلي ، وهزتها لتتخلص مما علق .

رفعت يدي فى جنبي السليم إلي أعلي . فى محاولة لدفع الدم إلي قلبي . هل أغمي عليَّ فترة . لم أنتبه إلا علي صوت دبابة تقترب . لابد أن يقترب منها أحدنا لمسافة عشرة أمتار . وإلا فإن طلقة الـ آر - ب - ج ، ستنزلق عن درعها (تعمل سكترما) .

لم تصبني الدبابة لأنها كانت فى الواطئ من جانب الطريق ، وأنا فى الواطئ من الناحية الأخرية . اقترب أحدنا ، وألقي عليها قنبلة مضادة للدبابات ، لم تنفجر ، فمن لهوجته لم ينزع صمام الأمان . زعقت عليه . التقطها وأعاد المحاولة ، أصاب الجنزير. وظللنا نضرب بالأسلحة الخفيفة التى معنا للمناوشة ، حتي لا يخرج أحد لإصلاح الجنزير، خاصة وموتورها ما زال يعمل .

اشار حمدي له ، ليمضيا . وأخذ يعطي تعليماته للعما ل. بخصوص التسميد ، وكيفية وضعه ، وكان قد أوصي به بلديا ، قديما ، وطمأنهم أنه قد مضي ما يقرب من العام علي تزرير الشتلة (تطعيمها) وأن هذا الجو البارد ، يقلل جريان العصارة فى النبات ، وهذا أصلح للغرس .

أُعطيت محلول ملحي ، ودماً ، وإبرة مصل ، وكورامين ونوفالجين . ولم أشعر بشئ حتى صباح اليوم التالي . عندما فتحت عيني ، أحاط بي بعض الجنود وهم يضحكون ، زادوا من ضحكهم ، وتريقتهم . وتعطف علي أحدهم :

- كنت مُهوساً فى نومك .

الساتر الترابي ارتفاعه عشرون مترا . هاتوا المجاديف لنوسع الفتحة . الإسرائيليون هربوا . الإسرائيليون أغلقوا عليهم أبواب الحصون . القنبلة م د لم تنفجر .

الدبابة الباتون عاطلة . لا .. ستدوسنا.. حاسب .. ما زالت تـــدور . لا .. نحـن فـي رمضان .

يا بني هذا أمر . الإفطار فى الحادية عشرة صباحاً ، والضابط أول من يفطـــر ، الاقتحام فى الثانية وعشرين دقيقة ، القوارب تفتح في الواحدة ، وخمس وأربعين دقيقـة ، الطائرات فى الواحدة وخمس وخمسين دقيقة ، المدفعية فى الثانية وخمس دقـائق . لا .. لم نشاهد الطائرات وهي ذاهبة . شاهدناها فقط وهي عائدة . ثمانية فى القارب ، ثلاثـــة فى كل جانب ، واحد بالرشاش حراسة من الأمام ، وواحد في الخلف . كل واحد يعـرف مكانه .

وانفجر الجندي ضاحكا .

- ما الذي يضحك .. ؟!

- في هوسك لم تنس المواعيد .

وحين انتبه إلي أنه فى مستشفي ميداني بالغرب ، تلفـت حولـه بـاضطراب ، لا يدري كيف يلحق بوحدته فى الشرق . وانتهز فرصة استشهاد ســائق دبابـة ، وتـأخر وصول الاستعواض ، وقد حان موعد العبور . شفعت له خبرته كسائق جرار ، وركـب معهم .

(٨)

فى غبشة المساء ، تذكر حمدي أنه علي لحم بطنه ، مر بجوار الجامع العباسى . خُيل إليه أنه لمح سعداً عند الأعمدة القصيرة . أتراه فى انتظار نـدا . هـم بالاستدارة ليتيقن، لكنه خشي أن يفسد عليه أمراً ، يكون قد دبره ، وأكد لنفسه ، أنـه لا يمكـن أن يخطئه بوقفته المتراخية ، وقد تقوس ظهره قليلاً فبدا أكثر نحافة مما هو ، وأكثر طـولا مما هو ، وأومأت رأسه المائلة إلي الأمام بالانكسار . ولكن .. لماذا الانكسـار .. ؟! .. أتراها كعادة البنات اللعوب فى الحضر ، لا ترسيه علي بر ، فأصبح لا يعرف رأسه من قدميه .

لا .. هي بدوية .. وأغلب الظن صريحة ، ومباشرة . والانكسار من داخله هـو ، لأنه غير واثق بما هو مقدم عليه ، أو غير واثق بحبها بعد .

أيا ما كان ، لم يكن هناك داع ، لتلك الوقفة الضائعة ، عند تلك الأعمدة من قلعـة سليمان . وأين يواعدها اذن .. ؟! علي أحد المقاهي السياحية علي شاطئ العريش ، ذات النفقة العالية ، وتعرض نفسها لأن يراها أحد يعرفها ، ويلوك سيرتها العرايشية . وربمـا منعوها من العمل .

لا ينقصه فى وقفته هذه ، إلا أن يمسك عريضة ، أو التماسا ، ويقدمه لـها حيـن حضورها . قدم فيثاغورث طلبا إلي كهنة معبد عين شمس ، ليتعلم فى معبدهم ، تركـوه عدة أيام أمام الباب . وفي كل يوم يكرر المحاولة ، دون أن ييئس ، حتى سـمحوا لـه بالدخول .

لماذا تركوه واقفاً طوال هذه الأيام ، وهم يعلمون أنهم سيوافقون فى النهاية .. ؟!

هل أرادوا إعلامه أن الأمر ليس سهلا ، وأن عليه أن يعرف قيمة ما هـو مقبـل عليه ، فعندما يعاني من الذل والرجاء ، لن يفرط بسهولة فيما يحصل عليه .

أم أرادوا اختبار درجة احتماله جو الصحراء ، شديد الحرارة نهارا ، شديد البرودة ليلا . أتراهم أرادوا تلقينه أول درس ، وهو التعود علي إيقاع الصحراء الهادئ ، وتعلم التأمل فلا شك أن من يبيت وحده في الصحراء عدة ليال ، سوف يتعلم التأمل وروية الفكر ، وهذا ما يريده المعلمون في الداخل ، حتي إذا ما استوي علي دكة الدرس ، استخدم عقله ، وقد اعتاد علي الإيقاع الهادئ المتأني ، فيفكر جيداً وينتج الحكمة .

لقد أثمر التعليم مع فيثاغورث ، فلم يكد يعود إلي بلاده اليونان ، حتي أبدع نظريته الهندسية الشهيرة .

وأنت يا ندا ، ماذا تريدين أن تعلميه ، أنه رغم وضوحك وتلقائيتك ، لست سهلة . ولماذا لا تصدقينه علي الفور . نيته الصادقة تنطق بها سمرة دقيق السن في وجهه المتناسق الملامح ، وشعره القصير المفلفل ، ونظراته الهادئة من عينيه السوداوين ..

زادت زقزقة عصافير بطنه ، فعرج علي أول مطعم صادفه . فول وطعمية . وراعنا وراعنا . يارب أين المفر .. ؟! ماش،المهم تكون الطعمية ساخنة . جس قرصا ، ولا حتى هذه . لا .. لن أصبر علي هذا وإلا انتهيت . غدا آخذ " الجيب " ، وأذهب إلي البردويل ، وأحضر أكلة سمك معتبرة .

وقفت أضراسه عن المضغ ، وقد صك أذنيه بيان هام . قامت مجموعة إسلامية متطرفة ، بتفجير عبورة ناسفة فى مقهي بميدان التحرير بالقاهرة . وقد ظهر من التحريات الأولي وجود عناصر أجنبية وراء ..

جلالتك تصدرون بيانا ، ونحن سنصدر بيانا . فعلها عبد الناصر ، ولكن لم نسمع أن الحسين بن طلال فعلها .

أتراه استحي ، وقد علم أن الاسرائيليين ، التقطوا محادثته مع عبد الناصر .

سار صاعدا باتجاه الشاطئ . حيث أغلب الشوارع تصب عليه . وقبل أن يصل إلي الشارع المحاذي للشاطئ . الممتلئ بالفنادق السياحية ، ذات الشواطئ الخاصة ، عرج يمينا ، حيث تفريعة مسفلتة،تؤدي إلي ثلة حديثة من البيوت ذات الدور والدورين ، أقيمت في مدخل العريش الشرقي ، علي جزء من الشاطئ العريض فى هذه الناحية . استأجر حمدي شقة مفروشة ، مع أنها خالية من أي فرش . راغبا فى خصوصية .

لا تتيحها له الإقامة في استراحة الزراعة ، ومقتفيا شعاعات مرتعشة لشمعة صغيرة في إحدي دهاليز نفسه .. ها .. من يدري .. ربما تخلت صفية عن عنادها .. وتحول الإيجار المفروش إلي دائم .. وهو علي أي حال ، حتي وهو مفروش ، أرخص من الإيجار العادي فى أى مدينة أخري .

مشي بين أشجار الكافور الباسقة بين البيوت ، وقد أطلت من بعض أحواشها أشجار النخيل .

ينزل المنحدر المؤدي إلي بيته ، في آخر البيوت ، وبعدها مساحة تمرح فيها الخيل تفصله عن البحر .

هل هذه بقع داكنة ، أم خانني النظر ، أولي بيته ظهره ولوح بإحدي يديه ، لم يلحظ حركة ولم يسمع صوتا . دقق أكثر .

طيور نائمة فيما أحسب ، من تعب الرحلة . وهو يدلف من الباب ، انبثق فى ذهنه .. خيبة أن تكون طيور العجاج .

عليه أن يقوم مبكراً ، ويحضر أنفاراً لحراسة الأغوار ، حقا العجاج ليس له في الزرع ،ولكن .. من يدري .. ماذا سيفعل ، وهو الجائع بعد طول السفر من أوربا ، حين يجد البردويل خالية من السمك .. ؟! بالطبع لن يجلس علي الشاطئ ، مثل الصيادين، وقواربهم ، إما مقلوبة علي الشاطئ ، أو ساكنة ، تترك نفسها ، لتلاعب الموج بها ، وهو لن يذهب مثلهم إلي المسئولين فى العريش ، للبحث عن حل .. والمسئولون ينهونهم عن صيد الزريعة الصغيرة..ولابد من الانتظار..وهل سينتظر العجاج .. ؟!

فتح حمدي النافذة المواجهة للبحر ، طالعته مياه البحر المعتمة علي البعد ، وظلمة مبهمة . صحا مبكراً أكثر مما أراد . ولكنه لم يركن إلي الكسل ويعاود النوم ، وقور أن يستقبل النهار فى جلسته أمام الشباك .. وحتى يقتل الوقت صنع لنفسه كوبا من الشاى ، أخذ يرتشفه علي مهل .. وفي غفلة منه تسلل الضياء .. وحين لم يجد أثراً لأي طائر ، أدرك مدي إجهاده ، كيف لعبت به الهواجس . وأي عجاج والشتاء لم يهل بعد .

لم يكد أول ضوء يفرش شعاعه علي الدنيا . علي قناة السويس وأشجار الكافور والأكاسيا والنخيل ، والأرض الرملية الرطبة بفعل ندي الليل . وبور فؤاد الساجية في

أحضان الرمال ، الممتدة خلفها على مدى الشوف . ولا تكاد تظهر ، ملاحاتها البيضاء، التى جفت مياهها بفعل التهاب الحرارة نهارا ، وتلك التى لم تزل المياه تشف عن بلوراتها.

وما زال الضباب القادم من الشمال يتصل بالبحر المتوسط ، فيما أطلت رؤوس الأشجار المتناثرة ، من طيات الضباب ، تنفض عنها نعاسها ، وينحسر الضباب رويداً رويداً ، وتظهر الأشجار بجذوعها وأغصانها المورقة عند التقاء المدينة بخط القناة ، وتتسرب شعاعات الصباح.تأمل حمدي مياه القناة الزرقاء ، خط رفيع فى الملكوت حولها.

وتابع بعينيه أسراب العجاج الرمادية ، المائلة إلي السواد . لا يزعج طيرانها شئ . وما زالت حركة الملاحة في القناة هادئة والمراكب تنتظر فى اتساع البحر أمام بورسعيد.

وكلما أسفرت الشمس عن وجودها، برزت من البعد والضباب ، أكثر فأكثر ، ملامح السفن. وظهرت أخري لم تشاهد من قبل ، ويصبح من الممكن ، ملاحظة موجات الماء الخضراء الرمادية ، يضرب زبدها حواف السفن القريبة من مدخل القناة .

أحس حمدي رعشة غيرمحسوسة . لماذا لم يذهب العجاج إلي البردويل وهي قريبة منه ، والسمك يتقافز فوق الماء . هل تحط تلك الأسراب فوق الشتلات بالقرب من الإسماعيلية . عليه أن يسرع إليها ، ويؤجل التسوق من بورسعيد إلي وقت آخر. طرد الخاطر المزعج ، وحاول اقناع نفسه أن العجاج فى طريقه إلي المزارع السمكية فى العبابدة وأم خلف ، جنوب الحسينية . لو كنت مكانه .. فلماذا أترك وجبة سهلة ، فى متناول اليد ، كأنما أعدت خصيصا له . فالمياه فى المزارع ضحلة ، ويمكن رؤية السمك سابحا بسهولة ، وبأعداد وفيرة .

أم أن هذه الأسراب ، غيرت خط سيرها ، وفي طريقها لبحيرة المنزلة ، بعد أن سهلنا لها مأموريتها ، والتى لمستها بأنفسها فى أعوام سابقة . لقد أزلنا الحامول ، وكثيراً من النباتات المائية ، كان يختبئ بينها السمك . وجففنا أجزاءً من البحيرة ، وعملنا مزارع سمكية عند بحر البقر شمال القنطرة غرب ، حتى لا يعاني العجاج من الجوع وهو فى طريقه إلي بحيرة المنزلة .

وعادوته قشعريرة .. هل بعد أن يشبع من السمك يحلي بالخوخ والموالح فى طريق عودته للمبيت فى سيناء .. ؟!

والشتاء يغري بالسكريات .

لا .. فهي لا تزهر ولا تثمر إلا فى الربيع ، وبالتالي لن تجذبه رائحتها .

ولكن .. لعل بعضها لم تسد جوعتها ، فما المانع أن تحط علـــي الـزرع . داري قلقه، فهي عند عودتها ، سيكون الليل قد شمل الكون وطيور العجاج لا تري فى الليل .

وماذا بعد أن يقضي علي أسماك المزارع السمكية ، وهــذا أغلـب الظـن سـيتم بسرعة، تحدثني نفسي أنه لن يستريح لسمك بحيرة المنزلة . وإذا صدق هذا فلن تفوتـــه الأشجار من تحته . كان حمدي يعتزم ، بعد التسوق ، الذهاب إلي العريش ، للاتفاق علي الأرض التي ستخصص للشتلات الجديدة . ما فائدة أن يذهب ، ولا تكون هناك شتلات .

احتمال بعيد .. ولكنه قائم .. عليه بالإسراع إلي الإسماعيلية ، وتكليـــف العمـــال بإحداث ضجيج عند أرض الشتلات ، إذا طار العجاج فوقها .

أحتاج بنادق صوت . أكتب مذكرة . وحتى نكتب ، وحتى يوافقوا ، يكون العجـــاج قد قضى علي الزرع .

استخدم ما لديك . الدق علي قعور الصفائح القديمة . تشـــغيل عربـــات الجيـــب ، وعمل دوريات فى غدو ورواح .

فَتْح أجهزة الراديو علي الآخر .

فى الطريق إلي الاسماعيلية ، استشعر ضيقا . سيقابل بسخرية ، واتهام أنه يحبكها أكثر من اللازم . عليه أن يتحمل .

فى مديرية الزراعة فوجئ بما لم يكن فى حسبانه :

– هذا عمل المعنيين بالبحيرات والسمك ، أنت مهندس زراعي .

تذرع بما وطن عليه النفس من هدوء . ولحظه وجـــد اســتجابة مـــن العمـــال ، فأوصاهم بما ينبغي عمله ، وقرر أن يذهب إلي العريش قبل انتهاء النهار ، حتـــى لـــو تأخر عن الموعد الذى حدده لهم فى الإشارة التليفونية .

فضل عبور القناة من المعبر ، عند الصالحية اختصاراً للوقت . وجد صفـــا مـــن العربات أمام المعدية . نزل ، ليشرب شيئا مثلجا ، يطري علي معدته . رفـــع الزجاجـــة إلي فمه . طالعته سماء لبنية صافية، سرعان ما ظهرت عليها بقع رماديـــة وســـوداء .

أسراب من العجاج . تحركت المعدية ، وقد أخذت كفايتها من العربات . خمن أن الــدور سيصيب عربته فى المرة القادمة . أبطأت المعدية فى عرض القناة ، متيحة لناقلة نفــط قادمة من الجنوب ، المرور ، أطلقت الناقلة صفارتها ، تنبيهاً وتحية .

أسقط سرب من العجاج ، كان يعبر فوق القناة ، أكياسا بجوار معدته يخزن فيــها السمك . سقطت قذائف العجاج ، فوق المعدية ، وحولها فى الماء ، والناس يتصــايحون. تساءل حمدي . هل سقطت الأكياس ، وقد انزعج السرب من صفارة الناقلة ، أم أن طعـم السمك فى بحيرة المنزلة لم يعجبه ، حيث يصرفون فيها ماء المجاري . وتطلع الســرب إلي وجبة نقية من بحيرة البردويل ، حيث لا صرف صحي ، أو زراعي .

أم أن الحمل الزائد يعوقه عن الطيران بسرعة ، وخشى أن يدهمه الظلام ، قبل أن يصل إلي بغيته . لكن .. لماذا عادت طيور العجاج ، مبكرا ، ولمــاذا لـم تلـق بـاقي الأسراب حمولتها.لعل الأسراب الأخري لم تقرب أسماك بحيرة المنزلة ، وهنأت بأسماك المزارع السمكية .

مرقت الناقلة باتجاه البحر الواسع . وانسابت المعدية فــوق المــاء إلـي الشــط الآخر .

أكمل حمدي زجاجته . وأنعشت وجهه نسمات طرية ، من فوق مياه القناة ، بــها نقاء لاشك قادمة من فوق رمال سيناء .

صعد الباص الذى يستقله حمدي إلي المعدية . هــل يلـتزم العمــال بوعدهــم ، ولايغادرون الأرض حتى أعود .

علي أية حال ، لا داعي للانزعاج ، العجاج أدي مهمته ، وفي طريقه إلي سـيناء . ولكن .. إذا لم يفعلها اليوم .. قد يفعلها غدا .. مع أول ضوء ، يطير عائداً ، فإذا كــانت المزارع السمكية نفد ما بها ، وسمك بحيرة المنزلة لا يروقه ..

أزاح ستارة النافذة ، التماسا لضوء الأشعة الغاربة ، لمح أسراب العجاج . تســابق العربة .

(٩)

عزمه علي الغداء .

هل حدث منها شئ ، أعطاه انطباعا باهتمامها بهذا الشاب . هل صدر عنها مـــالم تنتبه له . هل تمادت بحسن نية ، وظن أحدهما ، أو كلاهما ، أنها تعني شيئا .

بنت .. تلعبين علي من .. ؟! .. لا والله .. لا يكون قصدي . ربما .. جـــزء فـــي النفس عابث ، و لا يعني أكثر من التدلل . ربما يحكم المزاح ، وأتمادي .. ولكن .. هـل يصدقني أحد .. دون تعمد مني ، فإذا ما لمحت ظلاً ، يوحي أن الآخر ، أخذ الأمر علـي محمل الجد ، يتوقف ، تلقائيا ، كل شئ . وكثيراً ما لُمت نفسي ، ووعدتها بعدم الرجـوع إلي ذلك ثانية .. لكن ، يحدث ، أن أجدني متلبسة ، مرة بعد أخري .

قال : رفعنا العلم . تلاقت كفي بكفه ، انتشاءً ، لكنني لم أقصد .. لا تقصدين . هل لمسه الكف الدافئ ، وإزالة الكلفة بسرعة ، تركا أثرا فى نفسه . أم هي نظراتـي دون أن أعي . عندما سمعت الإطراء ، فور رؤيته للكعكة ، عرفت مما انعكـس فـي عينيـه ، تجاوبه مع نظراتي الفرحة ، المنتشية ، لكن هذه النظرات ، شئ طبيعي بالنسـبة لـي ، حين يمتدح أحد عملاً لي . فإذا كان هو ، أو أخي ، قد فهم شيئا لا أعنيه ، فهذا شأن كـل منهما .

لكن .. لماذا عزمه علي الغداء .. ؟ .. هل ليتيح لهما فرصة تكـرار اللقـاء ، أم توثيقا لعلاقته به . وأين ذهب كرهه للضباط . كثيراً ما صرح لها أن الغباء أنواع ، أشده ضررا : غباء العسكر .

وفجأة انبثق خاطر فى ذهنها ، وقد استعادت لون الكعكة النحاسي ، المضئ ، يشبه ما يحدث لجسد الإنسان فى المصيف ، حين يتعري للشمس ، ويلفحه الهواء النقي المشبع باليود ، وقد تحرر من الرداء ، وانطلق علي سجيته فوق الرمال ، وقد تفتحـت المسـام

للنشوة . ولعل هذا سبب قصص الحب الكثيرة ، التى تنشأ فى المصيف ، وتنتهي بانتهائه، وقد زال الأثر الساحر . وما هو بالحب لكنه الإعجاب ، وتوق الجسد للتماس فى رحاب الطبيعة . هل يكون ما حدث في حرب ٧٣ ، ترك أثراً مشابها فى النفوس . الإعجاب بما صنعه الجنود ، يجعل النفس تتوق لحب أي شخص تلاقيه منهم ، فما بالها وهي التى تابعت ما فعله هذا الضابط لأخيها ، وسماعها من شخصه لما فعله فى المعركة. ولعل هذا ما جعل أخاها ، يتناسى رأيه القديم فى العسكر ، ويدعوه إلي بيته . أم تراه غض الطرف عما يعتقده، وقد وجد فيه عريسا لقطة ، خاصة وهو لايميل إلي صفوت . أو لعل حفاوتها به ، فعلت فعلها فى نفسه ، وأمل أن تتطور لما هو أكثر .

كانا ، ما زالا ، يتحدثان عما حدث فى القنطرة . وتساءلت فى نفسها .. هل كلما تقابلا لا تغادرهما هذه السيرة . وهل سيحكم عليها بسماعها عمالا علي بطال ، دون الحديث فى أمور أخري .

قال عبد السلام :

– لم يتركنا الإسرائيليون نستريح لحظة واحدة بعد فتح القنطرة ، كما تعلم ، شنوا هجوما فى الشمال من الإسماعيلية . هاجموا من اليمين واليسار ، واخترقوا من الوسط ، وحدث نتوء أمام كوبري الفردان ، وتمكنت دبابة من الوصول إلي مسافة كيلو متر واحد منه .وجد قائد الجيش الثاني الموقف خطيراً . لو نجحوا سيصلون إلي الإسماعيلية.

دفع بقوات جديدة من الغرب وطلب من قوات القنطرة التقدم وتوجيه ضربة إلي جنب وظهر الدبابات التى تقوم بالهجوم علي الجانب الأيسر للفرقة الثانية . ثلاثة أيام كاملة .. كادت أرواحنا فيها تطلع .. حتي أمكن وقفهم .

قال حمدي :

– هم استردوا أرواحهم ، وأنت بدأت تفقد روحك .

– تقول فيها .. أعطيت جنودي طباشير أبيض ، وأمرتهم بوضع علامة × علي الدبابة التى يفرغوها من الجثث ، وطلبت قوارب إضافية لنقل المصابين إلي الغرب ، وكنت أمسك قلبي بيدي ، خشية مزيد من الجرحي .

– لماذا وقد توقفت المعركة .

– يا سيدي .. دمروا موقع القيادة فى القنطرة ، ورفض القائد تغييره ، رغـم أنـه خطأ عسكري . وأصر علي التواجد به ، لرفع روح الجنود المعنوية ، غير آبه لظـهور صواريخ جديدة ، لم نرها من بدايـة القتـال . صواريـخ سـمارت ، ومـافريك جـو أرض ، والصاروخ الأخير ، لم يستخدم من قبل ، ويخترق دروع الدبابة مـهما كـان سمكها .

ضحك حمدي .. واسترسل فى الضحك .. ولم تجد اشارات عبـد السـلام بيديـه لإيقافه .. ولكن زغرات حمدية قطعت استرساله .. ووجد نفسه ، ملزما ، بالتوضيح :

– فى الوقت الذي لم تخفت فيه أصداء المعارك ، والأمريكيون يزودونهم بـآخر جيل من الصواريخ ، خرج السادات بعد أول لقاء مع كسينجر ، إلي المؤتمر الصحفـي ، مبتسما ، بادئا كلامه بـ " صديقي هنري " فأصاب الناس بالدهشة والذهول .

ضحك عبد السلام ، واسترسلت معه حمدية ، وقالت مغيظة أخاها :

– هو صديقه .. لماذا أنت زعلان .. ؟!

تجاهل عبد السلام ملاحظتها ، واستمر :

– ورغم ذلك تمكنا من الوصول إلي الطالية ، وطوقناها ، وسيطرنا علـي ثلاثـة مواقع ، والتحمنا مع قوات الفرقة الثانية ، وكونا رأس كوبري الجيش .

قال حمدي بنبرة تقريرية :

– وحق عليكم التقاط أنفاسكم .

– أبداً .. فمعركة الطالية ظلت تتجدد حتي يوم اثنين وعشرين من أكتوبـر . هـل تتصور أن قائد القنطرة كان يقوم بجولات استطلاعية بنفسه ، ومعه أطقم صواريخ ، ولا يترك ذلك لضابط صغير ، وفي إحدي هذه الجولات ، اسـتولي علـي دبابـة أمريكيـة الصنع، اتضح من عدادها أن المسافة التى قطعتها ، لا تتجاوز المسافة من العريش إلـي القنطرة غرب ..ومعني ذلك أن الأمريكيين أحضروها من إحدي قواعدهـم وأسـقطوها مباشرة فى أرض المعركة .

جهم وجه حمدي .. لماذا لم تتجدد معركة العريش .

وصلت القوات الإسرائيلية بسرعة إلي العريش في أول أيام الحــــرب .. منتــهزة ما ساد من هرجلة في الأيام الأولي من يونيو .. قوات تتقدم إلـــي الأمـــام .. مدرعـــات تنسحب إلي الخلف .. إقامة حفر ، ثم تركها والتقدم إلي مواقع أخري ، تحميل المعـــدات وفك أجزاء المدافع ووضعها علي العربات ، وصعود الجنود في لهوجة معها .

كان المعتقد أن اسرائيل ستضع مجهودها الرئيسي علي المحور الجنوبي ، الكونتيلا العريش ، فحشدت مصر أغلب قواتها علي هذا المحور . ثم جاءت معلومات أن اسرائيل ستركز مجهودها الرئيسي علي المحور الأوسط ، الحسنة سدر الحيطان ، حتى لا تكـــرر ما فعلته في عام ٥٦ . وكانت تقارير المخابرات تؤكد اهتمام اســـرائيل بمنطقـــة ايـــلات والجنوب . وتوالت تقارير تفيد عن نشاط اسرائيلي في النقب الجنوبي . وأكدت مخابرات العريش ، عزم العدو علي الهجوم من الاتجاه الجنوبي .

ارتبكت القيادة المصرية .

وفي الخامس من يونيو ، كانت أرتال الدبابات تقتحم المحور الشمالي ، وتزحـــف علي الطريق الساحلي إلي العريش ، غير ملقية بالاً لتصريح الرئيس الأمريكي بضـــرورة ضبط النفس .

– ها .. أين سرحت ..

قال بصوت مفعم بالمرارة :

–دباباتنا حملناها علي قطار العريش من رفح إلي الخلف قبل بداية الحرب مباشرة.

وبعد قليل ، كأنه يحدث نفسه :

– لو احتفظنا بالممرات ، حيث الطريق ضيقة ، ملتوية ، تحيط بها جبال صخريـــة وعرة .

قال عبد السلام :

– تقصد لو وصلنا إلي الممرات .. طبعا لتغير الوضع .. من يسيطر عليها ، تتفتح أمامه الطريق حتي تركيا .

سمعوا دمدمة جرافة . أسرعت حمدية إلي الشرفة ، وعادت :

– يبدو أن شرطة المرور يزيحون عربات من ميدان الشيخ حسنين ..

غطي حمدي وشقيقته آذانهما بأكفهما ، وحين أصبح ممكنا الكلام ، قال عبد السلام ضاحكاً :

- لا صوت أحلي من صوت الدبابات العابرة .

وقال حمدي :

- لماذا لا يحضرون ونشا بدلا من هذه الجرافة المزعجة .

ضحكت حمدية :

- قال يعني الونش أخف

رد حمدي :

- علي الأقل .. صوته مكتوم .

قال عبد السلام :

- لعنة الله علي الصوت المكتوم . دبابتان برمائيتان غرقتا فى الماء ، لـم ننتبـه لارتطامهما المكتوم ، لولا أن نبهنا أحد جنود الحراسة علي حافة القناة ، فأسرعنا نبحـث عن ونش ينشلهما .

قالت حمدية :

- اوع .. يكون ونش البلدية .

ضحكوا جميعا ، واستمر عبد السلام :

- لم يكد الونش يعبر فوق الكوبري ، حتى أصابت الوصلة أمامه ، قذيفة مباشرة ، حمدنا الله أن الونش عدي منها ، لكن .. لابد من تبديل الوصلة . احتياطي قطع الكبـاري مخبأ علي الشاطئ الغربي . أرسلت إشارة لتحويل سير الونش إلي الكوبـــري الخـــاص بالفرقة ، بينهما خمسة كيلو مترات .

واستدعيت المهندسين لإصلاح مرساة الكوبري المعطوب ، عند شـاطئ سـيناء ، حيث غرقت الدبابتان . وكان قائد القنطرة ، قد طلب جنوداً مـــن الفلاحيـن ، لتسـوية الأرض أمام المرساة ، وأن يكونوا تحت مباشرتي .

رد عليه قائد الفرقة :

- تريد عمل تنظيم خاص بك ، يتولاه النقيب عبد السلام فاروق ..

نطقها ونظر إلي حمدي ، وعلت ضحكاتهما ، وشاركت حمدية متأخرة . قال حمدي:

– الحمد لله .. ليست لي صلة بقائد القنطرة .

رد عبد السلام :

– ولكن .. لك صلة بي

أغرق حمدي في الضحك ، وهو يقول :

– وسرعان ما يربطون المسألة .

قال عبد السلام :

خبّرهم قائد القنطرة بنفسه . كنت معه أثناء حرب الاستنزاف "ملازم أول". مرة استمر الضرب علي مواقعنا أسبوعين متواصلين ، وسرت معه نتفقد الجنود . سأل أحدهم :

– ألست خائفا

– الرب واحد والعمر واحد .

وعند اقتحام أحد الحصون ، انفجر لغم في فرد من المهندسين ، لو تراجعوا سيكونوا هدفا سهلا لمدافع الحصن . فوجئ بالجنود الفلاحين ينامون علي الأسلاك الشائكة ، وزملاؤهم يعبرون فوقهم ، ويقتحمون حقول الألغام ، والقذائف تتساقط حولهم.

خرجت حمدية ، في خفة ، لتطمئن علي أمها في الشرفة ، وهي تردد في خاطرها: سيظلان يقولان ويعيدان . تطلعت إلي الأفق . لاح لها برج كنيسة مارجرجس المخروطي ، المضلع في انسياب ، وتلاشت ملامح قمة الصليب المعدني في وهج ضوء الضحي ، وبانت شرفة مئذنة جامع السنيين متكئة عليها ، وقد علتها شرفة ثانية ، والمئذنة ، عودها يستدق ، كأنها مسلة فرعونية ، كلما ارتفعت ، حتى أصبحت قمتها نقطة ، فوقها هلال أخضر كاد لونه يضيع في الزرقة خلفه .

– جهزت الأكل .

لم تلتفت إليها .

– يا التي معنا .

- اسمعي يا ست ماما ، حمدي يجلس مثل الباشا يسمع حكايات ، وأنا يطلع ديني وأيماني فى المطبخ .

- يا بنت خلي عندك خشية .. عندنا ضيف

ردت فى عصبية

- ضيفه هو .

وتركتها ، دون أن تلتفت . نزلت إلي الشارع . تخطت ميدان الشيخ حسنين ، وتركت سوق الخضروات عن يمينها ، ومشيت قدما .

لن أقرف نفسي بإحضار لحم وخضروات ، وأظل طوال النهار ، أجهز .. كفته ، ومحشيا من ورق العنبوالكوسة والفلفل .. لا .. كيلوان من السمك ، أشويهما فى أي فرن ، وينفض المولد. وسبق أن نبهت أخي إلي ذلك . استنكر ، لأنه ضيفه مقيم الآن فى بورسعيد ، والسمك أسهل أكلة عندهم ، وزمانه قرفان منه .. لا شأن لي بهذا . ولتكن هذه رسالة إلي أخي ، حتي لا يعزمه ثانية .. وإذا أراد .. فعنده المطاعم . ورسالة له ، حتي يعرف أنني لست مهتمه به بشكل شخصي .

وصلت إلي شارع بورسعيد ، حيث المحال التجارية ، تواجه كنيسة مارجرجس ، وتجاور جامع السنيين ، بامتداد الشارع ، وتعرض مقتنياتها من الملابس الرجالي والحريمي وأدوات الزينة والأقمشة .

ماريوكا .. أراهن بديني وأيماني ، أن يدلني أحد علي معني لهذا الإسم ، ربما كانت مايوركا .. يخيل إلي أنها إسم مدينة أو ما شابه . فري ستيل .. ستيل وعرفناها .. أسلوب ..وفري .. هل بمعني حر .. الأسلوب الحر يعني .. أم أن المقصود بمعني جدا .. فتكون تجاوزاً الأسلوب الذى علي آخر طراز .. أي طراز هذا وكلها من ألياف صناعية ، تسبب حساسية للجلد ، وتصفر كلما نزعها الإنسان عن جسده .

نوفوتيه .. بوتيك . هل سَيُشكون في ألسنتهم لو قالوا.. محل كذا ومحل كذا .. سنتر آسيا . يعني .. لو قالوا مركز آسيا .. ماذا سيجري . وهل اختفت الحروف العربية، أو عز الحصول عليها حتي يكتبوها بحروف انجليزية . وهل فى استطاعة كل العابرين قراءتها .. حِكَم ..

تري جوليه .. خلاص .. أصبحنا فرنسيين .. كم سائرا في الطريق سيعرف أن معناها حلو جدا ، أم أن المعنى ليس مهما ، المهم وقع الكلمة الأجنبية ، عند ترديدها .. لا .. لا يصح .. ستكون العزومة في وجوهنا غير لائقة .

عرجت إلي شارع ترابي بجوار الكنيسة ، يفضي إلي سوق الخضروات من الخلف، وعلي ناصية السوق جزار . سارت بضع خطوات .. رجحت أن تكون فري بمعني حر . وعادت ، لتلف خلف عمارة الشيخ حسنين ، في وسط الميدان ، في طريقها إلي سوق السمك .

وضحكت وهي تردد .. خيبة لو كان يحب السمك .

عندها تكون الرسالة موجهة إلي أخي ، ويستطيع هو أن يفهمه بصنعة لطافة . تريد محشيا . حاضر ، عندنا باق منذ الأمس محشي كرنب . يا خبر . لقد نسيته في حلته علي البوتاجاز ، ولم تسك عليه في النملية . وخشيت أن تكون أمها عثرت عليه ، وبدأت البلبعة غير عابئة بنظامها الغذائي . وتذكرت يوم صنعت الكعكة ، وكان هذا الضيف موجوداً أيضا ، ونزلت لشراء فاكهة ، وحين عادت أحست بجو غريب في المطبخ ، وفجأة تنبهت .. الكعكة .. أسرعت إلي الشرفة ، حيث جلست أمها في الشمس ترمم عظمها ، وحين هربت بعينيها منها ، تيقنت من صدق ما توقعته .

– هات

وكأنها لم تسمعها ، سرحت بعينيها إلي الأفق

بلهجة منذرة :

– ماما ..

بنصف ضحكة :

– مالك يا بنت .

– لا تعمليها عليّ

كأنها تنفض ملابسها :

– فتشيني .

تطلعت حولها في الشرفة ، لا أثر لشئ ، ومع ذلك هي متأكدة من فعلتها . فجـــأة صاح بائع جوال :

– الله أكبر .

نظرت ، فوجدت الرجل قد أمسك بكيس بلاستيكي ، وفي يده قطعة من الكعـــك . تجمع حوله بعض المارة ، أخذ قضمة ، وأعطي كلاً منهم علي قـــد مـــا قُســـم ، وهـــم يضحكون.

أدركت حمدية ما حدث ، أخذت الأم قطعة من الصينية ، وتسللت إلي مكانها فـــي الشرفة ، وحين أحست بوقع قدميها ، ألقت المشابك من كيسها البلاستيكي ووضعت فيـــه ما بقي منها.وفي لهوجتها وهي تعلقه ، علي حبل الغسيل ، أفلت من المشبك .

تطلعت أسفل كرسيها فوجدت المشابك ، تداريها بقدميها . أرادت أن تزعق فيـــها حتي لا تكررها . ولكنها توقفت أمام نظراتها المنكسرة . محرومة من معظم الأطعمـــة .. هذا للسكر .. وهذا للضغط ، وهذا لا تتحمله المعدة . حتي أصبحت جلداً علـــي عظـــم .

اكتفت بإنذارها :

– أنت حرة .. مضاعفات السكر .. صعبة .

– يا ستي ..

اغتاظت ، وأردفت ، ملمحة إلي شغفها بالمسلسلات التليفزيونية :

– تؤدي إلي العمي .

تحيرت حمدية .. هل تسرع إلي البيت لتلحق بأمها ، خشية وقوع المحشـــي بيـــن يديها، أم تذهب لشراء السمك وشيه أولا . تطلعت إلي ساعة يدها ، وأســـرعت لتلحـــق بالسمك طازجا.، وهي تدعو الله أن يسترها مع هذه الست المتعبة .

(١٠)

اقتعد حمدي الأرض . وركن بظهره علي جذع شجرة أكاسيا ، ومدد ساقيه . سرح ببصره إلي زرقة البحر العميقة . هل يزرع باقي الأغوار المخصصة للخوخ الآن. أم ينتظر نتيجة ما غرسه . فضل الانتظار .

وضع أحدهم حماراً من طين ، في حوض من مزرعته ، التي أسموها مزرعة ديدي، تدليلا لاسم حمدي ، أو تشبهاً بأسماء الحراس التي يتنادون بها ، دون أن يعوا ، وسأله لماذا لم تزرع باقي الأحواض، كان قد أحضر أعشاباً وجدها إلي جوار الأسلاك الشائكة ، زرع بعضها ، وتريث حتي يري النتيجة ، فأجابه : لو صبرت لرأيت .

فوجئ بسعد الدري إلي جواره . أخذ قليلا . قال :

- مئة مرة قلت لك .. اجعلني أحس بك .. تحمحم .. اعمل أي صوت .

رد سعد وقد اعتراه الخجل :

- صدقني .. لا أقصد ..

قال حمدي :

- لا جدوي من الكلام معك .

لمح ندا علي البعد ، أومأ برأسه ناحيتها وقال :

- عربن لنا علي شاي .

- لايوجد شاي ناشف .

- ألست قادما لتوك من العريش .

- لم أكن أعلم .

- اطلع علي رفح أقرب .. واسأل الجماعة إذا كانوا في حاجة إلي شئ .

تردد سعد وهو يسير .. ابتلع ريقه وقال :

- موضوع .. أود الحديث معك عنه .

سرح حمدي ببصره .. اصطدم بمستعمره ياميت ، لم يبق فيها حجر فوق حجـــر . لم يتركوا منتصبا سوي المعبد ، كشاهد علي تلك الخربة وسط الصحراء ، وتساءل فـــي نفسه ما الذي يجعل الإنسان يدمر بهذه الطريقة .

- عندما تعود

اذن ما رآه بالأمس ، له ما وراءه . حاول أن يقنع نفسه ، أنـــه اســتلطاف لقطـــع الوقت ، لا يدري لماذا أسرعت دقات قلبه . أراد أن يعطى نفسه مهلة للتفكير .

غادر سعد بتثاقل ، وكلمات حمدي تشيعه :

- علي الله تحضر كل شئ ، وتنسي الشاي .

وأتبع بضحكة ممطوطة ، لم تجد استجابة من سعد ، فباخ ، وطوح بذراعيه إلـــي الخلف ، محيطا جذع الشجرة ، وضاماً ظهره لها . كان يجلس عند الأسلاك الشـــائكة ، بالقرب من مزرعة ديدي يسمع وشوشة البحر ولا يراه . فرش أمامه ورقة مأخوذة مـــن شيكارة أسمنت . فرد فوقها تفل الشاى ، المتبقي فى القزان ، بعد توزيع شاي الصبـــاح . آملا عندما يجف أن يستخدمه مرة أخري فى ليل العنبر الطويل ، وضـــع ثقـــالات مـــن الحجارة الصغيرة علي أطراف الورقة الأربعة ، مخافة أن يعبث بها الـــهواء ، وعينـــاه لا تغفلان عن حركة الزملاء ، حتى لا يغافله أحدهم ، ويأخذ حفنة من الشاى .

خُيل إليه أنه سمع دبيباً ، تلفت حواليه ، واستغيب سعدا .

أمس ، فى الظهيرة ، بينما يستريح في ظل شجرة ، سمع صوتا لناي يعزف لحنـــا شجيا . اقترب من مصدر الصوت ، لدهشته ، لمح سعدا خلف سور من فروع الأشـــجار المتشابكة يعزف علي الناى . متي .. وأين تعلم هذا السعد ، هذا اللحن الجميل .

هل اختلط بالناس هنا ، وتعلم منهم عادة المغازلة بين السيناوية ، وأنا الذي ظننتـــه يعيش علي الهامش .

لم يظهر حمدي نفسه ، وسرعان ما سمع من خص فى الجهة الأخـــري ، لحنـــا ، كأنما هو رجع الصدي للحن سعد ، ولم يصعب عليه التخمين . ففي هذا الخص تســتريح ندا ساعة القيلولة .

ظنها مداعبة من ندا ولا تقصد شيئا . ولكن عندما زغلل عينيه شـــعاع ، عكســته مرآة صغيرة ، أدرك أن سعداً حاز رضا ندا ، وها هي ترسل إشارة كالمألوف عن الفتـاة هنا ، ليحضر إليها . لو صدق ظني فقد تحادثا ، واتفقا ، وها هو سعد يود مفاتحتي فـــي الأمر . اذن فالأمر جاد . كيف بالله فات عليك يا سعد ، أنهم لا يسمحون للفتاة بـــالزواج من خارج قبيلتها ، فما بالك وأنت صعيدي من المنيا .. ؟!

وكيف طاوعت ندا نفسها ، ودعته للقائها ، وهي تعلم أن أهلها لا يـــأمنون غريبـــا علي بناتهم . هل سيطر عليهما الحب ، فضربا عرض البحر ، بأي محظور .. ؟!

ولماذا صفيتي، لم تستجب لي ، وهي تعلم علم اليقين ، صدق مشاعري نحوها..؟!

أتراها ، تغيظني لأنني لم أوافق ، علي زواج شقيقها صفوت من شقيقتي حمديـــة . لكن أوضحت لها : هذه نقرة .. وهذه نقرة . أتراه الكبرياء يمنعها مـــن الموافقـــة علـــي الاقتران بمن يعترض علي شقيقها .

– الشاي .

انتفض حمدي .. وحين رآه ، تكلم وهو يصطنع البكاء :

– نفسي .. أحس بك .. ؟!

مد يده بكيس شاي .

أتراه معذوراً هذه المرة . استمر في تصنعه ، وإن تصدعت سخريته ، وأطل حنان كان مستتراً :

– لي .. أنا .. ؟!

استدار سعد ، ليعطيه ندا . استوقفه حمدي بإشارة من يده ، وغطس في عينيه:

– اوع .. تكون ندا ..

ظل سعد محتفظاً به في عينيه ، وأومأت رأسه بالإيجاب .

آه .. لابد من مخرج ، قبل أن تصبح سيرتهما علي ألسنة السيناوية . ومن نظـوات سعد ، وضح له أنه لن يمكن اثناؤه عن الفتاة . تذكر صديقه محمد عايش ، ودعـــا الله أن تكون ندا من قبيلة الفواخرة مثله .

حمل إليه سعد صينية ، عليها كوبان من الشاى ، وحين رأى كوب مـــاء أيضـــا ، أدرك أنها لمسة من ندا . سأله بغتة :

– فواخرية

– نعم

هدأ وجيب صدره . تناول كوب شاى ، ونفخ سطحه مبردا ، ومتحاشـــيا نظراتـــه المتسائلة .

اقتربت ندا . هل لتأخذ الصينية ، أم متلهفة لتسمع ما يقولان .

أحس حمدي أن الفتاة الواقفة أمامه ، لم يرها من قبل ، أو لم يتمكن مـــن رؤيتـــها جيدا كما تلوح له الآن . خداها خوخة وانشطرت نصفين . بياضهما مورد ، واحمرارهما فى نعومة وسخونة الزغب تحت جناح الطائر . شفتاها نصفا برقوقة .. احمرارهما مـــن احمرار العقيق مشعتان ، متقدتان . نظرت إلي سعد ، وانبعثت ابتسامة . أحس حمدي أن الابتسامة تكاثرت إلي مئات الابتسامات ، تماما ، كما يحدث حين تلامس ريح الصبـــاح الهادئة ، صفحة ماء البحر الزرقاء الهانئة بملاطفة شمس هينة ، فترتعش صفحة البحـــر بابتسامة، سرعان ما تتولد عنها آلاف الابتسامات ، تومض أشعة ذهبية ، يمـــس ســـناها أغوار النفس فتسبح فى حلم يقظة .. آملة .. واعدة .. طفولية .

أحس بحنين طاغ إلي صفية . وتعجب لأمرها معه . لماذا كـــانت تضيـــق عليـــه الخناق إذا ضبطته ينظر لامرأة عابرة ، أو تلكأ نظرة فى المقهي ، عند فتاة جالسة . مـــع أنه كلما تملي الفتنة ، امتلأت نفسه بالوجد ، وهاجت جوانحه ، وأقبل عليـــها بشـــوق لا يصد .

آه .. لو تعرفين يا صفية .. !!

(11)

تردد صفوت .. هل يتبع نصيحة حمدية ، ولا يذهب إلي حمـــدي ، أم يجازف ويذهب إليه . لاحت له نظرة الخوف فى عينيها ، خشية أن يتطـــور النقــاش بينــهما ، وتحدث جفوة . جرره حمدي فى الكلام . قال صفوت :

– بعد التاسع من أكتوبر ، جاءت الأوامر أن مهمتنا انتهت ، وعلينا العودة .

انتفض حمدي :

– بعد أن سيطرتم علي الجبال والمضيق .. ؟!

خفض صفوت نظراته ، فتابع حمدي :

– السادات فى حسابه حرب محدودة فقط ، ليبدأ التفاوض .

رد صفوت :

– ربما قدراتنا ، لم تسمح بأكثر مما فعلنا .

قال حمدي :

– لتكن حربا محدودة ، ولكن كخطوة علي الطريق إلي فلسطين عربيـــة ، وممـــا اتضح فإنها الخطوة الأولي والأخيرة .

أفصحت نظرات صفوت عدم استيعابه لكلماته ، فتابع :

– قوات الثغرة كانت فى أيدينا ، فلماذا تركناها تفلت .. ؟!

– أمريكا ستتدخل .

– كسينجر ضحك عليه .

ضحك صفوت ، وردد فى نفسه : كان معجبا بالسادات .. خدعهم وأعطاهم ..

– سأجاريك .. أكلها السادات بمزاجه ، لأن عينيه علي المفاوضات . حتـــي لـو كانت عيناي علي التفاوض ، فلماذا لا أقوي موقفي ، وأضعف العدو مســـتقبلا . أدمـر ثلاث فرق مدرعة ، قلب الجيش الإسرائيلي ، كانت فى غرب القناة ، وأكسر نفوسهم .

رافق بعض حاخامات اليهود ، ومعهم بعض الجنود الإسرائيليون وعـدة كـلاب ، جاءوا بعد الحرب للبحث عن قتلاهم . كانت معهم صور لدباباتهم المدمرة التقطت جوا . حددوا لهم مئة متر حول الدبابة المدمرة ، ليفتشوا فيها . تتشمم الكلاب الدبابة ، وتنطلــق .. إذا توقفت ونبشت ، أسرع الجنود إلي الحفر ، وأخرجوا الجثث .

وقف أحد الحاخامات مصعوقا : جثة ضابط وبشره فى فمه .

جاء القائد للاطمئنان علي سير العمل . أخبره صفوت أن المهمـــة كـان ممكـن الانتهاء منها فى ساعة زمن ، ويحملون قتلاهم وينصرفون . لكنهم جلســوا ، وتنــاولوا الطعام والمثلجات . وأقاموا احتفالا ، وعزفوا موسيقي جنائزية .

جاء أحدهم إلي القائد ، وأبدي رغبته فى التقاط صور له معهم . تأملهم القائد مليا ، وقال :

– مع الكلاب فقط .

قال صفوت :

– كانوا علي وشك محاصرة السويس والجيش الثالث .

قال حمدي :

– وكنا نحاصرهم أيضا .. أنت نفسك قلت لي أن الكتيبة ١٤٣ ، احتلت جبل عتاقة لتمنع القوات الإسرائيلية من الاتجاه إلي محور السويس القاهرة .

قال صفوت فى صوت خفيض ، كأنه يفكر بصوت مسموع :

– من يحاصر من .. ؟!

– حين يندلع القتال .. يُحسم الأمر .

جاء صوت حمدية :

– ألم تجوعا .. ؟!

قال حمدي :

- تأخرت رئيستك ..

أطرق صفوت ، وقد عضه الجوع بغتة . أحضروا لنا علب خضروات بـــاللحم . وكلما ظننا أننا شبعنا ، عاودنا الجوع ثانية . أمرنا القـــائد ، أن نكـف ، وإلا انفجــرت بطوننا . طلبنا ماء ، وكنا قد طرحنا من الشدة أنابيب بلاستيكية ، بها ماء معقم .

لمح علي وجه حمدي ، نفس السؤال ، الذي كاد ينطلق من ألســنتهم ، وهــم فــي طريق العودة ، إلي رأس كوبري الجيش الثالث عند عيــون موســي ، يســيطر عليــهم الأسي: لماذا لم نستمر .. ؟!

لابد من الذهاب إلي العريش وحسم الأمر . يعلم أنها مهمة بغيضة ، خاصة وقــد عرف رأيه فيه ، مما انتثر من كلام حمدية . أخذ عليه أنه عســكري مســتبقي . هـذا العسكري المستبقي وصل إلي رتبة رقيب ، وهذا نادر الحدوث بين المجندين . لا ألومك، فالمجند الذي يتطوع بعد انتهاء فترة تجنيده ، ينظر له المجندون ، علي أنه لا أهل لــه ، وإلا ما قبل المرار وتطوع في الجيش ، وهم ما يصدقون أن تنتهي مدة خدمتهم . كــان يعمل في ورشة لحام أكسوجين ، بعد حصوله علي الدبلوم ، حتي طلب للتجنيــد ، ظــل ست سنوات كاملة مجنداً قبل الحرب . أثناءها توفيت أمه . هل كان يترك نفســه عالــة علي صفية ، بعد تركه الجيش ، حتى يوفق إلي عمل ، خاصة والتعيين فــي الحكومــة موقوف ، وكانت صفية خارجة وقتها من زيجة فاشلة ، ولم يرد أن يحملها همه . هــل كان يذهب إلي أخيهما الأكبر ، المقيم في بورسعيد ، وعنده أولاد في الجامعة .

علي أية حال ، ها هي السبعة سنوات ، مدة التطــوع ، قــاربت النفــاد . ولعلــه بالمكافأة ، وبما أدخره ، يستقل بنفسه ، ويفتح ورشة للحام بالأكسوجين ، في المنصورة ، حيث علم من حمدية أن صناعة قطع غيار السيارات ، مزدهرة منذ توقف الاستيراد أيــام الحرب العالمية الثانية ، والآن ازدهرت بجوارها صناعة سكن ضرب الأرز وعصــارات القصب ، ومناشير الخشب ، وكل هذا يحتاج لحاما بالأكسوجين .

لا يحق لك أن تعايرني ، ولا يحق لصفية ، التي تعايرني لأني لم أنتــهز فرصــة وجودي في الجيش وأذاكر ثانوية عامة ، كما فعل كثير من زملائي ، وألتحق بالجامعة ، وأكون جامعيا مثلها ومثل أخي الأكبر .

ماذا ستجديني الشهادة الجامعية ، وأنا أري أخي يستجدي طوب الأرض ليكمل تعليم أولاده .. ؟! عدة أيام فى أي ورشة تساوي مرتب السيد خريج الجامعة . ولماذا أجبر نفسي علي دراسة نظرية وأنا لا أحب إلا الأشياء العملية .

فعلا يا سيد حمدي ، تليق بك هذه الصفية ، كلاكما قلبه حجر ، وهل أنسي موقفها فى أيام أمي الأخيرة ، وهي فى حاجة لمن يسندها إلي الحمام ، ولمن يطعمها ، وهي تصر علي إرسالها إلي أخي فى بورسعيد ، ليتحمل نصيبه من تعبها ، كما تقول .

- البنت أولي بأمها

- هو أيضا ابنها

- تُكشف علي غريبة .. زوجته ..

هزت كتفيها ، وخرجت .

ولست أدري ، هل سمعتها أمنا أم لا . لكني وجدتها ولم تملك نفسها ، هل تعرف هذه الغبية ماذا ألم بي ، وماذا أحست به الأم ، وأنا أنظف عورتها ، بينما تهرب بعينيها. يجب المواجهة ، دون أن تهرب عيناي من عينيه ، ويجب أن يسمع كلامي .. ربما غير رأيه .. حتى الأن لم أعلن فكري بوضوح . عن الشقة ، فلن أتزوج فى شقتهم المتداعية.

قبل تركه الجيش ، قدم طلبا للحصول علي شقه فى المنصورة ، مكافأته من الجيش، وما ادخره أثناء تطوعه ، طبعا لن يكفيا للحصول علي شقة ومحل في وقت واحد . كانوا حاجزين فى مجلس المدينة عمارتين للقوات المسلحة . أعطوا الضباط ، ولم يصب ضباط الصف من الحب جانبا . علي أية حال . المحل يحضر عشرين شقة . سوف نكبر ، المهم أن يكون لي عمود أرتكز إليه .

أيام حرب الاستنزاف ، جاء فريق من الصاعقة علي طريق أبي عمود ، إلي موقعنا . عبروا القناة ورفعوا العلم . التقط الإسرائيليون ، تهليلهم بعد عودتهم . في الصباح بدأت المدفعية الإسرائيلية فى القصف . كانوا قد احتاطوا للأمر ، بعمل حفر أسطوانية . وحفروا تحت الدبابات خنادق صغيرة ، غطست فيها أثناء القصف ، الذي استمر طوال النهار . وفي اليوم التالي أشعلت الطائرات الموقع كله بالنابالم . غطوا الفتحات الأسطوانية حتي لا تطولهم النيران . استمر القصف عدة أيام . فقرر القائد تغيير

الموقع ، مع عدم إغفال حراسة العلم المرفوع قبالتهم علي الضفــة الشــرقية . أحاطتــه النيران المصرية كالسياج طوال أسبوعين ، دون أن يتمكن الإسرائيليون مـــن انزالــه . تقدمت وحدة من الدبابات إلي موقع العلم . ركزوا القصف عليها من الضفـــة الغربيـــة . قصفهم الإسرائيليون بمدافع الهاون ذات الأعيرة الثقيلة . أصبح قضاؤهم لحاجتهم لا يتـــم إلا كل بضعة أيام . بين غارة وأخري للطائرات أو خلال هدوء نسبي لقصف المدفعية ، يتسلل بعضهم إلي الجبل ، والغريب أنهم أثناء اشتداد القصف ، لم يشعروا برغبـــة إلـــي ذلك . حاول القائد عمل أدبخانة (مراحيض) فى الموقع ، لكن توالـــي القصــف ، لـــم يمكنهم من ذلك .

أغلب طعامهم جاف . معهم أقراص من كحول بيضاء ، لتسخين الطعام . ومعـــهم أكياس لبن جاف .

مرة اشتري أحدهم موقد كيروسيني ، ولكن القصف لم يمكنهم من استخدامه .

رأوا الدبابات ، تكاد تطبق علي العلم . تقدمت وحدة إلي موقع قرب مياه القنـــاة ، وقصفتهم . سرعان ما حومت الطائرات الإسرائيلية ، وأحرقت الموقع بالنابالم . خلع قائد المجموعة سترته ، وعبأها بالرمال ، وعمل به ممرا وسط النار ، سار عليه جنوده .

لا داعي لذهابي ، لتذهب حمدية ، لعلها تمهد لي الطريـــق ، وأخطــف رجلــي ، لمنطقة الورش بحي الحسينية بالمنصورة ، أتفقد محلا يصلح ، وأسأل عن الأسعار .

حضرت أطقم من الورش المختلفة ، تممت علي المعدات ، وأصلحت الأعطـــال ، أحسوا باقتراب موعد اقتحام قناة السويس ، إلي سيناء . اشتروا طعاما إضافيا . وضعـوه فى أجناب الدبابات . كانوا يعزمون علي المشاة من طعامهم وشرابهم . وعندمـــا كـــانت تحترق أي دبابة ، كان كل همهم إنقاذ جراكن الماء .

وبعد أن كان صفوت وزملاؤه من رجال الصاعقة ، يحسدون رجال المدرعـــات ، علي تحصنهم فى قلاعهم الفولاذية ، أصبحوا يشفقون عليهم من نيرانها ، حين تدمـــر ، وحين عبرت القناة وحدة دبابات علي الـــ G.S ، أيقنوا أن العبور للجيـــش كلـــه بـــات وشيكا.

نزلت وحدة من الـ G.S إلي الماء . وقد فردت كل منها جناحيها . كل جناح تقف عليه دبابة . ما أن وصلت إلي البر الغربي ، حتى انطلقت الدبابات ، وضمت الـ G.S أجنحتها .

أخذت الدبابات فى قصف حصون خط بارليف . توقفت طويلا أمام تبة استعصت عليها ، رغم تعزيز المدفعية ، من الشاطئ الغربي ، ورغم كذا طلعة طيران .

عادت الدبابات ، بين تهليل الجنود ، والقادة يحذرونهم . سرعان ما جاءت الطائرات الإسرائيلية ، وأفسدت فرحة عبور وحدة ثقيلة ، وعودتهم بثلاثة من الأسري . أخذوا يستجوبونهم ، لمعرفة سر التبة الحصينة . أخذ كل منهم يردد :

– لا أعرف شيئا .

رأي أحدهم المنظر .. الطائرات التى عبرت من دقائق عادت سالمة ، صاح غير مصدق :

– الله أكبر .

ورأى آخر شاطئ القناة الغربي ، وقد ظهر فجأة مكتظا بالجنود والمعدات والمركبات ، فصاح :

– الله أكبر .

وانتبه آخرون لما يحدث ، والمدرعات تدمدم ، وفوهات أكثر من ألف مدفع ، تتوهج ، فانطلقت من الحناجر ، وأصبحت صيحة القتال :

– الله أكبر .

تذكر موعده مع فوج ، لمشاهدة أحد حصون خط بارليف ، لماذا لم تنسفها قواتنا كلها ، نسفت أغلبها ، خشية أن يعود إليها الإسرائيليون ، أثناء الحرب ، عند أي هجمة مضادة ، وتركت بعضها شاهداً علي ما كان ، ولتعبي ، ولأظل أعيد : ليست هذه الشبكة الحديدية كعيون نسيج العنكبوت ، وما بها من حجارة جيرية بيضاء ، كل شئ . خلفها عربات سكك حديدية . نعم .. عربات قطار العريش .

صبوا في داخلها ، خرسانة ، ووضعوا فوقها قضبان السكك الحديدية ، وفوقها دشم من كسر الحجارة والرمال ، تحيط حجرات الحصن ، بينها ممرات ضيقة كما تـــرون ، مبطنة بألواح الصاج المضلعة .

أثناء حرب الاستنزاف قصفت قواتنا حصون خط بارليف بالمدافع الثقيلة ، فلم تنــل منها . قال بعض الخبراء أنه لا يمكن هدمها إلا بقنبلة ذرية ، وعندئذ لابد مـــن رجـــوع القوات المصرية إلي الوراء . كيف نعود إلي الخلف ونحن نريد أن نتقدم إلي الأمام ..؟!

ينظر له الزوار في تساؤل . وكأنما يترقب هذه اللحظة ، يبتسم ويقول :

– في حرب ٧٣ حاصرتها قواتنا بالنيران من الخلف والأجناب لمنـــع أي نجـــدة، وتقدم المهندسون ومعهم قنابل البنجالور .

– أفندم .. ؟!

– متفجرات في ماسورة طويلة ، تشبه ماسورة المياه ، ويمكن توصيل المواســـير ببعضها بعضا ، ودفعها في الرمال ، من تحت الأسلاك الشائكة ، لفتـــح طريـــق إلـــي الحصن ، الذي تحيط به الألغام .

تبادلوا النظرات ، فعاجلهم :

– في الحال تم فتح الطريق ، وتقدم المشاة واستولوا علـــي الحصـــن يـــدا بيـــد ، وطهروه من الإسرائيليين . بعضهم هرب ، وبعضهم اختبأ في هذه الممـــرات الضيقـــة المتعرجة ، التي نقف فيها ، وتم أسرهم .

وغلب الضحك صفوت ، تذكر ما رواه له أحد أصدقائه من المشاة ، حين دخـــل الحصن فوجد جندي الملاحظة مشوشا ، وقد سقط من ارتفاع ستة وثلاثين مترا ، وتعـــثر في دلو بلاستيكي بجواره صابونه ، وفي الحجرات وجدوا علب الشيكولاته ، والثلاجـــات عامرة ، وسخانات وأسرة مريحة ، وعثر أحدهم علي ملابس داخلية نسائية ، فصاحوا جميعا في نفس واحد : يا أولاد الأبالسة ، وقد زال عنهم التعب فجأة .

اشار أحدهم إلي حائط ، قائم وسط الصحراء .

– تركناه أثراً يدل علي حصن كان موجوداً

تنقلت أنظارهم بين الحائط ، والحصن الذي يشاهدونه ، غير مصدقين أنــــه كـــان هناك حصن ضخم مثل الذي يقفون إلي جواره ، وأدركوا المغزي من ترك الحائط .

وقال صفوت فى نفسه : هذا هو حائط المبكي الحقيقي ، لو أراد اليـــهود البكـــاء . وليس حائط المبكي فى القدس .

صحح له ضابط التوجيه المعنوي :

– حائط البراق .. وهناك قضايا رُفعت بشأنه وحُكم فيها بملكية العرب له .

لكن نظراً لتعود اليهود الحضور وتلاوة الصلوات ، والبكاء ، حيث المكان هادئ ، والحائط ذو التواء يبعث فى النفس الخشوع ، ونظراً لأنهم كانوا لاجئين ، مطرودين مـــن أسبانيا المسيحية بعد سقوط الأندلس ونزوح العرب منها ، فقد تركهم العرب .

وأنا أريدهم أن يبكوا هنا . وماذا لو قالوا بعد حين .. الحائط ملكنا ، وقناة السويس التى يطل عليها لنا .. ؟! أحقا هم بنوا الحائط .

– حائط البراق ، بناه السلطان سليمان العثماني ، وهو جزء من سور بنـــاه حـــول مدينة القدس لحمايتها ، وبسرعان ما روجوا أن هذا هو الحائط الغربي لهيكل سليمان .

إذا كانوا قد فعلوا هذا بشأن حائط لم يبنوه ، فماذا هم فاعلون بشـــأن حـــائط بنـــوه فعلا.. ؟! خاصة وبكاؤهم هنا سوف يكون حقيقيا .. أما بكاؤهم هناك فهو "علي فشـوش".

سأل أحد الدارسين :

– هذا عن حائط فماذا عن مستوطنات يبنونها فى الضفة الغربية .. ؟!

انبري لسان صفوت منه :

– يستاهل العرب .. قبل حرب ٦٧ كانت القدس الشرقية والضفة الغربية وغزة فى أيديهم فلماذا لم يقيموا دولة للفلسطينيين .. ؟!

قال الضابط ، ساخرا :

– أخرة فرقة التوجية المعنوي .. ؟!

(١٢)

سأل عنها فى المجلس المحلي . أخبروه أنها لا تحضر مبكراً . نصحوه ، إن كـان يريدها في أمر هام ، أن يذهب إلي منزلها ، وتطوع أحدهم ووصف له مكان بيتها ، ولـم يكن حمدي بحاجة لذلك . طلب من سعد أن يقود العربة ، إلي مزرعة الزيتـون خلـف العريش . وقبلها بقليل ، عند شارع جانبي ، قال :

– أعتقد أنه شارعها .

تمهلت العربة ، وهو يتطلع إلي البيوت .. أشار إلي بيت انفرد بعيداً عنها ، يحيـط به النخيل . طرق الباب . قادته امرأة عجوز ، إلي حجرة فسيحة ، تركت بابها المطـل علي صحن الدار مفتوحاً . فبانت له أبواب الحجرات من كل جانب .وفي الوسط أشـجار النخيل . واستوقفت نظره شرفة ، اعترضتها نخلة ، بدلا من قطعها لف البناء حولـها ، وبدت كأنها مطلة من داخل البيت ، فأدرك أن صاحبته عريشية أصيلة .

أحضرت العجوز صينية عليها فنجانان صغيران . صبت القهوة من إبريق فضـي رقبته طويلة ، دقيقة عند العنق ، تحيط بها وعند قاعدة الإبريق نقط صغـيرة مدقوقـه ، وبزبوزه منحن صريح كإبهام المرء عندما يثنيه إلي الخارج .

غادرت العجوز ، وطالعته قامة امرأة ، متينة البنيان ، فارعة ، لم يفلح جرح فـي خط مائل علي خدها الأيمن ، أن ينال من بقايا ملاحة متشبثة . لمت شعرها تحت غطـاء رأس حديث مما تستعمله نساء المدن في الوادي . ووضعت عباءة سوداء فـوق جلبـاب داكن ، أغلب الظن أزرق اللون . حواف العباءة مطرزة بزجزاج أحمر ، حبكت العبـاءة حول جسدها ، وجلست علي كنبه قبالة كنبته واتكأت بكوعيها علي مسند خلفها ، وأطلـت ذراعاها من كمي العباءة الفضفاضين القصيرين .

تحمحمت وقالت :

– يا مرحبا

– مرحبا بك يا ست هانم ..

– التقينا من قبل ..

ظنها نسيت ، أو تشكك أنها ما زالت تذكره، فلم يلتقيا أكثر من لحظة خاطفة . وصل مديرية الزراعة ، فلم يجد أحدا في استقباله . حقا .. الوقت متأخر .. ولكننا أرسلنا اشارة .. نفى عامل التليفون علمه بذلك . هل كان هناك عطل ، فلم يستطع عاملنا ابلاغها .. ليتني تفحصت سلك التليفون الميداني . لحظ العامل حيرته ، فنصحه بالذهاب للست حميدة .. لم تكد تعرف مأموريته ، حتى دبرت له مبيتا في استراحة المحافظة ، وفوجئ بعد أن دخل الليل برجل من طرفها يطرق بابه ، حاملا طعام الكرماء .

– لم تُتح لي فرصة لأقدم شكري .

– العفو .. أنت وغيرك علي الرحب والسعة .

لحظت تردده في الحديث فيما جاء من أجله . فأومأت إلي القهوة وابتسمت .. تناول رشفة ، أذابت جمود لسانه ، وقال :

– سمعت أن المجلس المحلي في سبيله لتقديم مشروع لبيع الأراضي الصالحة للزراعة من العريش إلي رفح .

– تقدم كثيرون للشراء بالفعل .

– الأرض المعروضة للبيع صالحة جدا لزراعة الخوخ .. فهلا أرجأنا الأمر .. حتى نتأكد من صحة ما زرعناه منه .. فإذا أعطي ناتجا جيداً أرشدنا الناس إلي زراعته.

تناولت السيدة فنجان قهوتها . رشفت بتؤدة ، معطية نفسها مهلة للتفكير ، وقالت :

– لكن الموالح صحت ..

– لحظت انتشار زراعة اللوز .. ورأيت حباته صغيرة وخشنة ..وبعضها ليست به ثمرة .

أنت السيدة علي فنجانها ، وضعته علي الصينية ونظرت مباشرة في عينيه وقالت:

– لا أعدك بوقف البيع .. فلا نريد أن يفتر حماس الأهالي للزراعة .. لكننا سنطلب منهم الإسترشاد بما تقوله مديرية الزراعة .

وضع فنجانه علي طقطوقه لصق الكنبة ، كأنما خشي أن ينحني إلي الأمام ويضعه في الصينية قبالتها . وقال حتى لا يحط الصمت :

– كيف حال محمد عايش .. ؟

– مُقْعَد ولا يغادر بيته .. صبحه الله بالخير .

اعتزم زيارته في بيته ، ناحية الساحل غرب العريش ، قبالة الفندق الذى تعمل فيه بنتها، ولحظ أنها ذكرت العبارة الأخيرة بزهو وقد تألقت عيناهـــا ، المتماوجتـــان بيـــن الأخضر ولمعة صفراء بنية ، أورثتهما لبنتها . أول أمس كان في فندق مارينا العريـــش علي الشاطئ .. لفتت نظره مضيفة جميلة . من نتف الكـــلام ، كلمـــا أحضـــرت شـــيئا لمائدته، علم أنها حاصلة علي بكالوريوس تجارة . وحين استفسر عنها من أحد العمـــال ، أجابه ضاحكا :

– أمامك المضيفات كلهن .. إلا هذه ..

رفع حاجبيه دهشة ، فأردف العامل :

– بنت حميدة جلبانة .

نهض مستأذنا ، وشكرها لحسن استقبالها ، وهو يغادر لام نفسه .. هل حقا زارهـــا من أجل زراعة الخوخ .. مع علمه أن كثيرا من الموالح أعطت نتاجاً عاليا . وهل يتوقع حقا أن يكون الخوخ أفضل .. أم هو عود من الريحان ، نما خلسة فـــى ظـــل شـــجرة ، ويتلمس بعضا من الضوء ..

هل لقاء عابر مع تلك المضيفة ، يجعلك تتعلق بها . وأين حبك لصفية اذن . وهـــل أصبح من الضعف بحيث يزيحه لقاء عابر . أم هو الزمن .. وعدم التيقن من التحقـــق .. جعل النفس تهفو لرائحة الريحان .. حينما عبقت في الجو .. قدرها فـــى الثلاثيـــن مـــن عمرها .. فلماذا تأخرت عن الزواج .. هل هي ظروف الحرب .. ربمـــا كـــانت فـــى القاهرة تدرس فى الجامعة ولم تستطع العودة إبان احتلال سيناء لمدة اثني عشر عامـــا .. أم الناس يترددون في الاقتراب منها خوفا من صلابة ونفوذ أمها ، الذي ســـمع عنـــه .. لكنها قابلته اليوم برقة .. ولم ير منها سوي دماثة وإجابة معقولة لما طلب .. هـــل فـــي الأمر سر لا أعرفه .. ؟!

صعد إلي العربة ، وعينا سعد عالقتان به :

– فندق مارينا

– ليس وقته .. ؟!

– يا بني آدم .. قلت فندق مارينا ..

وأخذ يتخيل منظره ، عندما يوليان ظهرهما للفندق ، ويذهبان إلي الجهة الأخري . مرت العربة بمطب ، فنظر إليه في غيظ .. قدر وقد سلكا في شارع البحر .. أن توتـره سوف يذهب بعد قليل .. ناغشتهما النسمات المنعشة .. وإلي يمينهما صفحة الماء هادئة.. ولحظ حمدي أنها هادئة جدا .. كماء بحيرة .. فلا موج ولازبد ..

أحس لهذا الهدوء رجفة ، سرت في أعطافه .

في وقت بين العصر والمغرب ، توقفت العربة ، وكانت قد وصلت إلي مشـــارف بحيرة البردويل . نزل بعض الركاب يبحثون ، عن كوب من الشاي ، أو مشروب مثلـج، ونزل حمدي ، ليفك عقدتي ركبتيه ، ويمشي الدم في أوصالهما .

تراءت مياه البحيرة هادئة تدغدغها أشعة الشمس ، وتنساب في تعرج متداخل مـــع ألسنة الصحراء .

حلقت أسراب العجاج ، بحذاء الأفق المواجه للشاطئ . انحرفـت قليـلا فحجبـت ضوء الشمس . وعمت الجو رمادية منذرة . مال لـــون ميـاه الـبردويل إلــي اللـون الرصاصي . وبدا أن أسماك موسي والقاروص والدنيس ، قد أصابها الاضطراب ، فقـد تعكر الأديم الرصاصي . منذ ظهور العجاج ، تعطلت " الخارجة " ، تلك الطوابير مـــن الدنيس الخارجة من البحيرة ، في مطلع الشتاء من كل عام ، لتضع بيضها في عـــرض البحر .

أقام العجاج جداراً صلدا عند البواغيز ، والمخارج . ما أن تلوح الطلائع ، حتـــي ينقض عليها موجة في أثر أخري .

ولما كانت الأسماك لا تستطيع الانتظار ، وقد ناءت بطونها بما تحمل ، وخشية أن يفوتها موعد الوضع ، فقد جازفت بالخروج ، معرضة نفسها لمنـــاقير العجـــاج ، التـــي

أخذت تلتقطها ، ملتهمة إياها فى سرعة ويسر . وتسرع بعيداً ، متيحة المجـــال لســـرب آخر للانقضاض .. ولتتيح لأنفسها فرصة أخري للمعاودة .

زادت عكارة الماء . أحست الأسماك أنها محاصرة ، فغاصت إلي الأعماق . ولكن العجاج لم تخدعه المناورة . انقضت أسرابه تحت الماء ، وسرعان ما عادت طائرة ، وقـــد تدلت من مناقيرها أسماك الدنيس ، تومض قشورها الفضية المشربة بالحمرة ، من أشـــعة شمس ، تلوح حينا ، وتختفي حينا .

ويبدو أن أسمـــــاك القــــاروص وثعبان البحر ، ظنت أن هناك فرصة للسباحة، والبحث عما يرد جوعتها . لكن العجاج ، الذي انتهي لتوه من وجبة الدنيـــس الشـــهية ، تاركا من أفلت من حصاره ، إلي عرض البحر ، عمل جداراً دائريا ، ساعده فـــى ذلـــك الهدوء المريب الذي عم البحيرة ، وعدم خروج أي مراكب للصيد فى هذا الوقت ، حيـث البحيرة مغلقة ، لتطهير البواغيز ، ولعمل صيانة فى المعدات والمراكب ، وحيث موســـم التزاوج والتفريخ .

انقضت أسراب العجاج ، وظهرت فجوات بين أسرابه ، أطلت منها أشعة الشـــمس مرتعشة . طارت أسراب العجاج تحمل فى مناقيرها سمــــك القـــاروص . ويبـــدو أن ثعبان البحر قد زاغ إلي الأعماق . وحلقت أسراب العجاج نشوي ، ترقب الماء مـــن أعلي ، وكلما لحظت تغير لون الماء ، حددت البقع الدسمة ، وصنعت جـــداراً دائريـــا ، وانقضت تلتهم الأسماك المذعورة .

أوشكت الشمس علي الرحيل . وبات من المتعذر علي العجاج ، تحديد بقع المـــاء الغامقة ، فأخذ ينتظم فى أسراب للانسحاب ، ولم يشأ وهو ينســـحب ، أن يمـــر الأمـــر بسلام، فكان يهبط ويرتفع ، ملتقطا زريعة السمك .

عبث حمدي بمؤشر الراديو ، ليسمع موجز أنباء الشرق الأوسط ، التى تذيعة كـــل ساعة . بيان عن جماعة من الإسلاميين المتطرفين اقتحموا محل ذهب فى شبرا وقتلـــوا أصحابه ، ويؤكد البيان وجود عناصر غريبة مدسوسة .

أغلق الراديو . أنتم تصدرون بيانا .. ونحن نصدر بيانا .. ولم يصدر الإسرائيليون بيانا .. علقوا علي باب المعسكر من الداخل ، مقتطفا من حديث لديـــان وزيـــر الدفـــاع الإسرائيلي مع جريدة أمريكية .

سأله الصحفي الأمريكي :

– كيف أمكن أن تكرروا فى حرب ٦٧ ، ما فعلتموه فى حـــرب ٥٦ ، وتضربـــوا الطائرات المصرية علي الأرض .

أجابه ديان :

– العرب لا يقرأون .

الأمريكي :

– هل يمكن أن يفعل المصريون مثلكم ويضربون الطـــائرات الإســـرائيلية علـــي الأرض.

ضحك ديان وقال :

– بالرغم أننا نعلم أن هذا ليس فى إمكانهم ، إلا أننـــا نتخـــذ احتياطـــات كأنـــهم يستطيعون ذلك .

وأثنت الصحيفة ، علي اختيار ساعة الهجوم الجوي ، في التاســـعة مـــن صبـــاح الخامس من يونيو ٦٧ ، ساعة تواجد الضباط المصريين فى الحمامات .

احتل الإسرائيليون سيناء فى حرب ١٩٥٦ ، بعد انسحاب الجيش المصري . وقـــد اضطر لذلك بعد أن اكتشف تواطؤ انجلترا وفرنسا مع إسرائيل ، لضربـــه مـــن الأمـــام والخلف . لكن فى حرب ١٩٦٧، القوات الإسرائيلية وحدها .. ولن ينسحب من أمامها .

وكان أن أوهموا بوجود عدوان ثلاثي ، علي غرار ما حدث في ٥٦ واتضح فيمـــا بعد أن العدوان فى ٥٦ كان رباعياً ، وأن أمريكا شاركت فيه، وبالفعل تواجد الأسطولين ، البريطاني ، والأمريكي السادس ، فى مواقع قريبة من ساحة المعركة .

وتفتقت أذهانهم ، عن سبب لاندلاع الحرب ، والفرصة سانحة لأن ثلـــث الجيـــش المصري فى اليمن . أذاعوا فى وسائل الإعلام المختلفة عن وجود حشود إسرائيلية علـــي

الحدود السورية ، خاصة والتوتر كان حاداً معها ومع الأردن . وتم تسـريب هـذه المعلومات إلي مخابرات الدول الصديقة لمصر ، خاصة روسيا .

وأرسل الرئيس عبد الناصر رئيس أركان الجيش المصري إلي سوريا ولـم يجـد شيئا غير عادي علي حدودها مع إسرائيل ، وأنبأت صور الاستطلاع الجوي يومـي ١٢ و ١٣ مايوعام ٦٧ عدم وجود أي حشود عسكرية . ونفت الاسـتخبارات فـي القيـادة العربية الموحدة هذه المعلومات.

اذن فلابد من استفزاز جمال عبد الناصر ..

نسبوا تصريحا لزعيم منظمة التحرير الفلسطينية أننا سوف نلقـي باليـهود فـي البحر.

وأخذت وسائل الإعلام المختلفة ، تتهم ناصر بالتقـاعس ، عـن نجـدة سـوريا والأردن، وأنه يتخفي خلف قوات الطوارئ الدولية .وكان أن طـالب بسـحبها ، ودفـع بالجيش إلي سيناء .

(١٣)

أخرج سعد العربة من الحظيرة . رفع الغطاء الأمامي . صب بعض الماء . وضع إصبعا بين الأسلاك ، وتملي من إحداها ، وضع الغطاء وأمسك ببطانة ، وأخـــذ يطـــوق العربة ، وهو يدعو فى سره ، ألا يجد عامل التموين بالوقود فى هذه الساعة .

كثيراً ما قال للباشمهندس حمدي ، لا داعي للتردد علي بيت النائبة . أنت لم تحســم أمرك بعد ، وهذه لا يجدي معها مقالك ، يقهقه مهوناً ، وتلمع عيناه الرماديتان ، فيظـــهر اخضرارهما ، بلون المغات ، وقد نشع علي بياض عينيه ويردد : السر فى بئر ، الأبـــار هنا كثيرة ، إذا شرب واحد من إحداها ، عرف نصف سكان العريش ، من ، ومن أيـــن . يستمر في قهقهته ، ويقول : يبقي النصف الآخر . تقصد القبيلة الأخري.

مصيرها مع الوقت أن تعرف ، ولو أخفت السر ، فإلي حين . يتوقف حمدي عـــن الضحك ويقول .. تقصد مع الوقت أن تعرف ، ولو أخفت السر ، فإلي حيـــن . يتوقـــف حمدي عن الضحك ويقول .. تقصد أن القبيلة تظل ساهية ، مثلك ، متحينة سقطة للقبيلـــة الأخري . فيقول سعد ، أنه لذلك يجب عدم التردد .

يحاوره حمدي : لست متردداً ، ولكني أفكر . تساءل سعد فى نفسه : إلي متـــي .. وكأنه قرأ ما جال فى خاطره فقال : فى الجورة نضع بذرة الخوخ بعيدة عن الأخـــري ، حتي إذا كانت بها آفة ، لا تضرها . فهم سعد تلميحه عما يثار من شائعات عن العاملات في الفنادق ، وربما كانت إحداهن ..

ود لو يقول له كل واحدة ولها عقلها ، وتختار كيف تسلك ، لكنه خشى ســخريته . كانا يستظلان بفروع شجرة ، أكاسيا ، وقد سرت فى الجو طراوة ، فجأة نـــهض ســـعد وقال :

– أحضر الغذاء

تأمله حمدي وقال :

– نفسي أكون مثل هذه الشجرة .

– فى وسط الصحراء .

– الشجرة تصنع غذاءها بنفسها .. تمتص بعض الضوء ، وجذورها تمتص بعض الماء ، وما تيسر من التربة ، علي القد بالضبط .

قال سعد ضاحكا :

– لأن الشجرة لا تذهب إلي السوق ، تريد أن تفعل مثلها ..

– ولا فضلات لها

– نسيت شيئا ..

– ماذا يا فالح

– هذا من ستر ربنا لأنها لا تتحرك من مكانها .

– ناقصينك .. ؟!

– غلطت .. ؟

– وجع في بطنك .. نحن نتحرك .. إلي أين .. ؟!

نظر سعد فى ساعته .. تقترب من الرابعة بعد الظهر ..

في الرابعة تماما ، وكان يقوم بالخدمة ، لمح شخصا آتيا من وراء تبة مرتفعة . عارضه فوقف . كلمة سر الليل . قالها . تقدم . ضابط احتياط من ك ٢٧ أ ، كان فى فرقة بأسوان ، فاجأته الحرب فى طريق العودة ، ويود اللحاق بوحدته فى الجبهة . سمي له ضابطا بكتيبته . الإسم صحيح . ركنه معه حتي الصباح ، وقدمه لقائده . احتسيا الشاى معا ، فاطمأن سعد قليلا . طلب منه القائد أن يذهب معه بالذخيرة ، إلي مكان دبابة مغروزة ، رآها فى الطريق . أثناء العودة ، استأذن ليفك ماءه . غطس في حفوة ، وسرعان ما شنت الطائرات الاسرائيلية غارة مركزة علي سرية دبابات بالقرب منها . انبطح سعد أرضا وتساءل : لماذا الغارة الآن وهذا الموقع لم يتعامل بالنيران منذ الأمس، والسرية مموهة جيدا . انتهت الغارة ورجعا . سأل ضابط تعيينات عن إحدي كتائب المشاة ، وذكر له رقمها . استغرب الضابط السؤال . هذه الكتيبة لم تعبر إلا من مدة وجيزة . احتلت مواقعها ولم تتعامل مع العدو حتي الآن . سأله :

– من أى وحدة أنت .. ؟
– ٢٧ أ
قهقهة ضابط التعيينات :
– أنا من الوحدة ٢٧ ، ولا يوجد فى الجيش كله أ .

وضع سعد مفتاح التشغيل ، علي المغمض . ظل يحاول ، إلـــي أن تمكــن مــن الفتحة، وأداره . وضع قدمه اليمني علي ضاغط الوقود ، في وخزات سريعة متلاحقــة ، حتي علقت المكنة ، وتركها تدور فى رتابة .

أمسك عجلة القيادة ، وثبت قدمه علي ضاغط الوقود ، ولسان حاله يقول : أمرنـــا لله .

تُري .. هل تكون النائبة هناك فى هــذه الســاعة . أم خرجــت لتلحــق بــإحدي اجتماعاتها . الشمس تلملم أشعتها التى سبق وفرشتها فوق المدينة . رفقتـــها ، وســـحبتها عند الأفق ، وفوق البحر ، ولن يمر وقت طويل ، حتى تخضب نتف الســـحاب بـــاللون الأحمر ، وهي تمعن فى الرحيل ، حتي تتحول إلي نقطة صغيرة فـــى عمـــق البحـــر ، وتستطيع أقلها موجة أن تغرقها .

استدار بالعربة ، ليدخل فى الطريق المؤدية إلي شارع العريش الرئيســـي . لــف بجوار قلعة العريش . تاهت فى عينيه معالم الحجارة المتداعية ، والطوب الأحمر القديم. هل كانت هناك محاولة إقامة شئ إلي جوارها ، لكنه تداعي هو الآخر .

عند المنعطف ، في طريق ، اعتقد أنها تؤدي إلي سوق الخميــس ، وفـــي غبشـــة الظلام الوشيك ، خيل إليه أنه لمح ندا . هل يستدير خلفها ، ويهمل موعد الباشــمهندس ، أو حتى يتأخر عليه قليلا . لكنه غير متأكد منها .

نفس القامة ، لكن هذه عبعب جلبابها ، عند حزام فى وسطها ، فبانت ككرنبة .

هل هى ندا وقد اشترت قماشا ، أو فستانا ، ووضعته فى عبـــها ، أو لفتـــه حـــول وسطها ، ولماذا تفعل ذلك .

لعل شيئا آخر فى يديها ، لم ألحظه جعلها تفعل ذلك .

هل لمحتني . كانت لفتي عند المنعطف سريعة . أكاد أقطع أنها هـــي . نظرتـــي السريعة خطفت نور عينيها .

ما ينبغث من عيني ندا ، ليس مثل ما ينبعث من عيني أي امرأة أخري .

خرج القائد من مخبئه ، كالكرنبة ، كتمنا ضحكاتنا التى كادت تفضحنا ، وأدركنـــا أن في الأمر شيئا .

علموا أنه تسلم علما مصريا ، لفه حول وسطه ، تحت ملابسه ، وتسلم مظروفـــا ، وعليه ألا يفتحه قبل الواحدة والنصف ظهرا ، ويبلغ جنوده بفحواه .

هل حانت اللحظة أخيرا .. انتهت مدة التجنيد الأصلية لسعد وكثير من زملائـــه ، وبدا أن مدة الاستبقاء لا نهاية لها . كل عام يتدربون علي ما أســـموه الخطـــة ألفيـــن . استدعوا بعض الجنود ممن أحيلوا للاحتياط من مدة وجيزة ، وضموهـــم إليـــهم . قـــال الجنود : مناورات الخريف المعتادة . كانوا يتدربون علي صد الاسرائيليين إذا هاجموهم. هذه المرة ، تدربوا علي مطاردتهم إلي الضفة الغربية ، في أرض تشبه أرض ســـيناء ، بصحراء الفيوم ، خلف الهرم الأكبر . قال القادة : ستكون هناك قوارب مطاطية .

قال أحدهم وهو يشخر :

– قال يعني سنركب قوارب ، ونعبر فعلا .. !

تصاعد الشك فى نفوسهم ، فسبع سنوات ، استبقاء فى الجيش . كل يوم في موقع، وكل يوم يحفرون الرمال ، ويعدون مواقع ، ويجهزونها هندسيا ، ثم يتركونها ، ويقيمـون سدوداً من الرمال والتراب ، ويحدثون فيها ثغرات ، وأحيانا يتدربون علي عبور الســدود بسلالم من الحبال ، وهم يحملون أسلحتهم ومعداتهم . وبترتيب ، هذا وراء ذاك . وهـــذا يتجه يمينا بزاوية معينة ، وهذا يعمل ساترا وينتظر زميله . وتحدد لكل منـــهم مهمـــة : ماذا سيفعل بالضبط ، ومتي ، وإذا حدث شئ غير متوقع ، ماذا يفعل ، ومن أين يجـــئ العون . وتساءل أكثر من جندي : هل يلقون في روعنا ، بهذه الدقة المتناهية ، أن الأمـــر جاد ، حتى لا يزمزأ أحد .

استلقوا ذات مرة علي الرمال ، بعد العشاء ، وما زالت تبخ حـــرارة ، اختزنتـــها طوال النهار ، وحين هبت نسمات مـــن ناحيـــة مجـــاري الفيـــوم المائيـــة وبحيرتـــها

ومزروعاتها، سري فى أجسادهم المتعبة خدر لذيذ . قال زميل ، وهم من الإرهاق ، لـم يعلقوا علي مقولته :

– من يراهني .. لن تقوم الحرب .

يبسم سعد .. حين فار الدم فى عروقه ، وقد خف جسده ، وكاد يطير فوق صيحـة " الله أكبر " . ود وقتها لو يري الزميل المراهن .. وفيما بعد .. خفف مـن غلوائـه .. ولماذا .. وأنت نفسك لم تكن متأكدا . وحين يتذكر عناوين جرائد تلك الأيام ، يتصـاعد فوران النشوة فى عروقه .

قطعت الدول العربية النفط عن أوربا الغربية واليابان .

– الله أكبر .

البحرية المصرية تغلق مضيق باب المندب .

– الله أكبر

رفضت مطارات أوربا ، هبوط الطائرات الأمريكية ، التى تحمل عتـاداً حربيـا لإسرائيل ، لتزود بالوقود .

– الله أكبر

المسئولون الأمريكيون يصرحون ، أنهم سيبحثون عن بدائل للنفط مستقبلا .

لم يتوقعوا أن يحدث ما حدث . وهل كنت أنا فى الميدان ، رغم العلامات أمـامي ، أتوقع شيئا .. ؟!

غيروا القوارب التالفة والمثقوبة .. ألم تكن هذه علامة .. ؟!

عززوا الجبهة بالمدفعية الثقيلة .. ألم تكن هذه علامة ... ؟!

عبرت وحدة إلي سيناء وقضت العيد ، بين نقطتين حصينتين من خـط بـارليف ، وتم إمدادها بالتعيين والذخيرة ، بالقوارب .لا .. هذه ليست علامة .. لكن إشارة واضحـة لقرب العبور ، فكيف لم نتلقها ، أو يتلقها أحد .. ؟!

(١٤)

تخلل حمدي ظلال أشجار الكافور والجازورينا الباسقة ، وقد ألقت بها علي الرمال.

وصعد الربوة إلي بيته ، من دور واحد ، مبني بطوب أسمنتي ، بقي علي حاله دون بياض من الخارج .

رمي سترته فوق أول كرسي قابله . أخذ نفسا عميقا .. وأطلقه .. يالك من ساهٍ يا سعد . تعرف الرجل ولا أعرف .. تتركنا نذهب ، ونتكلم ، وخلال الحديث أكتشف أنكما صديقان قديمان . كيف مرت مرور الكرام حرارة اللقاء ، ولم تلفت نظري . لا داعي للوم نفسك . كان بالك مشغولاً بإنهاء ما حضرتما من أجله .. وكان قلبك تتسارع دقاته ، حين أتي إلي مجلسكما ، علي مصطبة أمام الدار ، تري منها فندق سمية . واعتزمت أن تزور الرجل ثانية . وعندما أخذكم الحديث ، صممت فى نفسك .. إذا زرت الرجل .. فمن أجله .. وليس من أجل شئ آخر .

سأل حمدي العجوز عن عائلة سمية . قلق عندما عرف النية ، والحديث يأخذ ويعطي ، قال محمد عايش :

– البنت ، مخطوبة ، أو شبه مخطوبة ، لشاب من الإسكندرية يعمل معها .. !!

دق قلب حمدي بعنف ، وقد أخذ علي غرة ، وبصعوبة استفهم :

– شبه مخطوبة .. ؟!

لا شئ رسميا بعد .. وأمها لا تمانع

فرك الرجل أصابع يديه ببعضها بعضاً ، وأصلح من وضع جمرات النار فوق المعسل ، وضرب بمبسم عاجي الملمس ، علي راحة يسراه السمراء المدبوغة ، في تأن، وقال :

– يبدو أن أمها تشجعه ..

انتظرا توضيحه . جذب نفسا عميقا من الدخان . توهج الجمـــر فـــوق الحجـــر ، وأحدث صوتا كطرقعات الملح الخشن إذا مسته نار ، وبان ألـــق فـــي عينـــي العجـــوز الضيقتين ..وشع وجهه المغضن . نفث الدخان علي مهل وقال :

- أفردت له حجرة فى بيتها ، يقيل فيها .. وكثيرا ما يتغدي عندها .

تناول فنجان قهوته ، وتلقائيا فعلا مثله ، وناول سعد المبسم ، وهو يقول :

- كل ما تطلبه المرأة .. أن يستقر فى العريش .. فهي لا تريد لبنتها الوحيـــدة أن تغادرها .

سحب حمدي كرسيا قاعدته قماشية ، استرخي عليه بجوار شباك مطل علي البحر. سرح ببصره . بينه وبين البحر شاطئ عريض ، رماله ناعمة . قرب المـــاء ثلـــة مـــن أشجار النخيل ، متضامة من أسفل ، كأنها نابعة من بعضها بعضا . تذكر ثلة مثلها فـــي قلب بيت عايش والجدار يفسح لها الطريق . وتخيل نفسه يعيش فى بيت مثله ، تطل عليه سعف النخيل ، وتتدلي سباطات البلح ، براعم خضراء .. يشاهد تحولها ، إلـــي اللـــون الأحمر ، أو الأصفر . بدت له نخيل الشاطئ وحيدة . كم استراح علي جذوعها ، حيـــن كان يهرب مع زملائه من قيظ المعسكر . وساعة العصاري ، يزقون أي باب ، من أبنية المصطافين ، المتناثرة علي الشاطئ . لا يعرفون لمن هي . وإن خمنوا أنها لعلية القوم . يستريحون بين جدرانها ، ينعمون بالاستلقاء علي حشايا أسرتها اللينة ، وبعد تعســـيلة ، يشطفون وجوههم . وعبثا يبحثون عن صابونة ، أو بقايا صابونة . يعـــدون نقودهـــم . ويكشفون عن رغبة دفينة لتذوق طعام مطبوخ . يذهبون لأحد مطاعم العريش . وحمـــدي يغسل يديه وجدها فرصة .. صابونة وحنفية . وضع رأسه تحت الحنفية ، غير آبه بمـــن قد يلاحظه ، لم ترغ الصابونة فى شعره ، مسح رأسه بسرعة فى فوطة معلقـــة . تلفـــت وهو يشعر بالخجل . عاد لمقعده . زميله الذي حل محله ، فعل مثله وعصته الصابونـــة . كتم ضحكته . دفعوا الحساب ، واقترح أن يذهبوا إلي البحر . يتقافزون بين الأمـــواج ، وبين وقت وآخر ، يغطس أحدهم بجسده ، ويدعك بيديه تحت إبطيه ، وبـــاقي جســـده ، محاولا إزالة العرق . يخرجون وقد علق الملح بأجسادهم .

أحس بخذلان فى أطرافه ، خشي أن يغفو .. ذهب إلي الحمام .. تناول صابونة من رف علوي . نزع غلافها . دقق فيه ، محاولا فك الرموز العبرية . ألقاه في سلة للنفايات تحت الحوض . فتح الحنفية وصبن رأسه ، ودعك بالرغاوي رأسه ووجهه .

تذكر أنه لم يأكل منذ الصباح . وجد فى المطبخ بقايا سمك بلطي ، أحضره بالأمس ، فوجئ به فى السوق . وأخبره البائع ، أنه لم يظهر فى البردويل من زمن بعيد. نزع رأس السمكة ، ليلقيها .. لحظ حبات من البطروخ عالقة بها .. مصمصها .. وهو يتحسر علي بلطي بحيرة المنزلة العامر بالبطارخ دائما .

كانت أسراب البلطي تخرج من المنزلة إلي البحر وتسبح باتجاه البردويل ، تضع بيضها في منتصف الطريق عند صخور ألما . وتأتي الذكور لتلقيحها . وإذا لحظت الأنثى بيضا غير ملقح ، أو فاسدا ، شفطته . ويبدو أن سمكته ما أن فعلت حتي وقعت فى شبكة صياد .

بعد الفقس ، يعود البلطي إلي موطنه فى بحيرة المنزلة . وبعضه يأنس فى نفسه قوة ، تمكنه من السباحة إلي بحيرة البردويل ، حيث نقاء مياهها . لكن .. يبدو أنه أحس، بما يقع للدنيس فى بحيرة البردويل ، طوال فترة وجود الإسرائيلين في سيناء ، فعزف عن الذهاب .

(15)

بينما يتفقد حمدي الزرع فى الأغوار ، لحظ ترابا أحمر ناعما ، غطي السـيقان . لحظ العمال السيناوية قلقا باديا علي وجهه . طمأنوه ألا خوف منه . وجوده يـدل علـي تربة جيدة . ما أن يأتي عليه ماء حتي يهبط ، ويتماسك ، مختلطا بالتربة .

قلب الأمر في رأسه . من أين يأتي بالماء . هل يرش الزرع ، وكيف ، وهو يعتمد علي الماء الجوفي . هل يسحبه إلي خزان ، ويوصله إلي خرطـوم رش . أم لا داعـي للتخوف كما قالوا . هل تتكفل الرطوبة به ، وعاجلا أو آجلا ، سوف يهبط إلي التربة .

أخرجه من أفكاره الفراش الذي ينظف بيته . أخـبره أن ضيفـا فـى انتظـاره . استفسره . علم أنها ضيفة .

من يا تري ..

هل قامت صفية ، أخيراً ، بمبادرة . أم تراها أحست بقـرون استشـعار خفيـة ، بسمية .. كانت تبقي حكاية . هل هي حميدة جلبانة . وصلتها وشاية بخصوص بنتها.لا.. حميدة لا تحضر .. كانت أرسلت فى استدعائه .

وصل إلي البيت . ما أن وضع المفتاح بالباب ، حتى وجدها واقفة أمامه . حمديـة. بحضورها ، وطيبتها ، وإقبالها . آخر من كان يتوقع . احتضنته قبل أن يفعل . وقبلتـه علي وجنتيه قبل أن يعي الموقف . تراجعت وقالت متصنعة الدهشة :

- كأنك غير مرحب بي .

- يا خبر ..

- مفاجأة .. !!

تمالك نفسه ، وقال :

- أجهز لقمة .. أم تشربين شايا أولا .

- استرح أنت وسأصنع الشاى .

وارب الشباك المطل علي الشاطئ .. تراءت له الموجات من بعيد .. كل تحـــاول ركوب الأخري ، دون زهق أو ملل . ما زالت فى انتظار موافقتي علي زواجـــها مـــن صفوت . تريدني كأب .

لا تود عمل شئ كهذا دون موافقتي . وسوف تسفه حجتي : معه دبلوم صنـــايع ، وأنت خريجة كلية ، بقولها : لم يعمل بالدبلوم وسيفتح محلا للحلم بالأكسسوجين . كيـف تقولين ، لا تهم درجة التعليم . المهم الشخصية . عندك .. خريجو كليـــات ، كثــيرون ، ولا يفهمون السماء من العماء . في هذه ، والله عندك حق . مديرنــــا الإداري ، خريـــج آداب لغة عربية ، يخطئ فى الإملاء ، ولست أدري ما الذي رماه علي الزراعة .

– الشاى .

تطلع إليها ، كأنه لم يرها ساعة أن حضرت .. عيناها باسمتان ، وجهــها النـــاعم الذي يفصح بشفافية غريبة ، عما يعتمل فى أعماقها ، يبعث فيه طمأنينة وراحة ، رغــم كل شئ .

– نورت يا حمدية .

بسخريتها ، التى تفعلها دوما ، بود مازح ، فلا تبدو جارحة :

– والنبي صحيح ..

– والله العظيم ..

– بكاش ..

رشف من كوبه ، وقد اعتزم ألا يقودهما الحديث إلي نفس ما اجتراه مـــراراً دون جدوي ، وفى كل مرة ينوي ذلك ويسوقه الحديث إلي مالا يريده . أزوجك سيد ســـيده . تضحك فى تؤدة ، وترمقه بنظراتها المازحة ، زوج نفسك . خائف عليك . خــف علــي نفسك . وعندما تطهق منه : يا سيدي .. أحبه ويحبني ، حياتى وأنا حرة فيها . ويتصاعد النقار .

تناولت كوبها بين راحتيها ، ولمعت عيناها السوداوان وقالت :

– ليس ما تفكر فيه

مستنجداً :

- اذن ماذا .. ؟!

- البيت .

رشف رشفة كبيرة . لسعه الشاى فى فمه ، بينما أردفت :

- على وشك السقوط

آه .. المشكل الأزلي . معهم قرار إزالة ، وعاجزون عن الحصول علي شقة جديدة ، في العمارات التي تقيمها الوحدة المحلية لمدينتهم . بعد التوزيع علي محاسيب كبار الموظفين ، ومحاسيب أعضاء مجلس الأنس ، الشعب ، وأعضاء الحزن الوطني ، الحزب الوطني ، لا يبقي شئ لأمثال حمدية وأمها .. ؟!

تعرف عجزي ، فلا أملك ما يسد أحد البطون الواسعة من السادة موزعي الأقدار .

آه .. سوف تمسكني من يدي التى توجعني. تتزوج وتترك أمها معي .. وسوف تعد بدعوتها للإقامة معها بعد فترة . الأم لا تستريح إلا عند بنتها ، وأنت مصيرك إلي زواج.. ومهما كانت زوجتك .. فلن تستريح معها .

- حاضر .. حاضر يا حمدية .

قطبت جبينها وقالت :

- وماذا تنتظر .. ؟!

قُطبت الجباه ، وعلت الشمس ، واختنق الجو ، والقارئ يردد فى رتابة :

" أعد الله لهم عذابا شديداً ، إنهم ساء ما كانوا يعملون ، اتخذوا أيمانهم جُنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مُهين ، لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون " .

بدأ المشيعون يسحبون أرجلهم .. وتلكأ بعض الأقارب ، وخاصته ، يترحمون علي والده .. أحس ، ولا يدري كيف بعيني حمدية تنغرسان فى رأسه ، التفت فطالعه وجهها، أومأت إليه ، فاقترب منها . همست :

- أعطيت الرجل أجرته

حاول أن ينزع نفسه من حزنه، وعصته الكلمات .

قالت فى لهجة سريعة مؤنبة :

- ماذا تنتظر ؟!

ناوله ما تيسر ، وإذا بالرجل يصدق بالله العظيم ، وبسم الله الرحمن الرحيم :

" هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، ومن دونهما جنتان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، مدهامتان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، فيهما عينان نضاختان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، فيهما فاكهة ونخل ورمان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، فيهن خيرات حسان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، حور مقصورات فى الخيام ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان فبأي آلاء ربكما تكذبان ، متكئين علي رفرف خضر وعبقري حسان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام".

صبرك عليّ .. نأكل لقمة أولا ..

- وبعد ..

- يفعل الله ما يشاء

قامت لتعد الطعام ، وهو يخبرها أن عندها كذا وكذا فى الثلاجة وكذا فى المطبخ.. اضطجع علي كرسيه ..

حار بماذا يجيبها .. خاصة إذا أصرت علي سفره معها لينهيا المشكل . وليست لديه واسطة .. أو معرفة .. وحتى لو وجد .. فهذه المسائل حبالها طويلة .. وإذا ذهب ليشرح الأمر لرئيس الوحدة المحلية .. فلمن تقرأ زبورك يا داود .. ؟!

هل يسافر معها ، والسلام .. لكن ماذا يقول لأمه ، وقد أمهلها المرة تلو المرة . وكيف يحصل علي شقة فى القطاع الخاص ، وخلو الرجل لن يقل عن عشرين أو ثلاثين ألف جنيه ، والإيجار الشهري يساوي راتبه وراتب حمدية معا . هل يكون الحل فى السفر للعمل بالخارج كما اقترحت صفية مرة . أتراها مترددة حيالي ، لأنني لم أشد عجلي ، وأسافر معها عندما جاءتها فرصة ، لتكوين قرش محترم ، ولأكون محرماً لها .

معك حق يا صفية . وعلي استعداد لأن أبصم لك بالعشرة . لكي أدخر خلواً ، يلزمني عشرون عاما ، وعلي فرض ، ألا أصرف قرشا واحدا من مرتبي . هل أخبر أمي بالحقيقة ، بدلا من التسويف ، والتعلق بالحبال الذائبة .

كان أول شئ فكر فيه ، بعد عودته من الأسر ، أن يذهب لزيارة أهل الهواري ، خيل إليه أن الشوارع ضاقت ، والميادين صغرت . ومع أن ذهابه كان بغيضا إلي نفسه، ولكن .. لابد أن يخبرهم أحد بالحقيقة ، وإلا ظلوا ، متعلقين بأوهام كاذبة .. شأنهم شأن أهالي المفقودين ، والذين لم تصلهم اخطارات رسمية عن استشهاد ابنائهم .

دلف من سوق الخواجات ، إلي شارع علي محمود طه . كان الهواري يفاخره دوماً بشيئين ، مكتبته العامرة ، وسكناه فى الدور الأرضي من بيت الشاعر علي محمود طه . وكثيرا ما شكَا له الهواري أن البيت آيل للسقوط وأنه لا يدري أين يذهب مع عائلته إذا سقط .

يضيق الشارع فى نصفه المؤدي إلي سوق الخواجات ، بعد تقاطعه مع شارع سيدي عبد القادر . وبيت الشاعر إلي يسار القادم من سوق الخواجات قبل التقاطع . طالعه بيت حديث البناء ، فى دوره الأرضي عدة محال . ذهب وجاء لعله يكون قد أخطأ. وبعد أن تغلب على خجله ، سأل عجوزا في محل بقالة فى مواجهة البيت .

- كما تري ..

- وجماعة الهواري

- عزلوا .

وقف برهة ، غير مستوعب الأمر. حانت منه التفاتة إلي إحدى المحال الجديدة . كان لمنجد أفرنجي .. وقد وضع الكارينة أمام المحل .. وصبيانه يعدونها للتنجيد .

اشتكوا من أرضية العنبر . أخذوهم إلي الخلاء ، حيث يجففون كومة من التبن فى الشمس . ولما كانت الكمية قليلة ، سرعان ما تعاركوا ، كل يود أن يحظي بقليل يضعه تحت جنبه ، تقيه ، رطوبة الأسمنت ، والحفر والقلقزة . تخاطفوا التبن ، والحراس يصخبون ويضحكون وعندماجري أحد الأسري ، وقد ظن أنه استأثر ببعض التبن ، عاجلته رصاصة فى فخذه ، أو قدمه ، فيجلس مكانه .

وضعت الطعام أمامه . أحس بنفسه عزوفا . لم يستجب له ، خشية أن تفسره بما يجرحها . بعد الغداء ، اعتراهما خمول . لم يكادا يستسلمان له، حتى طنت ذبابة .

قامت خلفها مطاردة بفوطة . وارب الشيش ، ليتيح لها أن تغور ، وحمدية تحاول القضاء عليها ، بضربة مباغتة ، دون جدوي ؟

خارج المستشفي الميداني ، الذي أقاموه علي عجل ، من الخشب ، فى جانب من معسكر الأسري ، قعدوا فوق نجيلة مهملة . طنت ذبابة .. أعقبتها أخري .. فأخري . تسرب بعضهم إلي قاعة المستشفي وفى أثرهم حمدي ، لكن الذباب لم يعتقهم . لوح حمدي بيده فى عصبية ، فاصطدمت بمريض اسرائيلي علي سرير إلي جواره ، برطم مهدداً .

– ليس غريباً علي من يطلقون النار كالهبل .

– إنها الحرب ... !

– يكون الموقع قد سقط .

جاء ممرض اسرائيلي وهش الذباب بفوطة فى يده ، ماراً بالأسرة علي الجانبين . لمح عدة ذبابات إلي يمينه علي الحائط ، هوي عليها بشدة . أصابها فلمعت عيناه .

– يموت جنود دون داع .

– ... ...

– فعلتم ذلك مع الفلسطينيين ، ليتركوا قراهم .. لكن ما جدواه معنا فى سيناء ..؟!

رفع المريض رأسه قليلا ، ووضع تحتها مخدة إضافية ، وقال :

– اعتقلتم اليهود وعذبتموهم .

– تقصد أيام نوري السعيد فى العراق ، والملك فاروق فى مصر ، كنا محتلين من بريطانيا .

وتساءل حمدي . هل تم ذلك ، بضغط من البريطانيين ، لإرغام اليهود علي الرحيل إلي اسرائيل ، وللتخلص من اليهود الشيوعيين الذين طالبوا برحيل القوات البريطانية عن مصر فى مظاهرات الطلبة والعمال يوم ٢١ فبراير ١٩٤٦ واضطرت بريطانيا إلي سحب قواتها من أنحاء مصر وركزتها فى قاعدة قناة السويس .

أم أن الحكومة المصرية فى عام ١٩٤٨ ، وقد ضايقها أن بعض اليهود المصريين شيوعيون ، وقد دفعوا مع زملائهم العمال فى شبرا الخيمة والمحلة الكبري إلي

الإضراب، لزيادة أجورهم ، أرادت التخلص منهم . لو كان ذلك قصد الحكومة ، فقد جاء نقبها علي شونة . كسب البريطانيون برحيل اليهود الصهاينة إلي اسرائيل ، وخسرت الحكومة برفض اليهود الشيوعيين ، ليس مغادرة مصر ، بل مغادرة معتقل الهاكستب ، وظلوا متضامنين مع باقي زملائهم من الشيوعيين المصريين ، ثمانية شهور ، حتي طردوهم من مصر .

وانبثق سؤال فى رأس حمدي :.. لكن لماذا تركت القوات البريطانية المعسكرة فى قناة السويس الجيش المصري يعبر سيناء إلي فلسطين ؟! .

حطت ذبابات أخري علي الحائط . باغتها الممرض . أفلتت إلي أعلي وإلي الخلف. استدار بعصبية ملاحقا . ظن أنها فى متناول فوطته ، ضرب بشدة ، فزاغت . أخذ يهوي بالفوطة فى هذا الجانب وفي ذاك الاتجاه ، وقد جحظت عيناه ، ونضح جبينه بالعرق ، وكاد يتعثر فى أرجل الأسرة ، أكثر من مرة ، وفي الجالسين أرضا ، ويختل توازنه .

برطم بالعبرية وقد انقلبت سحنته . أغلق باب القاعة ونوافذها ، وفتح باب دورة المياه في صدر القاعة.أخذ يهش الذباب فى اتجاهها . ناوله ممرض آخر بخاخة رش مبيد. وعندما أيقن أنه حصر الذباب داخل الدورة ، دخل وأغلق الباب خلفه .

– وماذا عن رئيسكم عبد الناصر .. ؟!

أحس حمدي بزنقه . نهض ونقر باب الدورة . بعد قليل خرج الممرض .

أثناء حرب ٥٦ ، اعتقل عبد الناصر مواطني مصر من اليهود ، وكان الشيوعيون من اليهود المصريين ، الذين سبق طردهم من مصر ، قد أصدروا بيانات بتأييده ، واستنكروا العدوان الإسرائيلي البريطاني الفرنسي علي مصر . وأبلغ أحدهم من فرنسا، هنري كورييل،عبد الناصر قبيل العدوان بخطة الجيش الفرنسي فى حرب ٥٦ . ورغم ذلك لم يفرج عبد الناصر ، إلا عمن قبل مغادرة مصر .

وقعت عينا حمدي ، علي بقع دم قمينة تلوث الحيطان . فتح شباك دورة المياه حتى لا يختنق . مشي وهو فاقد للإتزان . تساند علي شبابيك الأسرة . أسرع جندي لمساعدته علي الجلوس . هز رأسه رافضاً ، فأخذه إلي خارج العنبر ، جلس إلي أفريز بجواره .

عاد الجندي يحمل كوبين من الشاى ، أعطاه واحداً . لفت نظر حمدي ، أنه يرتدي بنطلونا أسود ، وقميصا أبيض ، ويضع غطاء رأس أسود . ربما من الشرطة المحلية ، ولعله في زيارة لأحد أقربائه . ابتسم الجندي مشجعا ليشرب الشاى الذي عافته نفسه . طالعته سحنة سمراء ، بها بقع أكثر دكنة كبعض أبناء الحارات فى مصر .

تناول رشفة من الشاى ، حتى لا يكسفه . لدهشته ، وجده شايا حقيقيا ، فخمن أنه أحضره من مقصف المعسكر ، أو من مطعم الحراس .

ها قد جادت الظروف بكوب من الشاى ، طالما هفت نفسه إليه ، بدلا من الشاي الذي يحضرونه لهم . ماء فاتر ، ماسخ ، لونه مثل اللون الذي يكتسبه الماء عندما ينقع فيه الحذّاءون جلد النعال . مدد قدميه علي النجيلة . تقافزت بالقرب منه بعض العصافير .. تحرك رؤوسها بسرعة .. ترفرف علي ارتفاع منخفض وتحط ثانية .. اقتربت من سور الأسلاك الشائكة ، الذي يحيط بالمعسكر .. سرعان ما رفرفت بأجنحتها .. وطارت فى الفضاء الرحب .

ردد فى ذهنه مقطع شعري ، سمعه من فؤاد حداد فى معتقل واحة الخارجة : ملكني .. ملكني البراح ..

(١٦)

الشتلات انتصبت ..

رقص قلبه من الفرحة .

أمسك نفسه ، حتى لا تتمادي ، وتساءل ..

أهو انتصاب الراحة فى التربة ، وامتداد الجذور إلي الماء ..

أم هي الصحوة قبل الذبول ، وهو الانتصاب قبل الانكسار .

أصبر قليلا .. وسوف تري ..

لا . لقد انتصبت هكذا بالقرب من القناة . الأرض تشبه الأرض . تشبه .. ؟!..

إنها امتداد لها ، وما القناة إلا عارض ، وياله من عارض . كثيراً ما ارتاحت نفسه، وهو يتأمل زرقة مياهها ، يحف بها السلام والدعة . وصفاء السماء ، يحنو عليها. ولا ينسي منظر مراكب العالم ، يراها وهو قادم من بعيد فى اتجاه القناة ..

كم من المصريين نفقوا وهو يشقون هذه القناة .. وكم ينفقون الآن وهم يحرسونها.

انتصبت الشتلات .. ولم تعبأ بالقذائف ، المتبادلة ، عبر القناة ، تحاول أن تطول المتخندقين خلف السواتر الترابية والرملية ، علي الضفتين .

بغته ، تحول القصف المتبادل ، إلي قصفة هائلة ، قام بها ما يقرب من ألف مدفع، جعلت من المستحيل علي أي شخص أن يرفع رأسه فى الضفة الشرقية ، أو يطل من أي مزغل للرؤية .

وعقد ديان ، الذي عاد وزيراً للدفاع ، مؤتمراً صحفيا . كان جهما ، وأعلن أنه لابد من القيام بانسحاب كبير إلي عمق سيناء . وواجهه الصحفيون بما تردد عن انهيار جونين قائد جبهة سيناء . اكتفي بالقول أن الموقف صعب .

وحين التقي هنري كيسنجر ، وزير الخارجية الأمريكي ، اللواء محمد عبد الغني الجمسي ، بعد الحرب ، قال كيسنجر ضاحكا :

- هل تعلم أين تلقيت خبر اندلاع الحرب .. ؟!

ابتسم الجمسي وقال :

- في عربتك ، وسط زحام نيويورك .

- حتى هذه " جنرال " .. ؟!

فالجمسي ، كرئيس للعمليات ، لم يدرس فقط حركة المياه في القناة من مد وجزر ، لاختيار أنسب الأوقات لنزول القوارب المطاطية المحملة بالجنود ، ولم يختر الساعة الثانية بعد الظهر ، ليخالف الموعد التقليدي للهجوم مع أول ضوء . كان الأهم من ذلك ، أين سيكون كيسنجر .. ؟! عندما يصله النبأ .. قدر أن تكون نيويورك قد تخطت منتصف الليل ، ويكون كيسنجر قد غادر البيت الأبيض فى واشنطن ، فى طريقه إلي بيته ، في نيويورك ، وحين يصله الخبر ، ستكون عربته فى إحدي شوارعها المزدحمة . وهذا لن يمكنه من العودة سريعا إلي البيت الأبيض .

وحتي يتصل بوزارة الدفاع ، وحتي يقيمون الموقف .. ستمضي عدة ساعات .. الجيش المصري فى حاجة إليها ، ليكمل عبوره . وعندما يصلون إلي اتخاذ اجراء ، يكون الليل قد دخل فى مصر ، والنهار طلع في أمريكا . وحين يكون الضباط الأمريكيون فى الحمامات ، تكمل الدبابات المصرية عبورها ويتربس الجيش المصري في سيناء .

وعندما علم الأمريكيون أن ديان اقترح انسحاباً كبيراً إلي عمق سيناء ، فرملوا انسحابه ، وأرسلوا ببعض كبار ضباطهم لحث الإسرائيليين علي التماسك ، وشجعوهم علي القيام بهجوم مضاد ، وصنعوا جسراً جوياً حمل إلي العريش دبابات وطائرات لم تستخدم من قبل ..

ورغم إحساس حمدي ، بما أحس به الناس من فرح ، إلا أنه كان في قرار نفسه .. يحس بغبن ما .. هل قدره أن يشارك فى حربي ٥٦ ، ٦٧ .. حيث الهزائم .. ولا يشارك في حرب ٧٣ حيث النصر .. أي قدر هذا .. ؟!

سأل عن سعد الدري ، فأخبروه أنه لم يحضر اليوم . ألقي نظرة علي الأغوار القريبة .. أطل فى الخص الذي اعتاد أن يشرب الشاي فيه . لا أثر له .. والعربة

مركونة في جانب. هَمّ بسؤال ندا ، لكنه تراجع . هكذا أنت يا سـعد .. عندمـا يريـدك المرء، حتي لمصلحتك ، لا يجدك . أُرسل له محمد عايش مبكراً ، فاغتسـل سـريعا ، وذهب إليه . كان الهواء منعشا فى الصباح ، وبحر العريش ، شفاف الاخضرار ، تتدلـل مياهه علي ألسنة الشاطئ . استقبله عايش منتصبا بقامته القصـيرة المتينـة . اذن فقـد استعاد عافيته . وأسفرت غضون وجهه عن ابتسامة مرحبة . نفس الابتسامة ، حين رأي الشتلات قد اشتدت عند ضفة القناة ، لم يشأ ساعتها أن يشرح له ما فعله. قلّم الزوائـد ، وأبقي علي الساق من زرع الوادي ، وعليها فقط فرع مقلم من شتلة سيناء .

قال عايش :

– علي وشك أن تزهر .

ربت حمدي بيمناه علي كتفه البعيد وأودع ظهره فى صدره وقال :

– عما قريب تذوق ثمارها .

أشار عايش إلي سيناء ، حيث المواقع الإسرائيلية :

– يا هناء من يعش .. !!

أدرك حمدي من بشاشته ، أن وساطته قد نجحت . سأل :

– وافقوا .. ؟

هز رأسه بالإيجاب ، وصفق فحضرت صينية الشاى

قال حمدي :

– بقي لنا طلب بسيط

تطلع عايش إليه ، وقد ضاقت حدقتاه . استمر حمدي :

– أنت والد العريس

خفض عايش بصره ، وقد اغرورقت عيناه الصغيرتان . أردف حمـدي ، كأنمـا يستدرك شيئاً فاته :

– بل والدنا جميعا .

ركن حمدي فى الخص الذي يتناولون فيه الشاى . مهما غرب سعد وشرق ، لـن يغيب كثيرا عن ندا . فوجئ بها تدخل وقد حملت صينية الشاى . كاد أن يقول ، هذا مـا

أردته وفي هذه الساعة بالذات . وغبط فى سره سعداً عليها . تناول منها الصينيـــة ، وإذا بسعد أمامه . رفع ناظريه فى دهشة . جلجلت ضحكة سعد ، أغلب الظن، مُتوها ، حتـــى لا يسأله عن غيابه . قال :

- حماتي تحبني .

ما زال حمدي مأخوذا ، من توقيت حضوره ، وتساءل .. تري .. هل لمحته نـــدا قادما من بعيد .. .. فأعدت الصينية . قال سعد :

- تبحث عني .. ؟!

لم يغادر حمدي ، ضيقه ، من عدم تواجده ، لحظة أن أراده ، فقال :

- لأ تملى بالرؤية .. !!

جلجلت ضحكة سعد ثانية ، مفوتة عليه غرضه ، وانسحبت نـــدا ، متيحـــةً لـــهما الفرصة للكلام . ناوله سعد لفة فى ورق جرائد ، سرعان ما فاحت منها رائحة شـــواء سمك .

- رشوة ..

- كفي بالله عليك .. طمنني ..

أثرت فيه لهجته ، فذهب غضبه وقال :

- أدع لعايش .

قفز سعد طائراً وغادر الخص . هز حمدي رأسه فى أسى .. لم تتح له الظـــروف قبلاً مرة واحدة شكره . سمع باسمه أول مرة من صفوت صبور . والمرة الثانية ، حيـــن كان يمشي فى الأرض قلقا ، يتفحص الزرع . لحظه قائد الموقع الذي يزرع أرضه إلـــي جواره ، فأسر له بحاجته إلي شتلات لوز من سيناء . تفكر القائد قليلا ، وقال :

- ستري .. حين يحضر محمد عايش

ظنه يسخر منه . هل يحدثه حقا وهو المشغول بتـــأمين ، قواتـــه ، فـــى الطـــرق والمدقات الوعرة ، إلي مواقع الإسرائيليين .

سأل وهو يدقق فى عينيه :

- الدليل ..

- نعم

ويبدو أن القائد ، لمح تساؤلا شاكا ، عالقا فى وجهه ، فأردف :

- إذا لم يتمكن .. عندنا أدلاء آخرون .

عندئذ زال شكه ، وتأكد من جدية القائد . وتأكد أكثر ، حين أرسل فى طلبه ، وأخبره أن يسرع للقاء صفوت صبور ، قبل انتهاء موعد تصريحه بالغياب عن وحدته ، وأن عنده من يود لقاءه . ووصف له بيته فى الاسماعيلية ، أسرعت دقات قلبه وخمن أنه لا شك محمد عايش ، وأنه لابد قد أحضر ما طلبه . وعندما وصل إلي البيت ، كانا قد غادرا . استقبلته صفية وعلم منها أنهم رقوها علي درجة خالية فى جهاز المحاسبات بالمنصورة ، وأنها غالبا تقضي الخميس والجمعة فى الإسماعيلية . ولا يدري لماذا ذكرته بشجرة الأكاسيا . هل لأنها هيفاء ، كجذعها ، أم لأن شعرها تدلي فيما يشبه الضفائر ، كثيرة ومتنوعة ، غطت رقبتها كفروع الشجرة الرفيعة ، ذات الأوراق الصغيرة ، تهمس حين تتخللها الريح .

لم تبد حياءً كاذباً ، وتعتذر عن استقباله . رحبت به فى تحفظ ، وأحضرت لفة فى ورق جرائد ، أطلت أجزاء من جذورها النابتة فى تربة متماسكة بالكاد ، من جهة ، وأطلت ذؤ.اباتها من جهة أخري . نقل بصره بين طلعتها المشرقة ، وبين ما تحمله ، وأسعفه النطق :

- محمد عايش .. ؟!

هزت رأسها ، وانحنت تضع اللفة علي ترابيزة واطئة ، عن كراسي الطقم الأسيوطي ، فبانت معالم ثدييها ، لينة ، حانية ، لبنية ، مشربة بالسمرة .

استأذنت ، كأنما ترفقاً به ، لتحضر له شيئا يشربه . اعتذر ، واعداً بالحضور مرة أخري ، حين يكون صفوت موجوداً.جاء صوتها ، في نعومة ودفء فروة قطة :

- تشرف .

شكرها ، فأردفت :

- الريس عايش يود معرفة النتيجة .

أولته ظهرها ، تقوده إلي الباب . خمن تحت الثوب ردفين أثيثين .

هل عايش الذي يود معرفة النتيجة ، أم هي التي تود أن تعرف .. أو بالأحرى تود له أن يتصل .. أم لا هذا ولا ذاك ..

انساب صوت راديو علي البعد .. أنا قلبي إليك ميال .. يا سلام يا فايزة

غادر ، مغمغما ، ولم يستطع التملي في العينين . حملها سلامه لصفوت ، قبل أن يمد يده بالسلام .

أنزله الباص بالقرب من الطريق المؤدية إلي الأرض . انتظر مرور سيارة عسكرية تأخذه في طريقها . بعد قليل خشي علي ما يحمل ، من شمس أخذت تسخو بما لديها . أحاط اللفة بيمينه ضاما إياها إلي صدره ، محاذرا انفراط التربة المحيطة بالجذور والملفوفة بقش أرز أصفر ، وحانيا بجذعه ، حتي لا تري الأشعة ما ظهر من الجذور .

توكل مشيا علي قدميه ، وقد خففت من وحشته ، بضعة من أشجار النخيل ، تناثرت في الجنبات ، وهذه أكاسيا إن لم يخني النظر ، ود لو يستريح في ظلها قليلا . خاف من الكسل ، وأن تسخو الشمس أكثر ، فواصل المسير ، وهو يستشعر ، رغم البعد ، نسمات طرية ، تتساب من بين فروع الأكاسيا . وحين عبق الجو برائحة زهور الفواكه أيقن أنه اقترب من منطقة الحدائق . ما ضر لو ركن قليلا .

حط طائر زاهي الألوان في حجم العصفور ، بين الأشجار .. ولم يلبث أن حط بجواره طائر آخر .. رمادي اللون أكبر قليلا .. خطر ممسكا في منقاره زهوراً بنفسجية وحمراء .. ذكَّر طائر العريش ، فيما يبدو .. والأنثي لا تطاوعه .. طار .. وحين عاد كان في منقاره زهور من الياسمين ، بأوراقها البيضاء الدقيقة .

مشيت الأنثي في دلال .. وعندما طار ثانية ، لم تتبعه ..

سرعان ما عاود ، وفي منقاره ، عيدان خضراء .. خطر أمامها .. يلوح بما في منقاره ، وعاود الطيران . رفرفت بجناحيها في تكاسل ، وبعد قليل حلقت في اتجاهه .

أخذ حمدي يتخيل شكل العريش ، وقد ازدان بزهور حمراء وبنفسجية ، وبالياسمين والعيدان الخضراء .. والأنثي تتبخطر ، في المدخل بألوانها الزاهية ، تتأمل تنسيق العريش ، فإذا أعجبها ، دخلت ...

(١٧)

سار علي قدميه ، فى الطريق المسفلت ، الذي يحد العريش من الشرق . اقترب من مزرعة الزيتون ، إلي يساره ، يظاهره البحر ، تتسم عبق الشجر ، وقد فعلت فيه شمس الضحى ، وحمله هواء التباب الرملية من الجنوب والشرق .

لم تمكنه المرأة من لمس ثمرة ، جاعلة بينه وبينهما مسافة . عليه فقط أن يشير . كانت من الخفة ، بحيث خيل إليه أنها بمجرد وضع راحتها تحت الثمرة ، تسقط وحدها . ذكرته بخفة ندا ، لكن شتان ، فهذه نحيفة ، تائهة داخل جلبابها الأسود .حاول مساومتها . هزت رأسها فى رفض ، لا يخلو من رقة ، فمد يده بالثمن الذي طلبته.

دفع بابا خشبيا بجوار المزرعة ، فأحدثت مفصلاته صريرا ، وناول الجردل لأحد العمال . أفرغ الثمار فى غربال من السلك ، دون أن يصغي لكلامه ، أنها منتقاة ، وليست بها واحدة معطوبة . غمر الغربال فى حوض به ماء ، عدة مرات ، ووضعه تحت رشاش من الماء . ناوله لعامل آ خر ، دلق الزيتون فى طاحونة حجرية ، أدارها بكلتا يديه ، محاذرا أن تتكسر النواة . حمل الثمار المهروسة إلي أبراش ، أغلب الظن ، مجدولة من الحلفا . رص الأبراش فوق بعضها بعضا ، لكبسها بمكبس ، لا يعرف ، إن كان حجريا ، أو معدنيا ، فسماره لا يُبين .

صرّت مفصلة الباب ، فالتفت بسرعة ، ظانا الباشمهندس استغيبه ، فجاه . رأي من فرجة الباب " خيال مآته " بين أشجار الزيتون ، ذكره بخيال المآته ذي الدوائر السوداء ، الذي كان الإسرائيليون يطلقون عليه الرصاص ، فوق الساتر الترابي .

فى الثامنة مساء السابع من أكتوبر ، علموا أن فجوة أمامهم فى الساتر الترابي تسمح بعبور الدبابات . كانوا حتي هذه الساعة لم يتعرضوا لمعاكسة جدية من الإسرائيليين ، مما أثار الهواجس فى نفوسهم . ركبوا الدبابات ، كانت دبابته التاسعة ،

فى فصيلته المؤلفة من عشر دبابات . وجدوا الطريق المؤدية إلي المعبر مشغولة بالقوات. لجأوا إلي الطريق الاحتياطية ، كما أخبروهم فى التدريب .

وسرعان ما جاءتهم أوامر بالإنتشار . بعد نصف ساعة ، قامت دبابة بالاستطلاع.

علموا أن الدبابات الإسرائيلية قصفت المعبر ، وأن برطومتين من مكوناته ، وقفتا علي جنبيهما .

زأرت المدفعية المصرية فى منطقة المعبر ، فخمنوا أنها تغطي تقدم المهندسين لإصلاح المعبر . ورأوا عربة المهندسين تقترب بظهرها من حافة القناة ، لتسقط القطعتين المطلوبتين فى الماء . بعد ما يقرب من عشرين دقيقة ، أبلغوا أن الكوبري تم إصلاحه . تقدمت السرية . سمع سعد فى اللاسلكي.الهلمت علي أذنيه ، وفاتح علي الخارج ليكون فى الصورة . سمع أن دبابتين من دباباتهم علي الضفة الشرقية ، أصيبتا بصاروخين . وكأنه لم يسمع شيئا ، لم يبلغ أفراد باقي الفصيلة ، حتي لا تضعف روحهم المعنوية . وباقي الدبابات تتقدم ، طلب منهم عقيد شرطة عسكرية ، أن ينتظروا قليلا ، وسمح لكتيبة من الدفاع الجوي أن تتقدم أولا .

– يا أفندم سنتأخر عن موعدنا .

علموا أن معبرا آخر أصيب ، وجاءت قواته لتعبر من هذا المعبر ، وعبور هذه الكتيبة ضروري قبلهم . تحملوا الانتظار وأعصابهم تحترق . خرج سعد من الدبابة و مداريا فى جنبها أشعل سيجارة ، كور راحتيه حول شعلتها . فالأوامر تقضي بمنع أي إشارات أو ضوء ، خاصة والليل دخل . باستثناء ضابط الشرطة العسكرية ، الذي يمسك عصا تشع ضوءً من مقدمتها ، لمدة ثوان ، ويتغير لونه تبعا لنوع القوات التي يشير إليها، لتأخذ دورها في العبور . ويقف إلي جواره ضابط مهندس ، مستعد لأي طاريء .

أشار لهم الضابط بالتقدم ، أطفأ سعد سيجارته بسرعة ، وقفز إلي دبابته ، وقعت الدبابة التى خلفه فى حفرة ، أحدثتها قذيفة زنه ألف رطل . طلب قائد الفصيلة من سعد ، وكان ساعتها ، قائد دبابته ، أن يعود ليسحبها فرفض .

– نفذ الأمر .

– آسف .. توجد نجدة في الجيش ، تأتي وتسحبها .

وذكره بقول قائد الكتيبة : أنت وحدة مستقلة ، ولا يشغلك أي شئ عن الحرب .

– نفذ الأمر .. أنا مسئول الفصيلة .

– مهمتي أحارب فقط

غادر الملازم أول الدبابة ، وركب دبابة أخري ، وذهب لسحب الدبابة الواقعة ، بينما تقدم سعد بدبابته ، لم يستطع الملازم جر الدبابة ، وتعطلت دبابتان . عندما وصل سعد إلي المعبر ، كانت باقي الفصيلة قد عبرت . أخروه قليلا ، قبل أن يسمحوا له بالعبور .

قذيفة مباشرة حطمت برطومة . تقدم المهندسون لإصلاحها ، وارتد سعد بدبابته إلي الخلف ، محاولاً الاحتماء فى إحدي نتوءات الأرض . رجع المهندسون بسرعة . اسرائيلي خلف مدفع نصف بوصه ، يطلق من أحد حصون خط بارليف المطلة علي المعبر . وجهت المدفعية المصرية قذائفها إلي مصدر النيران ، وعاد المهندسون إلي عملهم .

تقدم سعد بدبابته شرقا ، فلم يعثر لباقي الفصيلة علي أثر ، تقدم عدة كيلو مترات دون جدوي . سعد ينادي باللاسلكي علي قيادة السرية ، علي قيادة الكتيبة ، علي قيادة اللواء .. صمت تام . خشى أن يرسل أي إشارة ضوئية ، خوفا من صواريخ ومدفعية العدو . لا يدري كم أحرق من السجاتر ، وعندما تعب من النداء ، أعطي الهلمت لزميله، وقال له أن يستمر في النداء . عند منتصف الليل ، رد قائد السرية ، فطلب منه سعد أن يحدد موقعه .

– لا .. أطلق أنت طلقة حمراء .

أطلق ما أراد ، وقال :

– حدد موقعك يا أفندم .

– لا .. سأطلق طلقتين بيضاوين ، متتابعتين ، اعرف مكاني واحضر فورا .

تحرك سعد بأقصي سرعة ، فور رؤية الطلقة الأولي ، ليكون قبل الثانية هناك .

وجدناهم جهزوا لنا مكانا . أعطونا الكواريك لعمل مهجع للدبابة ، وتمويهها جيدا ، استعداداً للصباح وقد توقع الجميع أن تكون معركة شرسة .

أعطي سعد تماماً لقائد السرية بما حدث من ضابط الفصيلة ، فقال :

– طول عمره هكذا .

عُين سعد وسائق دبابة أخري خدمةً لما بقي من الليل ، فأسرعا لأخذ قسط من الراحة ، قبل النوبة وأخذ يراجع موقفه من الضابط .

وجد نفسه علي حق .

والآن لا يجب أن أفكر في شئ .. لقد عبرنا وانتهي الأمر ، وليحدث ما يحدث .

رفع العامل رأسه أخيرا . وضع الزيت فى برميل به ماء ، ليفصل الشوائب العالقة به . طلب منه وعاءً ، ناوله جركنا بلاستيكيا . فتح العامل صنبورا علويا فى البرميل . نزل الزيت رائقا ، صافيا ، كأنه ماء من الذهب . وزحزح بإحدي قدميه جردلاً بجانب البرميل ، وفتح صنبوراً سفليا ، فتدفق الماء.

نقط من الماء فوق صفحة وجهه . هب من النوم وهو لا يدري كيف غلبه النعاس. والمُعمر يضحك ، بينما يدوي القصف المدفعي والصاروخي . انتفض سعد مسرعا ، وزحف مع المعمر تحت دبابته ، وكذا فعل باقي الزملاء . نظر سعد إلي ساعته علي وميض القصف . الرابعة والنصف ، والشظايا تتناثر حولهم . جاءه صوت قائد السرية ضاحكا فى الهلمت :

– يقصفون حصون خط بارليف ، ظناً منهم أننا نبيت داخلها .

أخبرهم سعد بما سمعه ، فانطلقت ضحكاتهم ، تدفع بعض الدفء فى أجسادهم ، وشيئا من المرح فى نفوسهم ، فى رطوبة البكور .

حاولوا الدخول إلي الدبابات . كلما هموا تناثرت حولهم الشظايا ، وطلقات المدافع. نظروا فى وجوه بعضهم بعضا . لابد من الدخول ، فربما صدر الأمر بالتحرك.

مد سعد يده لرفع شبكة التمويه . لم يكد يلمسها ، وإذا بصاروخ ٢٤٠ مللي يمر بجواره . انبطح أرضاً فورا . تتبع بعينيه الصاروخ ، الذي يشبه طائرة صغيرة ، خمن أنه فى طريقه لحصن الفردان .

سمع فى اللاسلكي أن لواءً مدرعاً للإسرائيليين يتقدم فى اتجاههم . وقد أرسل مفرزة للأمام لجس النبض . أمرهم قائد السرية بالاستعداد للتعامل معها .

فى امح البصر كانوا داخل الدبابات .لا يدرون كيف حدث هـــذا رغـم الشـظايا والقنابل . وأخذت فصيلته مواقع للقصف ، وتحسر سعد .. نحن تسع دبابات .. آه لو كنـا إحدي عشرة دبابة ، لزادت كثافة النيران .

أعد المعمر الدانات بجواره ، وحشا مدفعه ، فغياب الضابط جعله يقـــوم بمـــهمتي المعمر والقاذف معا . ونادي أفراد فصيلته فى اللاسلكي :

– يا جماعة .. نريد الطلقة بدبابة .. رجاء ألا تهيف طلقة واحدة .

دمروا سبع دبابات ، وانسحبت خمس . هم تشكيلهم اثنتا عشرة دبابة فى الفصيلة .

أعطي قائد سريتهم تماما لقائد الكتيبة ، وسرعان ما جاءهم صوته مهنئا ، فقد كـان يراقب الضرب من مكمنه .

وبينما يأخذون أماكن استعداد جديدة ، فوجئوا بدبابـــات فصيلـــة أخـــري تشـتعل بالنيران. كانوا علي بطن تبة . آه . فى الموقع الخاطئ . كان ينبغي أن تكون التبة ساترا لهم بدلا من اعتلائها . رآها العدو فرصة فالتهمهم . بقيت ثلاث دبابـــات . صـــدر لـــهم الأمر بإصلاح موقفهم .

أذنا سعد علي اللاسلكي ، وهو لا يدري كيف سيمر النهار . ســـمع قـــائد الكتيبـــة ينادي قائد اللواء :

– سيادة العميد جورج ، أعلم أنك معلمي ، بعد اذن سيادتك ، العدو ثبت نيراناً فـــي الأمام وسوف يتقدم من الجنبين .

– .. شكراً يا ممدوح .

ومن أين يوجعك . تقدمت دبابات اللواء كلها ، وصنعت منطقة قتل للعدو المتقـدم . انتظروهم ، حتي تقدموا بثقة ، وقد ظنوا أن النيران التى ثبتوها فى الأمـــام ، ســـتجعلهم يرجحون أن هذه طريق الهجوم الرئيسية . سمعوا طلقات مكتومة ، فأدركوا أن الدبابـات فى مواجهة بعضها بعضا .

أبصر سعد أمامه ، فى مساحة لا تتجاوز كيلو متراً مربعا ، أكثر من ثلاثين دبابـــة للجانبين ، تتبارز بالمدافع . طلب قائد السرية من فصيلة سعد أن تلزم أماكنها ولا تشترك فى القتال ، وأن تراقب الموقف ، وأي دبابة اسرائيلية تنجو ، وتحاول المـــرور وســط

خطوطهم ، يدمرونها فورا . بعض أفراد يطيحون بأبراج الدبابات ويقفزون هربـــا مـــن النار المشتعلة ، فأطلقوا عليهم قذائف ش ف الخاصة بالأفراد . لمح سعد دبابـــة بـــاتون تقترب من جنبه الأيمن ..

رتب المعمر القذائف إلي جواره . وضع قذيفة ش ف المضـــــادة للأفـــراد ، فـــي متناوله ، ليعالجهم بها ، لو خرج طقمها من البرج بعد القصف ، وتردد .. هـــل يقذفـــها بقذيفة خارقة للدرع ، تحيله إلي عجينه . خشي إن فعل ذلك ، أن يعطيَ فرصة للأفـــراد، للقفز منها ، قبل أن ينالهم ، وقد يحدثون اضطرابا بين فصيلته . توكل ، وعمر مدفعـــه بقذيفة " سابو " التي تنفذ من الدرع وتعربد في الداخل ، فلا تعطيهم أي فرصة .

انتظر حتي أصبحت الدبابة في جيبه .

شاهدها تشتعل ، ومدفعها عيار ١١٠ مللي يلتوي كعود من البوص

نصف ساعة ، من تصادم الصلب الرهيب . وعندما جاء المساء ، أعلنـــهم قـــائد الكتيبة ، أنه تم أسر قائد اللواء المهاجم . أغلب دبابات اللواء تم تدميرها ، وبقيت عـــدة دبابات سليمة ، أسروا أطقمها ، وطلب القائد تدبير عدة أفراد ، لتوصيلهم إلي المؤخـــرة في الغرب .

ودفنوا جثث العدو خشية التعفن والأوبئة .

دفع سعد الباب برفق ، فلم يحدث صريرا .

عبقته رائحة أشجار الزيتون . إحداها أطلت بفروعها ، فوق سور أبيض لا يصـــل إلي نصف قامته . أمسك بغصن .

(١٨)

عبثت أصابع حمدي بلفة السمك . أحس فجأة بالجوع . سعد .. وقد التقـــي نـــدا ، ينسي نفسه . وهو يقشر السمك ، طالعته بعض العناوين . لفتت إحداها نظـــره . " حمـــد بهي الدين " يعالج فى مستشفي البحرية الأمريكية .

ذات صباح فى الأسر ، فوجئوا ، بصفحتين معلقتين ، علي باب المعســـكر مـــن الداخل . الصفحتان منتزعتان من مجلة " صور الأسبوع " المصرية ، وبـــهما مقـــال لـــ " حمد بهي الدين " تجمع الأسري ، بفضول شديد ، فمنذ أسرهم ، لم يطالعوا صحيفة أو مجلة مصرية .

أرجع الكاتب ، سبب هزيمة حرب ٦٧ ، إلي الفـــارق الحضـــاري بيـــن مصـــر واسرائيل .

انصرفنا ، والسؤال يلح علينا :

– لماذا هذا المقال بالذات .. ؟!

وعلق أحد الزملاء :

– علقوه لأن فيه مصلحة لنا ..

خطر فى باله الهواري . ترحم عليه . كان معجبا بالكاتب .. لو كان معنا ، ربمـــا فاز هذه المرة ، وقتها ، علي ما يذكر حمدي ، كان معجبا بالمقـــال ، فالكـــاتب يســـوق حججه بترتيب مقنع . ومن المنطقي أن يهزم المتحضر المتخلف . ولكن هل تســـتطيع أن تجيبني يا هواري .. كيف انتصر علينا الهكسوس ، وكانوا بدوا رعاة .. ؟! وكنا ســـادة العالم القديم كله . أتراك تقول :

" امتلكوا وسيلة واحدة ، تفوقوا بها علينا . العربة الحربية ، وكـــانوا قـــد عرفـــوا الحصان ، دبابة ذلك الزمان ، قبلنا . وعندما عرفناهما طردناهم من بلادنا " .

لكن .. ماذا امتلك الإسرائيليون فى عام ٤٨ وتفوقوا به علي العرب ... ؟!

هل هو سلاح الهدنة التى يفرضها مجلس الأمن علي العرب ، بمـــؤازرة أمريكـــا وبريطانيا . كلما أوشك العرب علي دحر الإسرائيليين .. والغريب أن يوشك العرب علي ذلك رغم عدم استعدادهم ، ففي مصر ، كان النقراشي رئيس الوزراء ، لا يريد دخـــول الحرب ، فمعابر الجيش علي قناة السويس ، يحرسها البريطـــانيون ، المعســكرون فـــى قاعدتهم بالقناة ، ويستطيعون تهديد امداداته فى أي وقت . وكان الجيش يتسلح بدبابـــات قديمة وعربات تم إصلاحها بقطع غيار من وكالة البلح بروض الفرج ، وأثناء المعـــارك كانت تتوقف المحركات ، لضعف البطاريات . أما عن خبرة الجيش بالحرب الحديثـــة ، فهو لم يدخل أي معركة منذ الحرب فى أفريقيا أيام الخديو إســماعيل ، وتشــرف علـــي تدريبه وتسليحه بعثة انجليزية من قوات الاحتلال .. !!

لكن اجتماعا مفاجئا ، عقده الملك فاروق مـــع الرؤســاء العــرب فـــى مزرعتـــه بأنشاص، لم يحضره أي مسئول مصري ، ولا حتي رئيس الوزراء ، صدر بعده الأمـــر بدخول الحرب .. !!

وصلت القوات المصرية إلي أشدود فى الشمال وإلي بئر سبع ، وبيت لحـــم فـــى الشرق ، وهكذا شطرت شمال اسرائيل عن جنوبها ، واستولت القوات الأردنيـــة علـــي ضفة نهر الأردن الغربية ، وعلي اللد والرملة ، وأصبح العراقيون وباقي القوات العربيـة علي مشارف تل أفيف (تل أبيب) .

هدنة ...

التزم العرب بوقف القتال ، وانتهز الإسرائيليون الفرصة .. حصلوا علي أســـلحة جديدة ، وانتزعوا أحد المواقع ، وسارعوا بإبلاغ مندوب الهدنة أن الموقع تابع لهم ..

هدنة ..

أغار الإسرائيليون علي قوافل الإمداد والتموين ، وذبحوا رجالها حيـــث تســـليحهم بسيط .

هدنة ..

حاصر الإسرائيليون اللد والرملة ، فانسحب منها الجيش الأردني الذي يقوده الانجليزي جلوب دون قتال .. !!

الآن أستطيع أن أفحمك يا هواري ، وأقول لك ، لماذا احتفوا بهذا المقال . . أيستغرق منك الأمر ما يقرب من عشرين عاما .. حتى تفهم سبب تعليق مقال .. وضحك ساخرا من نفسه . الفجوة الحضارية ستظل بيننا قائمة ، نحن دولة تسمي بالنامية .. نموها بطئ ، وهم دولة تسمي عصرية .. نموها سريع .. أي ستظل الهزيمة مكتوبة علينا ..

لكن لماذا هم أكثر تقدما منا .. هل عدد المتعلمين عندهم أكثر .. ؟ .. إن عدد طلبة الجامعات عندنا يوازي عدد سكان اسرائيل تقريبا .. وعندنا علماء مشهورون .. أحد علماء برنامج هبوط الأمريكان علي القمر مصري .. أحسن طبيب قلب فى انجلترا مصري .. أين الخلل اذن .. ؟! .. هل هو فى توظيف قدراتنا ..

نفض يمناه إلي أعلي وقد انغرست فيها شوكةسلسلة ظهر سمكة . كاد يقضي علي نصيب سعد . لفه بيسراه ، ونهض ليبحث عن ماء ، يشطف يده ، خاصة ، وقد انبثقت قطرة من الدم حينما نزع الشوكة . داعيا الله فى سره ، ألا يحدث تلوث ، فلا توجد مستشفي ، أو صيدلية ، قريبة من مكانه .

أخذ حمدي وزميل له ، أحد العاملين فى المطبخ إلي العيادة . احترق ذراعه من هبة نار من الموقد . قعدوا علي دكة ، أمامهم ترابيزة خشبية ، فى انتظار الممرض الإسرائيلي . انحني الزميل . تفحص أسفل الترابيزة وهما ينهيانه ، ليكف عن فضوله . اعتدل وقال :

– قطعة من شنبر مستعرضه ، بين القائم والقرصة ، عندنا ..

قاطعاه :

– اسكت يا نجار الغبراء

ضحكوا ، وقد ركنوا علي الترابيزة بأكواعهم . فانثني قائماها ، فى مواجهتهم ، وسقطوا علي الأرض . غضب الممرض . طلب من الحارس أن يعود بهم إلي العنبر . لفا الذراع المحترق بخرقة منتزعة من كمه .

بعد إغلاق العنابر فى المساء ، أحس عامل المطبخ بألم شديد . تحســـس حمـــدي ذراعه ، فاقشعر جسده بويده تمر فوق فقاقيع مائية . نادي الزملاء . تخبطوا فى الظـــلام فى الطريق إلي الباب وخبطوا بأكفهم . صاح الحارس بلهجة فلسطينية .

– ماذا تريد يا أخا " الشرموطة " .

– مريض

– فى الصباح

عاودا الخبط علي الباب . سرعان ما حضر الضابط النوبتجي ومعـــه حارســـان . سلط أحدهما كشاف ضوء قويا داخل العنبر . صاح الحارس ذو اللهجة الفلسطينية :

– وينو (أين) فرج أخته المريض .

رفع المريض ذراعه المحترق . فجأة انقطع التيار الكهربي .

دفعوا المريض داخل العنبر وأغلقوا الباب . وانطلقت طلقات الرصـــــاص بشـــكل محموم ، واخترقت بعضها الجدران الخشبية ، فانبطحوا جميعا علي الأرض .

حين عاد التيار ، بعدما يقرب من ساعة ، عاودا الخبـــط علـــي البـــاب ، أجـــاب الحارس ، بقذف قطع من الحجارة فوق سطح العنبر ، سرعان ما تتدحرج ، فوق الصاج المخروطي المضلع إلي الأرض .

في الصباح سمحوا لزميل واحد باصطحابه إلي العيادة . وعندما عاد وحده ، التفوا حوله يسألونه عن حال زميلهم . أراهم قطعة من السلك ، تخلفت عـــن إصـــلاح عطـــل الأمس ، تحسس مقدمتها بباطن العقلة الأولي من سبابة يمناه . لامـــس ، ثلاثـــة فـــروع عارية ، أطلت من غلافها البلاستيكي وقال :

– عندنا لا نضع حزمة السلك أقل من خمسة فروع

انفجر حمدي فى غيظ :

– لا نسألك عن هذا .

لمح ندا وسعد قادمين ، أومأ لسعد ناحية الخص . لحظت نـــدا يديـــه ، فأســـرعت لإحضار ماء إليه . جفف يديه فى منديله ، ومشي بعيدا عن الخص .. طالعتـــه أشـــجار اليوسفي ، علي تلال غير متساوية فى الإرتفاع ، وخلفها بالقرب من الشـــاطئ ، تمـــايل

سعف النخيل ، لاحت له النخيل في الواطئ ، فبانت براعم البلح وقد بـدأت تميـل مـن الاخضرار إلي الاحمرار ، والجدائل الحاملة بدأت تميل إلي الاصفرار .

وتساءل : أين الجمال .. ؟!

كان رجال الهجانة ، يربطون جمالهم إلي جذوع النخيل . ينتظر حمدي وزمـلاؤه حتي ينصرفوا ، ثم يركنون علي جذوع النخيل وقد امتدت سـيقانهم أمامـهم ، يتـأملون البحر . وحين يحسون بتنميل في أجسادهم ، ينهضون في تكاسل ، ويدفعون باب أقـرب " فيلا " إليهم ، لم تكن مسكوكة . فليس فيها ما يُخشي عليه .. ثم مـن الـذي سـيحضر هنا .. ؟! كان من يعبر قناة السويس يحتاج إلي تصريح خاص ، فسـيناء كلـها منطقـة عسكرية . ورحلات التلاميذ إلي غزة تفتش في جمرك القنطرة شرق.

يرقدون علي الأسرة ، العارية من الملاءات ، يريحون جنوبهم من نومـة الخيـام العسكرية علي الأرض . وهم يغادرون .. يضحكون .. ويتندرون .. آه .. لـو رآهـم عقيد، أو عميد ممن اعتادوا الاصطياف هنا ..

لاك ذهنه ما يتردد في الصحافة هذه الأيام . لا يوجد عداء أبدي . لماذا لا تقولونها صراحة ، أنه لا داعي للاستمرار في عداء اسرائيل . لو لـم يكـن عـداء المصرييـن للهكسوس ، أبديا ، هل كانوا طردوهم من الوجه البحري ، بعد أن مكثوا فيه ، ما يقـرب من ثلاثمئة عام .. ؟!

تُري .. هل كان كتاب هذا الزمن ، يُنادون ألا نكون همجا .. ونشن الهجمات علي الهكسوس ، وعلينا ، كمتحضرين .. أن نكتفي فقط بالكلام والأخذ والرد ..

أحس فجأة أنه مزنوق . أسرع رغما عنه ينادي سعدا ، ليأخذه إلي بيته .

ينهض في الصباح ، ويكون مزنوقا ، إلا أنه يتحايل علي نفسه . في هـذا الوقـت تكون دورة المياه ممتلئة . في جانب من المعسكر ، حفروا حفرة مستطيلة ، وضعوا علي جانبيها ألواح من الخشب . بكل جانب عشر عيون . وحين حضرهم الشتاء ، سـوروها بصاج مضلع فحجبت من بداخلها عن العيون في الخارج . ولكن ، ظل الهواء يسف مـن تحت الصاج فترتعش أجسادهم ، ويعوقهم ، مع المطر الـذي يـهطل فـوق رؤوسـهم، فينهضون في ضيق .

كان حمدي ينتظر حتي الضحي ، ومع ذلك يجد من فعل مثله .. فيدخل وأمره لله.. يجلس فى جانب.. محاولا أن يغفل عما حوله ..

ينتبه فجأة علي من يجلس علي العين قبالته . يضع يديه أمام عورتـــه، ومحـــاذرا النظر فى عيني من يواجهه ، وسارحا بقدر الإمكان ، حتي لا يري عورتـــه ، أو يــراه وهو يفعل . ينظف بورقة من شيكارة قديمـــة ، أو ورقـــة منتزعـــة مـــن إحدىالعلـــب الكرتونية في المطبخ ، بعد أن يحيلها إلي رقائق .

ولم يكن له حيلة مع قدميه العاريتين . كثيرون أصيبوا بإسهال .. ودوســـنطاريا .. وأبلغوا الصليب الأحمر بذلك . بعدها حضر ممرض ووزع عليهم حبوبا زرقاء ، علمـــوا أنها لمقاومة الدوسنطاريا . ولم يستجيبوا لطلبهم توصيل المياه إلي المراحيض .

طلبوا مقابلة مندوب الصليب الأحمر .

فوجئ حمدي بالعربة تقف خلفه ، انتفض وقال :

– فى عرض النبي زَمَزْ .

ركب بسرعة إلي جوار سعد . لمح طائر الرفراف ، بلونه الـــذي لا يبيـــن مـــن السماء، لولا بقع سوداء علي رأسه ، واقفاً فى الجـــو كالـــهليكوبتر ، محركـــا أجنحتـــه بسرعة. عادة يفعل ذلك عند البحر ، حتي يلمح سمكة فينقض عليها . تري .. لماذا يفعـل ذلك بعيداً عن البحر .. ؟!

(١٩)

دقات عجلي علي الباب فى البكور . تمطي حمدي ، مصـــدرا صوتــا ، يطـــارد الوخم. وإزاء إلحاح الطارق ، فرك عينيه ، ومشي إلي الباب .. اللهم اجعله خيرا .

– من طرف محمد عايش .

– تفضل ..

اعتذر الطارق عن الدخول ، وأبلغه أن محمد عايش ، أصيـــب بقـــئ وإســـهال ، ويستسمحونه فى العربة ، لتنقله إلي المستشفي .

– لحظة واحدة .

أسرع إلي تشطيف وجهه .. كيف أتصل بسعد الأن . ليـــس عنـــده تليفـــون فـــي الاستراحة .

إذا ذهبا مشيا .. قد يستغيبوننا .. دس قدميه فى بنطلونه .. مبني المحافظة قريب.. هناك ألتقط أي سائق معرفة ..

سارا ، وهو يقنع نفسه ، أنه بالتأكيد سوف يتصرف .

قئ وإسهال ، وضع يده علي قورته . جفلت يده من شدة الحرارة . ســـأله الأب ، بصوت ضعيف ألمه :

– مرتفعة .

لم يستطعْ النطق .

بصوت متهج :

– خذني بسرعة إلي مكتب الصحة

زاد ارتجاف جسده ، وتحاشي حمدي النظر إلي عينيه . فهو يعلم ، أن الناس عنـــد أي اشتباه ، يسرعون بالمشتبه به إلي مكتب الصحة ، أوْ إلي أقرب مستشـــفي . ولـــم

يسبق أن سمعوا عن عودة أحد . وبالأمس تناثر من أفواه الجيران أن رجـــال الشـــرطة حفروا حفرة كبيرة عند المقابر ، رشوها بالجير الحي . وضعوا فيها الجثث ، وغطوهـــا بالجير ، قبل أن يردموها بالتراب .

واليوم قبل العصر بقليل ، فور خروجه من مدرسته الابتدائية ، وبينما يسير بحـذاء السور ، صاح فيه الناس أن ابتعد . ارتبك وهو يغادر الطوار . لحظ شـــخصاً ممدداً ، مغطي بورق الجرائد .

نهنهت أمه ، ولم تفلح محاولتها في التماسك ، تشنقت وجهـــها ورأســـها بطرحـــة سوداء شفيفة ، لكن حمدي زام معترضا علي ملازمتهما .

اتكأ أبوه علي ذراعه .. مرا بالسوق ، كانت الشرطة تقلب كثـــيرا مـــن عربـــات الخضروات والفاكهة وتعدمها .

كاد حمدي يتعثر ، وقد ازداد اتكاء والده عليه . أتراها .. بسيطة ويعـــود بـــه .. ويعود الرجل الذي كان .. مدرس إلزامي .. حازم النظرات .. والذي لم يغفر له اللحـــن أثناء درس المطالعة .. فتكونت عنده سليقة تميز الصواب من الخطأ ، حتي دون أن يعـي السبب .

وكان يلتقط ما يحضره من جرائد ومجلات ، ويراجع في سره ما تعلمه ليســـتوثق بنفسه .. ولم ينتبه إلي أنه قد أصبح مدمناً لها .

وهل تعود الأيام ، التي يغسلون فيها ، الخضروات والفاكهة بالماء البـــارد ، دون سلقها ، ودون نقعها في الماء ، وإضافة البرمنجنات التي تصبغه باللون الأحمر . ومتـــي يشرب من الحنفية، دون أن يغلي الماء .

في مكتب الصحة ، طب قلبه ، والطبيب يفحص أباه . وحين رفع رأسه ، أسرعت دقات قلبه ، وأحس بجفاف لسانه . شيئا فشيئا ، نشعت عينا الطبيب بابتســـامة دافئـــة ، وقال:

- اطمئن يا حاج .. نزلة برد .

رفع الأب رأسه ، وتملي حمدي في عيني الطبيب ، ليتأكد أن كلماته لا تعني غـــير معانيها الظاهرة . ووسع هذا من ابتسامته وقال :

- لا تقلق .

تبادل حمدي مع أبيه ، نظرات مفعمة بالفرح ،غير مصدقين ، النجاة من سطوة المرض اللعين . أردف الطبيب :

- الكوليرا ، ضعيفة جدا .. عصير الليمون أو الخل ، يقتلها .. وقليل من الرطوبة يقضي عليها .

ولما كانوا فى أواخر الصيف ، فقد تطلع الجميع ، لقدوم الخريف .. أو لتغير درجة الحرارة ، وهم علي أبوابه .

عس بعينيه أمام باب المحافظة ، وهو يرجو أن تكون نزلة برد خفيفة ، وتعش يا عم عايش وتأخذ غيرها .

فجأة .. اقتربت عربة مسرعة منه ، قبل أن يقفز جانبا ، توقف السائق .

- لا مؤاخذة يا باشمهندس

- ألم تر سعدا

- خير أي خدمة ..

- عم عايش تعبان .

لم يدعه يكمل ، واستمهله لحظة . قفز من العربة ، وأسر لموظف الاستعلامات فى مدخل المبنى كلمتين وعاد مسرعا :

- تحت أمرك .

عند بيت عايش ، وجد سعداً ، راكناً بعربته فى جانب . ظنه علم بالأمر وسبقه . لكن هذا بادره بالقول ، أن رسولاً من المحافظة بيت عليه ليحضر مبكرا ، للمشاركة فى نقل وفد من الطلبة ، لزيارة معالم سيناء .

وحانت منه التفاته ، إلي الطلبه المتجمعين ، أمام الفندق المقابل علي الشاطئ .. المشرف يحاول صفهم فى طابور . وهم لا يهاودون بسهولة .

أخذه والده فى الصباح الباكر إلي المدرسة الابتدائية عند الكوبري السفلي ، ليدخلا مبكراً قبل الزحام . لدهشتهما وجد طوابير ممتدة من الرجال والنساء ، وبعضهم أمسك بأذرع الأطفال والصبية ، الذين كانوا يتملصون في محاولة للإفلات ، والهرب فى

الحوش ، الذي كثيرا ما لعب فيه الاستغماء ، والمساكة ، وشاهد مباريات كرة القدم بين مدرسته والمدارس الأخري قبل عامين . وامتدت الطوابير عبر البوابة الحديدية ، محاذية سور المدرسة ، وسور المدرسة المجاورة ، حتي نهاية الشارع . وحين اقترب طابوره، لفتت نظره رخامة بيضاء في السور ، عليها نقش رمادي تأسست عام ١٨٣٥ م . عفق أبوه ذراعه بشدة ، وفي الداخل شمر كمه عن أحد ذراعيه. لكن الممرضة قالت يكفي الجزء الأول من الساعد . غرست الإبرة فوق الرسغ بقليل .

جز حمدي علي أسنانه وكلبش بيده الأخري في جذع أبيه . ظل مكان الحقن وارما لمدة أسبوع . ومكبرات الصوت تطوف الشوارع ، تحض الناس علي التطعيم ضد الكوليرا .

قال الطبيب :

– نزلة معوية بسيطة .

وكتب علاجا ، وأوصاه بالدفء ، وتناول المشروبات الساخنة .

تركه أمام باب بيته ، ولم يلتفت لإلحاحه عليه بالدخول . أوقف عربة أجرة بالنفر، ونزل بالقرب من غور قريب من جرادة . مشي بحذائه ، وهو يتأمل شجيرات الخوخ . إياك أن تفعلها يا عايش ، قبل أن تتذوق ما زرعناه من خوخ . مثل عايش لا يفعلها بسهولة ، وأنه متين البنيان مثل زملائه من أبناء الجيل السابق . أكلوا السمن البلدي بالملعقة ، وزلطوا البيض المسلوق دون حساب . بخلاف الجيل الحالي الذي أصغي لتحذيرات تناول السمن والسمين ، وبيضة واحدة في الأسبوع كما أفتي الأنجليز ، حتي لا تتجلط الدماء في العروق . هل كانوا أحسن صحة من الجيل الحالي .. طبعا توجد نماذج عائشة ، الواحد منهم زي الفلق .. لكن .. كم مات بجوارهم في سن صغيره ، ولم يسمع عنهم أحد شيئا ، أو عن سبب موتهم .

وهل حقا يأكل الإنجليزي بيضة واحدة في الأسبوع .. ؟!

أخبرهم عمه، الذي كان يعمل ميكانيكا بمعسكرات الإنجليز في التل الكبير ، عما يتقوله الناس في القرين التي يقطنها بالقرب من التل الكبير ، أن الكوليرا جاءت من معسكرات الإنجليز . بعض المقاولين ، اشتروا بقايا أطعمة الإنجليز ، وباعوها للفلاحين،

وكانت ملوثة . منعت الحكومة الناس هناك من تناول أي شئ من الإنجليز ، ومنعت التجار من نقل بلح نخيل هذه المنطقة ، إلي مناطق أخري ، وأعدمت ما جُمع منه .

وأكد العم أنه ترك العمل عندهم ، وكثيرون فعلوا مثله ، وإذا لحقه المرض ، فالأفضل أن يموت فى مدينته المنصورة ، بدلا أن يموت فى معسكرات الإنجليز .

كانت أغلب البيوت ، وقتها ، تغلق أبوابها من المغرب ، والناس تخشي المسير فى الشوارع ، محاذرة من الموت المتربص في جنباتها . ولم يوجد شارع أو حارة خلت من الموتي ، ومع ذلك لم تُقم أي سرادقات لتلقي العزاء ، ولم تجتمع النساء للنوح والبكاء والتعديد .

ولطفت الطبيعة بالناس ، فأتي الخريف مبكرا .. ولم تكد الناس ، تسترد أنفاسها وتتشهد .. كان حمدي يجلس علي عتبة بيته العالية ، مدليا قدميه ، وموليا ظهره للفسحة، وقد أعطته أمه طبقا به ملح خشن ، وسكينا . خبط الطبق بالسكين، فخشخشن الملح وتناثر بعضه ، وهو يقول :

- يا بركة رمضان لا تطلعي من الدار .

- يا بندق أول وجديد .. يومنا الوقفة وبكرة العيد .

وإذا ما عاكسه أحد الصبية ، عاجله :

- بكره العيد ونعيد ونذبحك يا شيخ سيد

وإذا بالأب يحضر وقد اربدت سحنته . جلس قبالة الأم في الفسحة ، التي رددت بصوت خفيض :

- خير .. اللهم اجعله خيرا

قال الأب :

- اليهود فى غزة ، خطفوا امرأة حاملا ، وبقروا بطنها .

خبطت الأم صدرها ، وشهقت :

- يا مصيبتي .. !

توقف حمدي عن الدق ، سحب قدميه والتفت إلي الداخل . سمع أخاه الكبير يسأل:

- وماذا فعل الإنجليز الموجودون فى فلسطين ..

رد الأب :

- انجليز ... هه . قري كاملة .. شبع اليهود فيها ذبحا وتقتيلا ..

عاد الأخ يسأل :

- والإنجليز .. ؟!

قال الأب :

- أذن من طين وأخري من عجين .. !!

قام الأب ليفتح الراديو ، الموضوع علي رف خشبي معلق بالحائط إلي يساره .

أدار المؤشر إلي إحدي المحطات الأجنبية وهو يقول :

- لا أفهم ، لماذا يثير اليهود ضجة حول فلسطين ، وهل هم فى حاجة لينشدوا " فى العام القادم سنذهب إلي القدس "

وسأل الأخ :

- هل منعهم أحد

- يا بني قطار العريش يقوم يوميا من محطة مصر إلي القدس .

عاد بالمؤشر إلي محطة مصر ، ليتأكد مما يتناقله الناس ، أن الجيش المصري فى طريقه إلي فلسطين . لم يكن موعد نشره الأنباء قد جاء ، وانساب صوت عبد الوهاب :

- أخي .. جرد حسامك من غمده .. فليس له بعد أن يغمدا .

صعد الجنود الساتر الترابي ، شاكي السلاح . نزلوا بسرعة من الاتجاه الآخر . انتشروا ، ليلتفوا حول الحصن المواجه . لكن .. مدفع مكنة ، من فتحة ضيقة ، أطلق النار بغزارة ، جعلت من المستحيل الاقتراب منه .

تساقط الجنود كالحمام ، يصيبه رشق البنادق ، وزنت الشمس فوقهم .

فجأة ، اختفي الرصاص . بسرعة البرق ، أحاطوا بالحصن واقتحموه . لم يدركوا ما حدث إلا فيما بعد . أحدهم زحف ، حتي أسفل فتحة المدفع ، وسدها بجسده .

حامت الطائرات ، وألقت بحمولتها فوق متسلقي الساتر الترابي . كلما أحدثت فجوة بينهم ، رتقتها الجموع المتسلقة .

ومن بعيد ، انطلقت ، بشكل مخيف ، قذائف المدفعية ، لضرب تجمعات الجند في الضفة الغربية ، وتساقطت بعضها فوق المراكب المطاطية العابرة في مياه القناة ، وتصاعدت تلال من الماء . أشار بعض الجند إلي حمدي ، ليداري نفسه ، خلف أي ساتر . أسرع للاحتماء بباطن ترعة جافة ، بالقرب من مزرعته . أصمت أذنيه القذائف ، فأحاط رأسه بذراعيه ليخفف من الدوي . خُيل إليه أن الفتحات في وجهه انفجرت وانبثق منها الدم . هدأ القصف قليلا . تحسس وجهه ، وهو يتساءل .. هل يئس الإسرائيليون .. ؟! .. جاءه الجواب بقصفات مركزة .. أصابت بعضها أماكن تجمعات ، غادرها الجند منذ قليل .. وأصابت بعضها جنداً علي وشك التحرك . أعقب ذلك هدوء مشوب بالتوتر.

فتح عينيه في رقدته علي أحد جانبيه وقد ضم ركبتيه إلي بطنه . رأي عشا للدبابير في نتوء من جانب الترعة أمامه . أقراص شمعية ذات عيون مسدسة ، متجهة فتحاتها إلي أسفل . تدلت منها بعض اليرقات المعلقة من مؤخراتها . ولمح طوابير من النمل . رفرفت الدبابير ، بسرعة محمومة ، وانخفضت للقضاء علي النمل . كلما حدثت فجوة في أحد الطوابير ، سدها النمل الزاحف في الحال .. دون تردد .. ودون أن يحيد عن طريقه .. ينقطع الخيط حينا .. ثم لا يلبث أن يلتئم .. سائرا ، في تؤدة .. إلي اليرقات المعلقة .. الدبابير تكثف هجومها .. والنمل .. عائد ببعض اليرقات تترقص بين كلاباته الدقيقة .. كفت الدبابير عن ملاحقتها . ووجهت جهدها إلي طوابير جديدة ، في الطريق إلي عش الدبابير .

(٢٠)

فتحت الأم الباب وقالت :

– بنت حلال

– خذي أولا .

تناولت منها شنطة الخضروات ، وقالت :

– حمدي أرسل زجاجتين من زيت الزيتون ، مع مرسال سيأتي ثانيـــة عصـــرا ، حضري له بعض الملابس ؛ واكتبي له كلمتين .

سمعنا فرقعة .

أسرعت حمدية إلي الشرفة ، فوجدت من سبقتها ، من ستات البيوت وقد تنـــاثرت تعليقاتهن .

– الشرطة تحاصر التجار فى شارع بورسعيد .

– ثانية

– هذه المرة تصدى التجار وأطلقوا الرصاص .

– في عز النهار .

– لن يتركوا قماشا بملايين الجنيهات .

أفرغت الأم الشنطة من الخضروات فى المطبخ ، ورجتها ألا تنزل ثانية ، فلابـــد أن عربات الأمن المركزي تقف فى ميدان الشيخ حسنين ، وتقطع المرور حتـــي تنتـــهي الحملة.

– لا تخافي .

دق جرس التليفون ، طويلا . أسرعت حمدية ، وهي تقول :

– " ترنك " يا ماما .

بالفعل كان شقيقها فى ألمانيا علي التليفون . بعد السلام والسؤال ، قال :

- ها .. فكرت
- في ماذا
- لن نعيده ، احضري ، وسأجزيك أضعاف أضعاف مرتبك .
- يفتح الله .
- بالله عليك ، ماذا تفعلين عندك .. ؟
- وماذا تفعل أنت .. ؟!
- ...
- وأمك .. ؟
- حمدي عندك
- حمدي الذي يقوم بنفسه بالعافية، سيقوم بأمه .
- طيب فكري .
وضعت السماعة غاضبة ، وأمها تؤنبها ، لأنها لم تناولها لها .
- الخط انقطع .
وبرطمت وهي فى طريقها إلي حجرتها .. يظهر كل الرجال من طينـــة واحـــدة . اقترح صفوت تأجير حجرتين مفروشتين ، فنبهته أنهما لن تسعهما مع ا لأم ، فقــال: حمدي وحيد وهو أولي بها . ردت قاطبة : هذا آخر ما كنت أنتظره منك . وخشية مـــن تصاعد غضبها ، استدرك : يا ستي علي الأقل فى الشهور الأولي .
أخذت حمدية الشنطة ، والأم تلح فى عدم نزولها .
- اطمئني ، زمان الزوبعة انتهت .
وسرعان ما جاءت التعليقات من الشبابيك والشرفات .
- لماذا سمحوا باستيراد القماش .
- لتصنيعه ، لا لبيعه .
- التجار يدفعون ، ويهربونه من بورسعيد .
- وهنا وحياتك سيدفعون .. فهم يكسبون ذهبا من بيعه خاما .
- لماذا يصدعون رؤوسنا ؟!

ويعود التجار إلي محالهم بالزغاريد ، ولا يمضي وقت طويل ، حتي يظهر القماش الخام من جديد ، يباع في حراسة البلطيجة . وتشكو الحكومة علي صفحات الجرائد ، من تفشي العنف ، وتحث علي علاج لظاهرة البلطجية .

كانت الساعة قد تعدت الثانية بعد الظهر بقليل ، ذهبت حمدية لتدلي بصوتها ، بعد خروجها من العمل . علمت أن الانتخابات ماشية آخر تمام . قالت فى نفسها : الحكومة صدقت هذه المرة . فجأة جاء مرشح حزب الحكومة ، نزل من عربته ، يحف به بعض البلطجية ، وقد شهروا الجنازير والخناجر والعصي ، أحاطوا باللجنة . وجاءت فى أعقابهم عربة ، نزل منها أحد ضباط أمن الدولة . حاول أحد مندوبي الأحزاب الاعتراض . صاح فيه الضابط :

- يا روح أمك منك له .. لا أريد أحدا هنا .

وانهال عليهم البلطجية ضربا ، وحملت عربة الشرطة بعضهم إلي القسم .

اعتزمت ، أن تمر علي كواء يعمل سمساراً بشارع سندوب ، وعدها بمحل فى نفس الشارع ، لعلها توفق وتكتب ذلك لحمدي . وبالمرة ، تلحق بالسوق الذي ينصب في ميدان الشيخ حسنين ، في هذا اليوم ، الثلاثاء ، قبل أن تنصرف الفلاحات ، حيث بضاعتهن طازجة ، وأرخص .

أخبرها السمسار عن المبلغ المطلوب . حاولت زحزحته . أشار إلي المحال علي جانبي الشارع ، وقال :

- بأضعاف ما عرضته عليك .

مشيت تطالع المحال ، كانت بها مصانع صغيرة ، تصنع قماشا شعبيا ، دمور وبطسطه ، ودبلان ، وشرابات ، وفانلات وطواقي قطنية ، بيضاء ، وملونة . وتحولت إلي تجارة البقالة ، وأخري مخازن لتجار شارع بورسعيد ، وبعضها هدمت بيوتها ، وكانت قديمة ، وقامت مكانها عمارات سكنية حديثة ، أسفلها محال حلوي ، ومقاه ، ومحال تجارية ، وصيدليات . دخلت إلي الحارات المتفرعة، لعلها تجد شيئا فى حارة جانبية ، أو في زاوية مهملة . أغلب المحال هنا ، احتلها ميكانيكية السيارات ، والعربات

أمامهم على قارعة الطريق ، تناثرت أحشاؤها ، والصبية ينظفونها في أوعية من الصاج ملأى بالنفط ، وباقي المحال تبيع دهان السيارات ، أو قطع غيارها .

عرجت يساراً من شارع سندوب ، عند التقاطع ، إلي شارع بورسعيد ، وقد غلبها الفضول . أدهشها الهدوء وقد عاد إلي الشارع ، وكأن شيئا لم يكن .

اقتربت من ميدان الشيخ حسنين ، حيث البائعات ، افترشن جوانب الميدان ، ومطلع شارعي السلخانة وسندوب ، ببضاعتهن من الجبن القريش والقديم والمورتة والبيض والسمن البلدي والطيور من دجاج بلدي وحمام ، وخضروات .. طماطم وجرجير وفجل ..

ذهبت لامرأة ، تعودت أن تأخذ منها البيض ، تجلس على رصيف صيدلية بالميدان، تتركها تنقي حبات البيض ، فهي وأمها تفضلان مذاق البيض الفلاحي ، عن مذاق بيض البقالين المصفوف في الكراتين ، رغم كبر حجمه .

– بكم

– لا يغلي عليك .

لا تراوغي يا امرأة ، أعرف أنك تستلقطين بعضه بسعر التراب .

لمحت بنت الهواري الكبيرة ، وقد تدثرت بمعطف حائل اللون . أعطت علبة سمن فارغة ، ملأي بالبيض ، لامرأة جالسة غير بعيد عنها . ودارت نفسها في مدخل الصيدلية، حتي تعد المرأة البيض ، وتجهز الثمن .

لكزت حمدي في ذراعه فانتبه . أمسك عن الخطو ، وتراجعا ، بينما كانت المراة تناولها النقود . وانصرفت بسرعة ، دون أن تنظر في وجه أحد . شدها حمدي من ذراعها مبتعداً ، وهو يسأل :

– رأتنا .. ؟!

تصعبت بشفتيها ، وتمتمت :

– عيني علينا .

بعد مساومة قصيرة ، اشترت بالسعر الذي أرادته .. وتسوقت لباقي الأسبوع .

صعدت السلم إلي شقتها ، وهي تنفث الهواء فى تنهيدة طويلة .. الجبـان يريدنـي خادمة لأولاده ولزوجته الخواجاية .

جاءها صوت التليفزيون ، وأمها مُسمرة أمامه ، يعلن عن موافقة شـيخ الأزهـر الإمام طنطاوي علي لقاء حاخام اسرائيل الأكبر . وضعت ما تحمله فى المطبخ ، وهـي تصيح :

– ماذا تشاهدين .. ؟!

غيرت الأم القناة ، فتصاعد صوت فايزة فى أغنية مرحة من أحد أفلامها :

– بيت العز يا بيتنا .. علي بابك عنبتنا .

دخلت حمدية غرفتها ، وتخففت من ملابس الخروج . اضطجعـت علـي كنبـة مواجهة للشرفة ، التماساً لنسمة طرية ، وفايزة قد وصلت إلي آخر أغنيتها :

– ابعد يا شيطان .. ابعد يا شيطان .. ابعد يا شيطان .

ابتسمت ، متخيلة فايزة فى أغنياتها الأولي ، بوجهها النحيف ، وتسـريحة شـعر زمان المضحكة . أين هذا من وجهها الذي استدار ، والشعر المستعار ، الذي كان يزيدها حلاوة ، لكنها يا قلبي ، في أيامها الأخيرة ، بان أثر المرض علي تقاطيع وجهها ، رغـم مساحيق الطلاء الثقيلة . كان حمدي يشاهد معها ، ولحظت التأثر في عينيه .

تناولت ورقة ، لتكتب كلمتين لحمدي ، وأخذت مجلـة مهملـة ، ممـا يحضرهـا حمدي، نفضت عنها التراب ، لتسند عليها ، طالعت عنوانها " روزاليوسـف " ، وهـي تقول لنفسها:حمدي مثل القرع يمد بره . وهي تفكر ماذا تكتب له ، أخذت تقر الصفحات، تخطت المقالات والأخبار السياسية ، إلي الصفحات الخفيفة . استوقفتها طرفة .

ذهب قبطي مصر ، إلي البابا شنودة وقال له :

– قداستك منعت الحج إلي القدس ، طالما ظلت تحت الاحتلال الإسرائيلي ، وأنـا علي عتبة القبر ، فهلا استثنيتني لأزور السيد المسيح .

قال البابا :

– لا تزعل .. إذا مت ، سوف تلقي أيضا ، السيد المسيح .

(٢١)

تفقد حمدي الأغوار قرب الحدود . تأمل الزرع ، ونـــهي نفســه ، عــن تكذيــب ما يري. السيقان ليست منتصبة . وإن صدق ظني ، علي وشك الذبول .

هل ، لم تمتد الجذور ، بما فيه الكفاية ، إلي عمق التربة .. ؟

أم أننا ، لم نحفر ، في عمق الأغوار الأخري .. ؟

استعاد فى مخيلته ، أرضية الأغوار البعيدة ، واسترجع مسافات العمـــق ، وبعــد المقارنة .. انتهي إلي أن مستوي الحفر واحد تقريبا . هل المـــاء الجوفـــي ليــس علـــي مستوي واحد . كيف والمسافة بين الأغوار ليست كبيرة ، ومستوي ارتفاع أو انخفـــاض التربة ، ليس كبيرا أيضا .

تسلل بناظريه ، عبر الأسلاك الشائكة . ثمة أشجار مورقة ، والأرض معشوشـــبة بينها .

فجأة أقلقه تساؤل . أتراهم .. يسحبون المياه الجوفية .. ؟! يكفي لن يحفروا أعمــق مناً . طافت نظراته بربي خضراء ، عاليه ، في مستوي أعالي الأشجار . كيف وهم فـــى العالي .. لا .. الشجر وبعض الخضرة فى الواطئ .

هل يتقدم بشكوي إلي المسئولين .. ؟ .. لكنك لست علي يقين . إحساس داخلـــي ، وما رآه من أشجار نامية هناك ، وشجيرات علي وشك الذبول هنا . هذا لا يثبت شـــيئا. وهل سيسمع لك أحد . ولن ينوب المخلص سوي تقطيع هدومه .

هز رأسه ساخرا . وهل لو أرسلت شكوي .. سيحققون فيها .. ؟!

أولي ظهره للحدود ، وواصل تفقده للأغوار ، ودندن ، بما شدا به عبد الوهـــاب .. وليسوا بغير صليل السيوف .. يجيبون صوتا لنا أو صدي .

نادراً ما كذبني إحساسي الداخلي . ولكن .. كيف أثبته . التفت مرة أخـــري نحــو الأسلاك الشائكة . بانت علي البعد ربي رفح فلسطين . هدوء مخيم علي " الفيلات " فـــي الأعالي ، وعلي الأشجار والخضرة . لا يغرنك هذا الهدوء .

ما أن تعبر ، لترى ، وتتأكد من وجود آبار عميقة ، حتي ينهال الرصاص من كـل مكان ، وربما انفجرت ألغام أرضية .

وليسوا بغير صليل السيوف .. يجيبون صوتا لنا أو صدي .

تُري .. هل كتب علي محمود طه هذا البيت لنا .. أم لهم ..

وحين وجد بعض الأغوار ، صحت شجيراتها ، أخذ يقيس بنظره ، علي البعـــد ، بين مستوي الأرض التي يقف عليها ، والأرض قرب الحدود . خامره شـــك أن الأرض هنا منخفضة ، ولذلك ، لم يستطيعوا سحب مائها .

آه .. من يجعلني أعبر الحدود ، لأتأكد بنفسي ..

في كل مرة ، يعبرون حدودنا ، ونحن .. ويا للعبط .. لا نفعل .. لنثبت للعالم أننـا لم نبدأ بالاعتداء ..وكأن وجودهم علي أرض فلسطين ليس اعتداءً .

الأرض ..

ثم .. الماء ..

واستعاد ما يشدو به عبد الوهاب ..

أنتركهم يغصبون العروبة .. مجد الأبوة والسؤددا

تركناهم .

كلف العمال ، بنزع الشتلات التي علي وشك الذبول . وطلب منهم تعميق الغـور . وقبل وضع شتلات جديدة ، يعملون مجسات ، للتأكد أن الماء ستطوله الجذور .

طال الماء المتدفق من الخراطيم ، كالبراكين ، قلمة الســاتر الـترابي . وجـرف التراب ، صانعا فتحات ، سرعان ما عبرت منها الدبابات ، وعربات نقـل المعـدات .. وانكشفت مواقعهم أمام الجنود .

وكان ما عجب له حمدي ، أن المعدات ، مـن خراطيـم ، وقـوارب مطاطيـة ، ومركبات برمائية ، نقلت إلي الضفة الغربية للقناة ، والإســرائيليون يركبـون الســاتر

الترابي المرتفع في الضفة الشرقية ، ويراقبون من أماكن الملاحظة ، بخـــط بــاراليف ، فكيف لم يدركوا ما يحدث أمامهم .. ؟!

تمهل حمدي في مشيته . كان في الطريق إلي بيته ، عابرا ميدان الشيخ حســنين . رجل واحد استأثر باهتمامه ، من كل ما يزخر به مولد الشيخ حسنين . وقف علي منصة عالية ، نصفه الأعلي عارٍ . بانت عضلات صدره وذراعيه وكتفيه مفتولــة ، ســمراء . أمسك سيخا حديديا مبروما في طول إحدى ذراعيه . غرز سنه في خده الأيمن ، وظــل يضغط حتي خرج من الخد الآخر .. تملي من النظارة بعين محايدة ، لا تطرف . وتناول سيخاً آخر، وكرر نفس العمل ، والناس تتجمع حول المنصة .

حرك الرجل رأسه ذا الشعر الطويل المجعد ، ملتصق برأسه بفعــل الصــابون ، الذي أعطاه لونا يميل إلي الاصفرار ، وعيناه السوداوان تحركتا مــع حركــة الــرأس . والسيخان يتذبذبان مع حركته كبندول ساعة دون أن ينشـــع الجلــد بــأي دم . ودون أن يصدر عنه ما يشي إحساسه بأي ألم .

تساءل حمدي ذاهلا :

– كيف .. ؟!

قال رجل إلي جواره :

– خداع بصر .. ؟!

كاد أن يسأله .. وهل لا تري ما أراه ، لكنه أمسك ، وقــد لحــظ عيــون النــاس المشدودة إلي الرجل . عيون العالم كله علي الشرق الأوسط . وظلت المياه راكدة فــي قناة السويس .

وقد انقطع الاتصال بين البحرين الأبيض والأحمر . والإسرائيليون يدلون أقدامــهم في مياه القناة ، ويسبحون فيها أحيانا ، ست سنوات كاملة ، من ٦٧ حتي ٧٣ .

الغريب أن الرجل ، لا يتكسب من عمله هذا ، فلا هو ، أو أحــد معــه ، طلــب نقوداً ولا أحد بادر بإعطائه شيئا .

فلماذا يفعل ذلك .. ؟!

وحين سأل بعض الحاضرين ، عن هويته ، أخبروه أن أحداً لا يعرف عنه شيئا ، وأنه يذهب إلي الموالد دائما ، يقدم فقرته فى صمت ، ونادراً ما يحادث أحداً .

رجح حمدي أن يكون من أتباع إحدي الطرق الصوفية ، التي تدين بالتقشف والزهد ، وأن ما يفعله نوعا من المجالدة .

فى ميت دمسيس ، اكتشفوا حجراً مدفوناً فى الأرض ، فى جانب من صحن كنيسة هناك ، عليه نحت بارز باسم محمد بن أبي بكر . كان من الحجر الجيري الأبيض ، أسطواني ، فى طول جذع شخص متوسط الطول .

وأقبل حمدي مع الناس التى حضرت خصيصا ، ورواد المولد لمشاهدته ، وحين حط الليل ، استأثر باهتمامهم جميعا . . مارجرجس .. خيال له ، أعلي الحائط من الداخل فى مقدمة الكنيسة ، وهو فوق حصانه ، ممسكا رمحه . يتراقص علي ضوء المشاعل المتسرب من المولد إلي صحن الكنيسة . هلل الجميع من أقباط ومسلمين ..

" اشئ لله يا مارجرجس .. اشئ لله يا مارجرجس .. " .

المشاعل علي عربات الترمس وحمص الشام ، وأقماع الحلبة المنبتة الخضراء ، ذات الذؤابات البيضاء ، وسرداقات صغيرة ، مقامة من قماش سرادقات الأفراح ، ذات الزخارف المربعة والمستديرة ، يغلب عليها اللون الأحمر ، مقامة فى ميدان الشيخ حسنين ، والشوارع المؤدية إليه ، وفي الباحة أمام الكنيسة .. وعند شاطئ النيل بالقرب منها ، يؤمها السامعون للإنشاد الديني ، يُتلي علي مسارح مصنوعة من دكك خشبية ، أو براميل فوقها مستطيل عريض من الحديد المبطط ، وخلف المنشد فرقة موسيقية لا تزيد عن أربعة أو خمسه أشخاص ، تصاحبه بكمان أو أكثر وطبل ورق ، وصوته يلعلع فى مكبر للصوت بالسيرة النبوية .. علي ألحان شهيرة لبعض أغاني أم كلثوم ، ينتشي الوجدان ، علي ايقاعها المألوف ، والذي سبق أن أطربهم . ويتغلغل الطرب في نفوسهم، مفعما بما يزيد من سحر النشوة ، سماعهم لقصص كرامة الأتقياء ومعجزات القديسين .

وعربات اليد ، مصطفة فىمواجهة السرادقات ، عليها ، الطواقي والطراطير ، المصنوعة من الورق الفضي ، والذهبي ، تحف بها شُرط (جمع شريط) من ورق الكوريشة الأخضر والأحمر والأصفر . ولعب الأطفال الخشبية ، الرخيصة ، ذات

الألوان الغامقة ، تمثل طفلا يلعب علي العقلة ، جانباها ، عصاتـــان مـــن الجريـــد ، إذا ضُغطتا تشقلب الطفل . أو عروسة بلاستيكية ، إذا ضغطت بطنها زمرت ، أو صفقـــت بيدين بهما قطعتان مستديرتان من صاج رقيق . وحيوانات بلاستيكية ، صماء . وزمامير بأحجام مختلفة . بها خروم ، لتضبط الأصابع النغم . وطبول صغيرة للأطفال وأخـــري كبيرة ، دهنت أياديها الفخارية باللون الأحمر ، وصناديق ذات واجهـــة زجاجيـــة علـــي حوامل خشبية ، رصت فيها عقود وحلقان من الخرز الملون ، وخواتم فضيـــة وذهبيـــة " قشرة " وباعة كتب السيرة والمدائح النبوية ، قد فرشوا كتبهم علي جانب من الرصيف، بجوار باعة الحمص وحب العزيز . وفي قلب الزحام انتصبت دُوَرِيةَ ، عُلقت في قوائمها الحديدية المدلاة من سقف الدورية ، بدلا من الخيول الخشبية ، صواريخ ، مكتوب عليـــها أسماء البلاد العربية .. اليمن .. العـــراق .. فلســـطين .. الســـعودية .. فوقـــها الأولاد والبنات، يعاكسون بعضا بعضا .. بينما تدور بهم . والأراجيح ، لا يقنع الأطفال ، بمـــا يبلغونه من علو .. فيجاهدون في الأرجحة ، بالانثناء والقيـــام ، لتعلـــو أكـــثر .. بينمـــا الأهالي يحذرون .. ويرسلون من طرف خفي ، إشارة لصاحب الأراجيح .. فتمتـــد يـــده فجأة تشد حديدة الفرامل .. فيحتك أسفل الأرجوحة بقاعدة النصبـــة الخشـــبية ، مزيقـــا بصوت مشروخ ، فيهلل الأطفال محتجين .

وأمام سرادقات الطرق الصوفية ، التي علقت لافتات قماشـــية بأســـماء الرفاعيـــة والبراهمية والشاذلية ، وضعت باعة الفاكهة أقفاصهن الجريدية ، يبعن الخـــوخ والعنـــب البناتي .. بينما تأتيهن أكواب القرفة والشاي من داخل السرادقات ، حيث جلست نســـوة متآخيات ، في ملابس فضفاضة بيضاء ، يُعد لهن بعض الرجال الجمرات ، لوضعها فـــي طرابيش المعسل فوق الجُوَز .

وثمة من أشعلت قطعا من الخشب ، تطقطق بين حين وآخر ، وتسوي عليها كيزان الذرة . وجلس بجوارها رجل يعرض تماثيل من الجص ، ولوحات مستديرة من الجـــص أيضا عليها آيات قرآنية ملونة .

وحين ناولت إحدي النسوة ، كوبا من القرفة إلي حمدي في سرادق علـــي النيـــل ، تساءل .. أتراها من المتآخيات. أخذه جمال وجهها النطري .. ليتها تؤاخيني . وتذكر مـــا

قاله له أحدهم .. يعرفون مواعيد الموالد وأعياد القديسين وينتقلون من مولد لأخر .. حيث الطعام والشراب .. والتبرعات تصل إلي شيوخ الطرق الصوفية ، خاصة من تجار الناحية ..

وبعد أن دارت أكواب القرفة ، والشاي لمن طلبه .. وركنت الجوز إلي جانب .. نهضت المرأة ، وقد امتلأ السرادق بالجالسين .. ووقف الكثيرون خلفهم .. وأنشدت :

واشرب مدام كرفقتي من نور عين الذات *

يا بنت سمعان يا حنونة خشي الدير خبانات

وافتحي باب الدير وفرجيني علي السادات

قالت حنونة بنت سمعان :

وانت فين ياللي تنادي فى دجي الليل علي القدمات .

قلت لها : أنا مغرم وعاشق فى النبي صاحب العلامات .

مشى حمدي باتجاه الكنيسة ، في الشوارع والأزقة الضيقة ، وقد افترشها الناس ، وتكدست أبواب البيوت خلفهم بالزوار ، وفي باحة أمام الكنيسة افترشها المرضي.. مئات من الرجال والنساء والأطفال والشبان ، بالملابس البيضاء . نام بعضهم علي الأرض ، وعيونهم شاخصة إلي السقف ذي القباب العديدة .. صوت هذه المرأة ليس غريبا عليّ ، وأخذ يدندن : وحياة جمال النبي أبو مقام غالي .

ما يقطف الزهر فى الجنة إلا التايب الغالي .

تدافع بلطف بين الجموع ، يود الدخول إلي صحن الكنيسة ، لمشاهدة مارجرجس ثانية . تمهل فى جانب من الباحة ، حيث يبيع رجل ملتح صور كبيرة للقديس ، وهو علي حصانه يطعن التنين بالرمح . ومض فى ذهنه .. الخيال الذي رآه لم يكن به تنين .. تأمل القباب من الخارج .. من أين يأتي الخيال . وهو يدخل ، أكد لنفسه أنه فعلا لم ير التنين . وجاءه إنشاد بعض المنشدين :

كبادُوكيا بلدنا .. نسبتنا فى فلسطين

وفيها مربانا .. وفيها مقيمين .

(*) الأبيات فى هذا الفصل من كُتيب للكنيسة الأرثوذكسية عن سير القديسين ، وآخر من المدائح النبوية يباع فى الموالد .

شاهد الخيال أمامه أعلي الجدار المواجه .. وقد رفع الجصان قائميه الأمـــاميين ، وأمسك الفارس برمحه ، والناس تهلل .

أين التنين .. يمسح بنظره السقف .. ضغط الأجساد ، جعله يتزحزح من مكانــه .. يعيد النظر .. لكن ضغط الأجساد ، لا يمكنه من التملي جيدا .. دفعه الضغط إلي بـــاب جانبي .. حاول العودة .. لكن التيار الزاحف إلي الخارج ، لم يتح له فرصة .. طالعــه تيار هوائى بارد .. ورأي خلف السرادقات علي جسر النيل أشرعة المراكب ، التى كلمـا اقتربت ، وغزتها أنوار مشاعل العربات ، كبر حجمها .. واتضحت بعـــض ملامحــها للرائى .. أين التنين ..

علقوا مارجرجس المزاحم علي ساري مركب ، من عنقـــه ورجليـــه ، وضـُــرب بالسياط ، ولم يتنازل عما اعتقده . سلموه للوالي ، فقطع رأسه ، وتناقل الناس ســـيرته ، وحملت كنيسة فى قرية بساط النصاري إسمه ..

اذن فهو خيال مارجرجس المزاحم ..

لا مارجرجس المزاحم كان فلاحا .. أما هذا ففارس علي حصان ..

اذن هو مارجرجس السكندري ..

لكنه ابن تاجر ، وليس فارسا .. طمع خاله والي الإسكندرية في مالــــه ، وأراد أن يزوجه بنته .. لكن البنت آمنت بالدين الجديد .

وأنت يا صفية .. ألا تؤمنين .. لماذا .. عيناك علي المال دائما .. كم تكســـب .. وبكم ستكلف .. ؟! طبعا يوجد خُطّاب جاهزون .. هل توقعت مني المزاحمة .

جرفه الزحام ، باتجاه إحدي السرادقات . لعلع مكبر للصوت داخلها :

ولما دعانا الغرام فتنا الوطن وبلينا

ولما قابلنا النبي ردت أرواحنا فينا

فعدنا نريح البدن بان التعب لينا

الله يعلم بظاهرنا وخافينا

ماذا تخفين يا صفية .. هل تخفين شيئا لا أعلمه .. أم أن كل شئ ظـــاهر ، وأنـــا الذي لا يستطيع القراءة .

حاول أن يخرج من التيار ، ليستنشق نسمة باردة ، وقد أحس صهداً فى مستوي رؤوس الناس ، رغم رطوبة تسري فى الليل المتقدم ..

ليتك كُنتِ معي .. يا رجل .. كان الناس أشبعوها عبثا بجسدها ، وغرفاً ، كما يقول بعض محترفي المداعبة فى الموالد ..

إذا كان مارجرجس سُمى بالمزاحم ، لأنه زاحم ثلاثة أخوة .. فماذا يُسمي السائر هنا .. ؟!

اقترب من فتحة سرادق .

أول ما نبدأ القول نصلي علي المصطفي ولد عدنان .

كان ياما كان يا ميت دمسيس كنت تمسبوتي فى العهد الفرعوني

وجدوا فى جوفك حجر بنقش الوالي ابن أبي بكر فى عهد أبي الطالب الفارس القريشي

حاول الإنجليزي الخسيس يبني جسره علي النيل ويغرق الكنيسة .

رفض الناس وقالوا أبداً يا ابن اللئيمة .

ذهب المصري وأحضر جسد الشهيد من اللد بفلسطين .

وقال ما يدفن غير في مصر ودمعت العين

لكن الشهيد دفن فى مصر القديمة وزاد الحنين

ذهب المصري وأحضر ذراع الشهيد من فلسطين

كان الكفرة ، قطعوا جسده ، وقال ما يدفن غير فى ميت دمسيس

لأجل دائما ، نذكر كيف قيدوك بسلاسل الحديد

وكيف وضعوا الجير الحي علي جروحك ولم يعبأوا بالألم والصديد

وأحموا المسامير فى النار ووضعوها فى لحمك الضنين

وألبسوك حذاء من حديد دقوه بالمسامير فى قدميك

وأجبروك علي المشي ووضعوا الشظايا فى جسمك ولم بكيت

وخلعوا أظافرك ووضعوك علي سرير من المسامير المحماة فى النار ولم شكيت

وظنوك تنازلت عما في رأسك ..

وجدوك رفعتها وقلت أبداً أنا علي العهد إذا بقيت . . .
واليوم فى مايو والزهر يفتح عيد الشهيد ، وغدا فى الخريف عيد كنيستك
يا فارس يا نبيل
ولن نصغي لما قاله الصليبي أنك جاورجيوس وساعدتهم فى حصار أنطاكية
ولن نصغي لما قاله الإنجليزي أنك سان جورج حامي وشفيع بلادهم فى الملمات
وكيف تساعدهم وهم علي الشر فى اتفاق ومعاهدة
وكيف تساعدهم وأنت الخضر ابن الشام
وكيف تساعدهم وأنت الكباووكي وأمك فلسطينية
وكيف تساعدهم يا شهيد ولنا من الشهداء آلاف
علي أرض سيناء والمجدل والدم الذي يروي ما يبقي جاف
رمحك معنا يا بطل .. لأجل يركع التنين ولانخاف
وصلوا علي خاتم الرسل ولد عدنان
كانت الشهامة طبعه والرحمة له غية

لفح وجه حمدي تيار هواء بارد . أدرك أن ثمة انفراجة ، ترك نفسه لها فطالعته صفحة النيل ، بعتمة مشعة ، جعلته مختليا بنفسه ، وفي الوقت نفسه ، متصلا بما حوله . المياه الداكنة ، تتوالي طياتها ، بفرحة مضمرة ، هل تهش للصباح الوليد ..

والباعة أبداً لا يذهبون . والرجل لا تنقطع ، والأزقة المحيطة بمسجد الشيخ حسنين، علي صخبها ، ورجل نصفه العلوي عار ، وضع ظهره علي لوح خشبي ، نهضت به مسامير كأشواك الصبار الإبرية . سأل رجلا سمينا أن يدوس فوق صدره ، وأشار له ألا يخلع حذاءه .

أراهم ظهره .. لم ينل شئ من لحمه ، ولم تنبثق نقطة دم واحدة .

صعد في شارع العباسي إلي شارع النيل . فكر حمدي أن يعود إلي ميدان الشيخ حسنين ، ويعرج إلي شارع محمد فتحي ، يتملي سرادقاته ، كما كان يفعل وهو صغير . كان يشاهد الصعايدة بقاماتهم الفارعة فى الجلابيب البيضاء ، وقد وضعوا عمائم علي رؤوسهم تشبه أغطية قدور الفول المدمس . وقد أمسك العازفون بالأراغيل . عدة غابات

متجاورة ، في طول العازف ، يحرك أصابعه علي خرومهابينما تنتفض عروق رقبتـه ، وهو ينفخ فى مبسمها .. مصدراً أنغاماً رتيبة ، ممتدة ، لم يـدرك وقتـها ، كـم كـانت راسخة، وحزينة ، وكم كانت الأصوات البشرية التى تصاحبها ، تئن ، غائصة فى قـرار مظلم .

وأبو حلاوة ينادي علي كل دار بدار

من كان ضمينه النبي لم شمت جسمه نار

من يضمني عندك يا صفية . المال ضامنك وشفيعك ، أم هذا قصر ذيل مني .

من كان ضمينه النبي لم شمت جسمه

استمر فى سيره ، يلتمس نسمات ، تخفف من لفح الأنفاس فى المولد . وتسـاءل .. لماذا الموالد دائما فى الصيف وغالبا فى أغسطس .. لم يصادف مولدا فى الشتاء أبدا ..

خُيل إليه أن الهواء سيقتلع الخيمة . أخرج يمينه من جيبه ، وكانت ما تزال باردة . سلم علي النقيب ، قائد الموقع ، الذي دعاه إلي الدخول .

أخبره عن اختياره أرض بجوار موقعه ، لزراعة شتلات خوخ . استفسره بتقـاطيع وجهه ، فوضح له الأمر . وعده بالدراسة .

وعندما التقاه حمدي ثانية ، خُيل إليه أنه بالغ فى الترحيب به ، مما أثار دهشـته ، وشجعه ، فيما بعد ، أن يخبره بحاجته إلي شتلات من لوز سيناء .وعده كعادته بالدراسة، وظن حمدي أنه أصغي إليه من باب المجاملة ، وخجل من نفسه ، لأنـه زادهـا علـي الرجل ، لكنه فوجئ به ، وقد دبر له لقاءً مع محمد عايش ، دليل قواتنا العابرة لبعـض العمليات فى سيناء .

وكاد يقفز من النشوة .. عندما طالعته الجرائد ، بما فعلته قواتنـا مـن تمويـه .. جعل الإسرائيليين لا يدركون ماهية ما يرونه أمامهم من قوات ومعـدات علـي الضفـة الغربية..

لوح بقبضته اليمني فى الهواء . الآن فقط .. فهمت سر اهتمام قائد الموقـع عبـد السلام فاروق بي ..

أكيد ، كان يريد لنقاط الملاحظة الإسرائيلية على الضفة الشرقية أن ترى المزرعة.. ولعل هذا أوحي لهم باسترخاء القوات ، التي سمحت بإقامة مزرعة في موقعها .

يا خبر .. وأنا الذي ظننت ، أني لم أشارك في الحرب .. ؟!

تملكه شعور ، أسكره عدة أيام ، ومع توالي الأيام ، عشش في الأعماق ، يرسل بين حين وآخر أشعة ذهبية ، تضيئ جوانحه .

وصل حمدي إلي بيته . جذب كرسي الشاطئ في مواجهة الشباك . داعبته نسمات بحرية منعشة.أراح جسده مع ميل خلفية الكرسي القماشية .

مجري مائي ، تحت الأسوار السلكية . سال فيه الماء ، حاول النفاذ ، ليعترض طريقه .

نبحت كلاب بشدة . تدلي لعاب لزج علي جانبي أفواهها . وبرزت أنيابها حادة كلما علا نباحها .

تحركت القوائم الحديدية ، بما بينها من أسلاك عنكبوتية، وبما أعلاها من أسلاك شائكة .

عدت الكلاب ، خلف الأسوار ، وأخذت تنبح كأنما أصابها سُعار .. تحركت الأسوار فتبعتها الكلاب ، وقد تحول نباحها إلي عواءٍ مخيف .

وكلما تحركت الأسوار ، تبعتها الكلاب ..

انتفض ، وقد كادت تطبق عليه الأسلاك العنكبوتية ، وخلفها السحن المخيفة للكلاب تزوم وقد تساقط لعابها .

هل غفوت .. ؟!

(٢٢)

ذهب إلي الفندق آملا أن يري سمية .

كانت شمس ما قبل الغروب الهينة ، تضفي شفافية علي الأشياء .

فضل أن يجلس تحت شمسية علي الرمال ، مولياً ظهره لمبني الفنـــدق . انبســط الشاطئ أمامه ، وطيات المياه ، تداعب بعضها بعضا ، فيخفة ومرح .

حمل إليه الهواء ، رذاذاً خفيفاً ، أنعش وجنتيه ، وهو يتأمل ميـــاه البحــر ، عنــد استدارة الأفق ، وأحس بخفة ، واندغام فيما يحيط به .

لم يتعجل الإشارة إلي أحد ، يُحضر له طلباً . تعشم أن يساعده الحظ وتحضر هي. خف الوهج الأصفر ، ومال قرص الشمس إلي اللون الأحمر ، وقد تحددت اســـتدارته ، بينما يشرئب الماء ، فى محاولة للمسح علي وجهه .

لماذا حضرت إلي هنا .. ؟!

هل رميت طوبة صفية .

إنها لم تتصل بي منذ عرفتها . دائما المبادرة من جانبي . هل هذا هو المفروض . وماذا لو كنت مريضا ، أو مشغولا ، أليس من الواجب أن تتصل لتطمئـــن .. أو حتـــي لتعرف أخباري .. لم يحدث مرة واحدة ، أن نسيت واتصلت . هل هو التمنع الكـــاذب ، من قبل المرأة المصرية " ياخي " .. كأنك خبرت نساء العالم .

لا .. لنترك هذا لغير المتعلمات .. هي تعلمت وسافرت إلـــي الخـــارج وراحـــت وجاءت . أم أن كلهن سواء فى هذا الناحية . ويتركن المبادرة للرجل ، حتـــي لـــو كُـــنّ

الراغبات . لست أدري .. ولكن في حالتي .. وقد خبرتها ، لا أظنها هكذا .. والمعنى واضح كالشمس ..

نشعت الحمرة علي حافة الأفق ، وصبغت نتفاً من غيم في قبة السماء . ونجحت جبال الماء ، أخيراً ، في ابتلاع القرص ، وبان أنها مأخوذة بجبروتها الأنثي ، وعلاها زبد أبيض ، يجاهد في محو بقايا الشعاعات الواهنة .

هي لا تعبأ بي .

لكن لماذا في كل مرة ، التقينا ، حثتني علي مداومة الاتصال . هل هي المجاملة العادية . إذا لم يكذبني سمعي ، في صوتها شئ ما . لا .. ليس رجاء . ولكنه وشاية برغبة ، تجاهد ، في الإفصاح . أو ربما .. لا .. لست متأكدا بالضبط . وماذا عن نظرة عينيها العسليتين ، تنظران إلي الداخل ، إذا أطريت جمالهما ، مشفعة ذلك بابتسامة وديعة ، واحتجاج ناعم :

– وبعدها معك .. !

ولا تقوي علي سحب نظراتها الداخلية . هو الخجل .. الخجل الذي يمنعها من الإفصاح .. أو الاستجابة ، هل تريدني أن أدفعها إلي ذلك .

أم أنني أخدع نفسي ، وليس شئ من هذا في دماغها .

وماذا عن لهفتها وهي ترد علي التليفون ، خاصة ، عندما أطلبها مبكرا ، ويأتي صوتها لم يتخلص من أثر النوم ، فأعتذر بصدق ، عن إيقاظها ، فيأتيني صوتها ، وهو يتملص سريعا من الغشلقة :

– أبدا أبدا ..

نتشبث بتواصل الصوتين ، فأستمر في الحديث ، وينجو صوتها ، شيئا فشيئا مما يشوبه ، ويصبح وديعا ، ناعما ، راغبا فعلاً في مواصلة الكلام .

لماذا لم تسأل ...

هل تحتم علي أن أكون السائل دوما .. ؟!

مازلت أذكر ، كلماتها في عرض حديث ، أنها لن تتردد في مصارحة أحد ، لو صادف هوي في نفسها .

هل قالت ذلك ، لتشعرني بمدي حريتها ، وامتلاكها لدفة حياتها ، أم أن الكلام شئ والعمل به ، شئ آخر .

دائما ، أنا الذي يعرض ..

وهي لا تقبل ولا ترفض .

نتزوج . تُسوف فى الرد ، وتنشغل بأي شئ ، وإن كانت حمرة خفيفة ، تنشع من وجنتيها الحريرتين ، تفضح انفعالها الداخلي .

أحبك . تنظر إلي بعيد ، وتُحول الحديث إلي اتجاه آخر ، وعبثا أحاول استبقاءها في الدائرة . ومع ذلك . لا ترفض اللقيا ، وتأتي فى الموعد بالضبط ، علي غير عادة النساء، اللاتى يملن إلي التأخر .

أتراها .. تحتفظ بي ، احتياطا للطوارئ ، ولست أنا النموذج الذي توده ، فإذا لم يحضر مرادها ، فأنا أحسن من لا شئ ..

أم هي كأنثى ، مطلقة تستعذب الإحساس أنها مرغوبة.

ولكنها ، وهي علي مشارف الأربعين ، إن لم تكن تخطتها ، ألا تشعر بالقلق . لعل هناك خُطاباً ، وهي تفاضل ، وأنا لا أعلم .

قولي شيئا .. يرحمنا ويرحمك الله .

أحس بمن يقف خلفه . التفت مرتبكا ، كمن ضُبط متلبسا بفعل منكر .

كان الظلام قد غشي الأشياء . ولم تكن سمية .

– أفندم

تردد .. هل يسألها عن سمية .. أم لا داعي للتسرع ، حتي يستوثق بنفسه ، وحتي لا يتسبب فى انتشار أقاويل ، لا داعي لها .

– أفندم

– قهوة سادة .

غادرته . خُيل إليه أنها هزت كتفيها . سرح ببصره عبر الترابيزات ، لعله يلمحها آتية ، ونمل المساء ، ينبش المرئيات . تساءل .. هل المضيفة التى جاءته .. استلمت ورديتها لتوها .. أم هي نهارية ، ولم تُسلم بعد ..

هل سلمت تماما فى أمر صفية . كان من الواجب إخبارها أنني صرفت نظرا . ولكني لم أتفق معها علي شئ . علي الأقل يكون لقاء وداع وأسمع كلمتها . شعر بحنين لسماع صوتها الناعم، الخالي من أي ندوب ، تنبئ عن مكر ، أو لف ودوران . وتمثلها بقامتها الطويلة ، وجذعها الرهيف ، حيث تميل دوما إلي لبس البلوزات المشغولة " تريكو " ، تبرز نهديها . كانت معالمهما واضحة ، وقد حدب عليها ، خلف مقعدها في الباص ، محادثاً . آه من الحليب الممزوج بالسمن البلدي ، وقد استكانت اليمامتان .ومرة كان الوقت صيفا ، ارتدت بلوزة ، بلا كمين تقريبا . رفعت إحدي ذراعيها ، ملوحة . شعر أسود أطل من تحت إبطها . غابة. كاد يفقد اتزانه ، وهو الذي جاهد دوما ، أن يبدو غير متلهف علي شئ .

ولكن ، ما دمت قد فكرت فى امرأة أخري ، فمعني هذا ، أنك لم تحبها . هل كنت فقط معجبا بشخصيتها الدمثة . أم أنك فى داخلك ، وقد تعديث الخمسين ، تبحث عن زوجة مناسبة والسلام .

أم أنك لست مستريحا لماضيها تماما .

كان أحيانا يعتريه الشك ، فيسأل عنها زملاءها فى العمل حين يزور حمدية ، فيستشف من النظرات أن لها علاقات .

وحين يحاول الإمساك بخيط محدد ، يجد نفسه فى جو لا يستطيع معه تبين الخيط البرتقالي من الخيط الرمادي .

وهذه الغابة الطالة أليست دليل استقامتها .. فلو كانت علي علاقة بأحد ما أهملت نفسها هكذا ..من يدري .. لعل من تحبه يثيره ذلك .. فطاوعته وتركت نفسها .. بهذه الغزارة .. لا أعتقد ..

أمام مستشفي ميداني ، أقاموه علي عجل فى جانب من معسكر الأسري بعتليت، رقد الجرحي عدة أيام .. طلقات من الرصاص أصابت الجذوع والأذرع والأفخاذ.. وتخثر الدم النازف علي أجسادهم وملابسهم .

أحدهم يدمع .. ساقه تهتكت ولابد من البتر ، لكنه يحمد الله بصوت مسموع أنه نجا من الموت . جاء ممرض اسرائيلي ممصوص الجسد ، وحدثهم بعربية حروفها ممطوطة :

– صاحبك فى حاجة إلي دم ..

نظروا إلي بعضهم بعضا . ولم ينهض أحد .

– يا شباب .. صاحبك يموت ..

نهض بعضهم ، وفي أثرهم حمدي . كاد يسقط ثانية . عزا ذلك لرقدته مدة طويلة، وعدم سريان دم كاف إلي دماغه .

دخل المستشفي . شكة دبوس فى إبهام يسراه . بعد قليل غرزوا إبرة فى وريد يده اليمني . لم تستقر ، فجربوا ذراعه الأيسر .

حين استوعب ما حوله . وجد علي سرير حديدي ، مواز لسريره ، مجندة وقد غرسوا إبرة فى إحدى ذراعيها . وأعلي سريرها وعاء زجاجي تمتص منه الدم .

ود لو ينهض ، لكن الإبرة فى ذراعه ، وحلقة مطاطية تحيط به . وسمره مكانه ، ما رآه من شعر غزير تحت أحد إبطي الفتاه . هل الأجنبيات دائما هكذا .

أخذه الممرض إلي الخارج ، وهو لا يكاد يري ما أمامه ودخل زميل آخر . لا يدرون كم مر من الوقت حين وزع عليهم الممرض ماءً غامقا ، وهو يقول :

– الشاى يا شباب .

رغم طعمه الماسخ ، فقدبعثتسخونتهشيئا من الحيوية فى أجسادهم . أحضر الممرض وعاءً بلاستيكيا به أوراق كرنب مقطعة إلي شُرط رفيعة ، وبملعقة خشبية أخذ يوزع عليهم . حاول أحدهم أن يأخذ نصيبا لزميلهم الذي فى الداخل .

قال الممرض :

– صاحبك الله يرحمه .

تبادلوا النظرات فى ذهول . سأل أحدهم جاره عن إصابته :

– كانت فى الإلية ، ولم ينزف دماءً كثيرةً . امتنعوا عن تناول الكرنب وطلبوا إبلاغ مندوب الصليب الأحمر . قال الممرض :

– صاحبك الله يرحمه .. لماذا لا تأكل أنت .. ؟!

غادرهم مسرعا . وقف أحدهم بالباب . وجد زميله ملقي فوق ترابيزة حديدية ، قوائمها رفيعة صدئة ، وتحته مشمع مصفر ، متهرئ ، وبطنه ملفوفة بأربطة من الشاش، ناشعة بالاحمرار .

انتبه إلي كوعه ، كاد يقذف بصينية القهوة . وجد فنجانه خاليا . متي جاءت القهوة، ومتي شربها . ثبت ورقة مالية تحت الفنجان . نهض في تثاقل وقد تكاثف السواد. مشي بمحاذاة الشاطئ ..

تُري .. هل أنا الملوم .. ؟!

قلت : أحبك . صَمَتَتِ

قلت : نتزوج . صَمَتَتِ

هل صمتها علامة رضا . أم طبعها الخجول ، والذي لم أدركه وقتها ، جعلها تصمت حتي لا تجرحني ، وقد اعتبرت عرضي بالزواج ، جرأ لرجلها .

لو كان الأمر كذلك .. فلماذا قابلتني باحترام وود بعد ذلك .. ؟!

لعلها ، كانت في انتظار أن أضيف . سأفعل كذا ، سأدبر كذا ، حتي تأخذ كلامي مأخذ الجد ، وكيف أضيف وهي لم ترد .

لم ترد .. نعم .. ولكنها استمرت في اللقيا ولم ترفض الحديث التليفوني . هل بذلك اعتبرت نفسها موافقة ضمنا علي ما عرضته ، وظنت أنني فهمت ، وانتظرت خطوتي التالية .. فأي تقصير – من وجهة نظرها – يكون قد حدث .. ؟! ، وأنا الذي كنت في حيرة من عدم ردها .. ؟!

خاضت قدماه ، في نباتات رخوة ، مما يلقيها البحر علي الشاطئ .. انحرف قليلا. تناهي إلي سمعه إيقاع كإيقاع آلة موسيقية ، تشبه ملعقتين خشبيتين كبيرتين . أحد ذكور اللقالق المهاجرة ، يخبط بشقي منقاره الطويل ، جذبا لإحدي الإناث . اقترب من نخلة بدت أشد دكنة من الظلمة السارية ، لم يجد شيئا .

عاود سيره ، وجاءه الإيقاع ثانية . ثلة من النخيل في جانب من الشاطئ الرملي العريض ، اقترب منها فلم يجد شيئا .

تلفت حوله . أتاه الإيقاع ، راقصا ، هاشا . لاحت شجرة الكافور ، القريبـــة مـــن بيته. اقترب منها وقد أيقن أنه واجد اللقلق ، وقد انحنت الأنثي - كعادتها - محيية ، وهو يرد علي تحيتها بانحناءة مماثلة . ثم يندغما معاً فى إصدار إيقاع واحد بمنقاريهما .

خاب ظنه ..

ولاحت له .. من خلف أسوجة بعض البيوت ، زهور الفل البيضاء ، وقد خففـــت من العتمة ..

سار علي هديها ، ملتمساً الطريق إلي بيته .

(٢٣)

ثلاثة يعرفون " التكتيك " في العالم .

روميل .. ألمانيا

مونتجمري .. انجلترا

ثم مشيرا بإبهامه إلي صدره :

مقدم جورج أديب .. القطر المصري .

بالكاد ، يسيطرون علي أنفسهم ، حتى تنتهي المحاضرة ، ثم ينفجرون في الضحك. ويأخذ بعضهم ، في تقليده بلهجته الهادئة ، الواثقة ، خاصة وهو يضغط علي المقطع الأخير " القطر المصري " ، ناظراً في عيونهم ، بعينيه ذاتي الأديم الأحمر .

ابتسم عبد السلام فاروق ، وقد سرح بعينيه فوق مياه القناة ، التي ما أن تلثم البحر، حتي يفتح ذراعيه لاحتضانها .

وضع يديه علي حافة المعدية ، متعجلا وصولها إلي بور فؤاد ، وقد زاد شوقه للقيا الرجل . أشار العميد جورج إلي إحدي الدبابات المدمرة ، وقال :

– هلا تلاحظ ما ألاحظه .. ؟!

كان قد أمكنهم تدمير وإصابة فصيلة من الدبابات المهاجمة ، ومع ذلك انهالت علي موقعهم ، بعض القذائف . أفاد الاستطلاع عدم وجود قوات اسرائيلية بالقرب منهم .

اختبأوا فى الملاجئ . ، وفكروا فى الانتقال إلي موقع تبادلي ، وهم فى عجب من الأمر دقق عبد السلام النظر ، وقال :

- البرج مدمر من أسفل

قال العميد نافد الصبر :

- الماسورة .

فجأة صاح عبد السلام من الدهشة :

- مدفع البرج له ماسورتان .

أمّن العميد متمهلا :

- بالضبط .

تسمح لي سيادتك .

أومأ برأسه وهو يقول :

- توخ الحذر .

خطا عبد السلام بيمناه ، محاذرا ، وهو يتطلع إلي حائط القناة الأسمنتي عند المرسي ، ودائما يستشعر رعشة ، عندما يلمح الماء في الأسفل ، مدركا عمقه . عرج يمينا ، الشوارع هادئة واسعة والبيوت من دورين أو ثلاثة . يُعلم شارعه ببقال على ناصيته ..

لف عبد السلام حول موقع الدبابات المدمرة . لم يجد شيئا غريبا . حاول معرفة سر الماسورتين ، فلم يفلح . نادي العميد فى اللاسلكي ، وطلب إطلاق بعض القذائف علي الدبابات ، ثم التزام الصمت .

ما أن كف الضرب ، حتي رأي دبابة سليمة ، حشرت نفسها بين الدبابات المدمرة، وألصقت مدفع برجها بدبابة أخري ، انسحبت إلي الخلف وحركت مدفعها .

هتف عبد السلام فى اللاسلكي :

- وضحت الرؤيا .

لم يرد العميد علي الفور ، فأدرك أنه يستوعب الموقف . بعد قليل سمع صوته :

- جاهز

- تماما

- تعامل معها .

زحف عبد السلام من التبة ، التى كان يحتمي بها . وحين اتضح له أن قذيفة الـ آر - ب - ج ، ستكون مؤثرة ، توكل ، ونشن ، علي مكمن الحركة في برج الدبابة . أصمه الدوي. وعندما فتح عينيه ، وجد ماسورة المدفع قد مالت إلي جنب ، والنار مشتعلة ، وإسرائيلي يحاول الخروج من فتحة جانبية . النار مشتعلة فى ملابسه ، ويصيح مذعوراً :

- سيدي .. ارحمني .. لا تقتلني .

تردد عبد السلام . كان جسده محشورا فى الفتحة ، التى ضغط عليها اعوجاج ناصية المدفع . ثوان وتنفجر حمولة الدبابة من الدانات . أسرع عبد السلام ووضع قدميه علي الجنزير ، وأمسك بجذعه . وهو ينتزعه ، انشقت ملابسه ، وجرح من احتكاكه بالصلب المشتعل . قفز إلي الأرض ، وجري وهو يجره .

سرعان ما ارتجت الأرض تحتهما . أحس بغصة ، ونظر إلي عيني المنبطح إلي جواره .. كأنه يقول له .. لم يكن أحد يستطيع لباقي الطقم شيئا .

هلل العميد مرحبا بعبد السلام . وعندما رأي الأسير ، صاح ، وقد تذكر ما فعله بموقعهم :

- دوختنا يا ابن اللئيمة .

وطلب من أحد الضباط ، أن يضمدوا جراحه ، ويرسلوه إلي المؤخرة .

ما أن رآه اللواء جورج ، حتي أخذه فى حضنه ، فأحس بجسده يتلاشي ، وهو الربعة المتين ، فى هيكله الضخم .. وقد لمس ترهله قليلا .

أجلسه فى كرسي مريح قبالته ، وهو يسأل عن الزملاء القدامي . طالعه وجهه الباش ، بعينيه الحمراوين ، وبشرته البيضاء المشبعة باحمرار خفيف .. وابيض أكثر ، شعره السائح ، وبان خفيفا ، وقد شف عن صلعة لوحتها الشمس . ذهب يحضر الشاي .

لفت نظره علي مكتب إلي يساره تمثال فرعوني . أغلب الظن لملك .. ما دام يمد إحدي يديه بالصولجان ، فى قمته عين حورس . وقد رسخت قدماه فى الأرض ،

إحداهما خطت إلي الأمام . وفي امتداد قاعدة التمثال إلي يمينه ، أكثر من مجري ، عليها أقلام ، وفي خلفيتها وراقة خشبية ، أطلت منها حواف بعض الرسائل . وعُلقت في الصولجان حلقة ، رجح من لونها البرتقالي المائل إلي الإحمرار ، أنها فرع ملفوف من سباطة بلح ، كاد يستشعر ملمسها الشمعي ، وقد برزت نتوءات داكنة.

وهو يقلب له الشاي ، نحي يده ، برفق وقال :

– أنوي السفر للسعودية .. في عمل .. إذا كنت حضرتك تريد شيئا ..

تطلع إليه .. وبعد قليل وشت عيناه بالمرح ، وقال :

– فات الميعاد .

انطلق عبد السلام ضاحكا ، وقد نشع ما كان . ذات ظهيرة ، وقد انتهوا من طابور تدريب ، أمر العميد رقيب الإذاعة ، بالترفيه عن الجنود . وكان الرقيب مغرماً بأم كلثوم، وفي هذا اليوم ، كان بينه وبين أحد زملائه سوء تفاهم ، وكان محبوسا بالمعسكر، ومستثني من الإجازة . فأذاع الرقيب أغنية " فات الميعاد " ، وكلما انتهت أعاد إذاعتها ، حتي أفلتت أعصاب الزميل وتشاجر معه ، وسُمعت أطراف من زعيقهما في الإذاعة .

أرسل العميد ، عبد السلام فاروق لتحري الموقف . استدعي رقيب الإذاعة ، وصالحه علي زميله ، بينما تناثرت تعليقات الحضور :

– هل فاتك موعد حقا ..

– علي الترعة .. ولا في جنينة الحيوانات ..

وحبكت النكتة أحدهم فقال :

– وأنت الصادق ... في أرض الميعاد ..

ضجوا جميعا بالضحك ، وأسرع العميد إلي مكتبه ، وعاد وفي يده نسخة من العهد القديم ، وقال :

– بمناسبة أرض الميعاد .

فرّ التوراة ، وتوقف بإصبعه عند صفحة معينة ، وقال :

– فى سفر التثنية ، الإصحاح الثاني ، العدد الرابع ، تقول الآية " وأوصي الشعب قائلا وأنتم مارون بتخم إخوتكم بني عيسو الساكنين سعير فيخافون منكم فاحذروا الهجوم عليهم لأني لاأعطيكم من أرضهم ولا وطأة قدم لأني لعيسو قد أعطيت جبل سعير ميراثاً"

تطلع العميد إلي وجوههم ، فاستشف استغلاق بعض الكلمات عليهم . قال :

– سعير .. في أرض كنعان .. فلسطين يعني ..

تساءل الرقيب :

– محرمة علي الشعب .. !!

رد العميد :

– اليهود يعني ..

قال عبد السلام فاروق :

– وهل ننسي تصريح ديان أنه ملحد ..وكذا أغلب زعماء إسرائيل .

قال المحبوس :

– فلا معني .. للكلام عن الحرام والحلال .

وصلت المعدية إلي بورسعيد . تطلع عبد السلام إلي ساعته . تُري .. هل استغيبته صفية . ليتها أعفته من الغداء ، خاصة وهو لا يعلم هل لاقي قبولا أم لا . ما فهمه من كلامها ، أنها مهدت لهذا اللقاء ، لكن الكلام شئ ، ورؤيتهم له والحديث معه شئ آخر . ولعلها لم تذكر لهم كل شئ .. هل لحظوا فرق السن بينهما ، هي تسبقه بسنوات قليلة ، حسب زعمها ، وهو علي مشارف الأربعين .

استأذن ليترك لهم الكلام بحرية ، وانتهزها فرصة لزيارة اللواء جورج . علي أية حال .. أيا ما كان ، انطباع شقيقها ، ورده ، فهو يحس بالثقة الأن ، عنه في الصباح .

مشى بحذاء السور المحاذي للقناة ، وقبل أن يصل إلي نهايته ، عرج إلي الطريق الموازي للبحر . لكن عليهم ألا ينسوا .. هذا الزواج الثاني لها ، وهو لقطة بالنسبة لها . لقطة .. أم هي اللقطة ، بعقدها للعمل فى السعودية . أتراها ، لولا حاجتها لمحرم ، ما وافقت علي الارتباط به ، وهل هذا وقت التيقن والسؤال . وأين كنت من زمان .

هل سيوافق شقيقها ، مراعاة ، لمصلحتها والسلام ، أم ..

غذ.. السير ، وهواء البحر ، يرطب جبهته ، ويتغلغل فى ثنايا ملابسه ، مخففا من غلواء الشمس ، بينما عيناه تبحثان عن ظلال ، دون جدوي .

التفت يساراً ، حيث تتبثق الشوارع ، المؤدية إلي وسط المدينة ، وعند إحداهــــا ، قدر أنه يؤدي إلي شارعهم ، انحرف .. لقي جنينة فريال فى طريقه ، التى احتلت مربعـا كبيرا . تطل من المحال فى الشوارع المحيطة بها ، البضائع المستوردة .. أقمشـــة ذات ألوان مختلفة . وأدوات كهربائية .. خلاطات وتليفزيونات ، وسخانات ، وعلب الشـاى ، والفواكه المحفوظة ، والشيكولاته واللبان ، والأحذية .. خاصة الرياضية، المصنوعـــة ، في هونج كونج وتايوان تقليداً للعلامات العالمية . قادته قدماه إلي دكة حجرية فى جـانب من الجنينة .. وقد احتل الممر غير بعيد منه ، كشك خشبي يصنع الشاى والقهوة ، لرواد هذه المحال .. الذين يستردون أنفاسهم علي الدكك ، ويدلق صبي جــردل المــاء الــذي يغسلون فيه الأكواب فى الممر ، وعلي النجيل المنحول ، وقد ظهرت تنوة القهوة ، وتفـل الشاى .

رفع رأسه ونظر ... حيث الأشجار ، لم يفلح الهواء ، فى ذر الـــتراب عنـــها، فظهرت بقعة علي الأوراق الخضراء الداكنة ، وثمـــة خيــوط عنــاكب بيــن بعــض الأغصان.

آه .. لو أعفته من الغداء ، لن يستطيع بلع اللقمة ، دون أن يعرف ما انتهوا إليه .

وابتسم لأنه أوضح الأمر فى ثنايا الكلام ، رغم نظرات صفية ، وقد جاءت زوجـة شقيقها . استطاع تدبير مبلغ لا بأس به أثناء خدمته كضابط احتياط .

هل وصل ما قصده ، أن مستقبله ليس متوقفا علي هذه السفرة ، وأنه يستطيع تدبـو أمره . حقا ، لن يعود للتدريس كمدرس محاسبة في إحدي مدارس التجارة المتوسطة . لم يعد يستطيع أن يعيش بمرتب المدرس ، بعد أن تعود علي راتب الضابط الذي يفوقه عـدة مرات . وهو ليس من هواة الدروس الخصوصية ، وحتي لو أراد ، فبعــد هــذه الغيبـة الطويلة ، كيف يخترق مناطق النفوذ ، التى صنعها كل مدرس فى مدرسته ، أو فى حيه. وهل يستطيع أن يعتمد علي التدريس فى مجموعات التقوية بالمدرسة . انخــرط فيــها

مرة ، أعطوه خمسين قرشا عن كل حصة ، بواقع ثلاثة جنيهات ونصف فى الأسـبوع ، ثمن فنجان شاى في أى مقهي الآن ، وربما أقل .

بان أولاد شقيقها من الفسحة ، يلتقطون طرطشة الكلام ، واستحسنت زوجة شقيقها كلامه ، فانتشى ، مقدراً أنها بلاشك تستطيع إقناع زوجها ، الذي لم يُعلق بشئ . فى تلك اللحظة ، لحظة الانتشاء ، زغرت له صفية ..

آه .. " ضربة نشوة " .

كان تشكيل من الدبابات الإسرائيلية ، بقوة سرية ، متقدماً ببطء ، وفاتحا ليضرب ، فى محاولة لردهم إلي حافة القناة . وتلك اللحظة هي نقطة ضعفه ، فأمر العميد جـورج بتوجيه ضربة إحباط .

اقترح عبد السلام علي العميد جورج "ضربة نشوة" .

– نعم يا أخي .. ؟!

وتطلع إلي رئيس عمليات اللواء .

قال عبد السلام :

– قبل أن تصل الدبابات إلي مواقعنا ، سأوهمها أنني فـاتح بتشـكيل للـهجوم ، وعندما تطلق ، ستصمت مدافعي ، وستظن أنها فاجأتني بضربة إحباط ، وسيتخيل العدو أنه نجح، ويصاب بالنشوة ، وانتهز تلك اللحظة ، وهي نقطة ضعـف أيضـا ، وألتـف بقواتي الرئيسية من الأجناب ، ونبدأ القصف .

لمعت عينا العميد الحمراوان ، وتهلل وجهه ، وقال وهـو يتطلـع إلـي رئيـس العمليات:

– والله فكرة ..

وأطرق منتظراً رأي رئيس العمليات ، أو ملاحظة أحد من أركان حربـه . فجـأة صاح :

– نفذ .

نظر رئيس العمليات محذراً ، فارتبك عبد السلام فى داخله قليـلا ، وقـد أحـس بالخوف من اندفاع العميد ، وفي نفس الوقت ، لم يهضم تماما شدة حذر رئيس العمليات.

واعتراه تردد .. تذكر أمر العميد المفاجئ له بالإشتراك فى الهجوم علي القنطرة . حقـــا أربك دفاعات الإسرائيليين عن القنطرة شرق ، من أحد الأجناب ، وقد ركنوا إلـــي أنـــه نيران ثابتة . لكن من جهة أخري حدثت ثغرة فى تأمين عبور المهمات ، لا يدري أحـــد ماذا كان يمكن أن يحدث ، لولا أن تداركت الأمر وحدة مشاه ، كانت تؤمن مؤخرته .

وتابع العميد :

– معك سرية .. أرني شطارتك .. وليكن فى علمك ، لو فشلت الضربـــــة ، لـــن تكفيني .. لا أنت ولا ناسك .

ضحك الضباط الموجودون ، وقال أحدهم :

– ناسه فى شبرا .

عاودوا الضحك ثانية ، وقد وصلتهم تلميحته ، حيث أغلب سكان بعـــض حـــارات وشوارع شبرا من الأقباط .

عقب العميد :

– ولو .. يا " غجر " .

وأمر رئيس العمليات ، بوضع سرية أخري من الدبابت علي أهبـــة الاســـتعداد ، تحسبا لأي طارئ .

فتح عبد السلام تشكيله فى أرض علي حافتها دبابات مدمرة منذ الأمس ، وأخفـــي قواته الرئيسية خلف تبة قريبة . وصممت مدافعه فى الوقت الذي قدره ، وعندمـــا تقـــدم العدو وأخذ فى القصف ، اتسع تشكيل عبد السلام لتشمل أرضه الدبابات المدمرة ، لعـــل الأمر يختلط علي العدو . وعندما لحظ من حركة دبابته أنها تتقدم فـــي زهـــو ، أرســـل إشارة للدبابات خلف التبة أن تنقسم إلي جزءين ، ويتقدم كل جزء من جـــانب . فوجـــئ العدو بالقذائف تحيط به .

هلل العميد، وأخذ عبد السلام فى حضنه ، وهو يقول :

– عفارم يا سُلم .

وعلق أحد الضباط

– لعلهم يقتنعون باستحالة ردنا للخلف .

قال آخر :

- لا أظن .

أحس عبد السلام بزمتة فى الهواء ، فنهض وهو يقول .. ليتها أعفتني مـــن هــذا الغداء .. وتذكر عندما ألح ، نظرتها التى كادت تنطظه . ثبت عينيه فى عينيها ، لتقلـــع، وهي لا ترمش ، بينما يري وجهه فى عينيها ، بشاربه الأسود ، وحاجبيه العريضيـــن ، وشعره القصير الزيتوني فوق جبهته السمراء العريضة ، محرم ، كان عندما يفتش علـــي ذقون الجنود فى طابور الصباح ، لا يرمش أحدهم .

تخطي شارع الثلاثيني ، وقد طالعته أرصفته بزهور صناعية ، فاقعــة الألـــوان ، وأغصان خضراء داكنة ، وخرم باتجاه حي المناخ بالقرب من بحيرة المنزلة ، حيث بنوا عمارات شعبية مكان تلك التى أحرقها البريطانيون فى حرب ١٩٥٦ .

كانت ثمة بيوت قديمة ، ذات بواك وشرفات عريضة خشبية . أخـــذ يتفحصـــها ، خشية أن يضل . صعد السلم الخشبي حتي الدور الرابع والأخير . طرق الباب برفـــق ، وهو يطمئن نفسه ، أنه لم يتأخر عليها ، متعجلا الانتهاء من الغداء ، لتوصيلها إلي باص الإسماعيلية ، وليعرف منها ما انتهو إليه . وسواء وجهت إليه ضربة إحباط ، أو ضربـــة نشوة ، فسيتحلي بالصبر ، حتي يخرجا . فتح له أحد الأولاد ، أســـرعت صفيـــة خلفـــه وقالت :

- تعال .

(٢٤)

ألم تقل :

- أنت بالذات .. لا أريدك أن تزعل مني .

هل كانت تراعي شعوره ، وقد أحست بما يفور داخلـه ، أم أن الموقـف فـرض الكلمات علي لسانها . ولماذا لم تراع شعوره ، حينما تحدث أحدهم علي المقهي ، عـن فيلم جميل فى سينما قريبة ، وحين نهض المتحدث لمشاهدة العرض ، رافقتـه ، دون أن تلتفت إليه . أحس ساعتها بالغيظ وكتم في نفسه .. حقا .. ولماذا لا تذهب .. هل بينـها وبينك شئ بصريح العبارة .. ؟!

رجلا بنطلونه بللهما الماء . حذاؤه فى يسراه . زبد الماء أعلي ساقيه . وطال رذاذ الموج قميصه ، فشف والتصق ببطنه .

نظر إلي يمينه ، فأدرك أنه تجاوز المنطقة التى بها بيته ، وقد ظهرت من خلفـها ذؤابات أشجار الكافور والجازورينا ، باسطة ظلالا هشة علي الدور الواطئة .

كر راجعا ، ليغير ملابسه .

علي باب معسكر الهاكستب ، كان لابد من خلع جميـع الملابـس ، وأن يدخـل الإنسان كما ولدته أمه . تركوا ما يحملونه . فأخذوه فورا لإعدامه . نظـروا جميعـا ، لبعضهم بعضا ، وانفجروا ضاحكين . ليس من العري المفـاجئ تحـت أشـعة شـمس الظهيرة ، وهم يدفعون بهم تحت أدشاش مياه ساخنة . وممنوع الخروج من باب الحمام ، الذي دخلوا منه . ينتظرهم عند باب آخر ، جندي من قوة المعسكر ، يناول كلاً منـهم ، ملابس جديدة ، داخلية وخارجية ، وحذاءً وشراباً . كان ضحكهم علـي هـؤلاء الذيـن احتالوا ، للحصول علي سجائر زملائهم فى الأسر ، حيث كانت العملية رائجة . واشتروا بها بطاطين ، جديدة نوعا ، كان الحراس الإسرائيليون يسرقونها من المخزن ، ليغمـوا بسجائرنا ، بدلا من سجائر "العال" الإسرائيلية الرفيعة ، التى يشحط دخانها فى الـزور .

وكلف المستأثرون ترزية من الزملاء ، فصنعوا من البطـــاطين جاكتـــات بأكمـــام دون ياقات، وأخري دون أكمام أشبه بـــ الصديري . وحين وصلت هدايـــا بـــها بيجامـــات ، اشتراها من فاضت معهم سجائر .

وزاد من ضحكهم ، رؤيتهم لبعضهم بعضا ، يخبون فى ملابس كاكيـــة جديـــدة ، فضفاضة ، ليست علي مقاساتهم .

وكان لابد من المكوث فى الحجر الصحي ، عدة أيام ، حتي يستوثقوا بخلوهم مـــن أية أمراض . وجاءهم محاضر من قبل التوجيه المعنوي ، وسرعان ما انـــهالت عليـــه الأسئلة ..

تستفسر فى حدة عما حدث فى الجبهة فى يونيو ٦٧ وكأنه هو المسئول عما حدث.

وأوسع الضابط من صدره ، وهو يرد عليهم كأنه كان يتوقع ذلك ..

ولكن .. كيف يخفف عمن كانوا فى الأسر .

فى معسكر مؤقت فى بئر سبع ، محاط بالأسلاك الشائكة ، مبذور علي أرضـــه ، كور من الشوك تشبه شوك القنفذ ، وطلبوا منهم أن يجلسوا ..

كانوا ما زالوا يتفحصون أنفسهم .. من نجا .. ومن فقد .. فى الباص الذي أقلـــهم من سيناء ، منعوهم من النظر إلي جانبي الطريق . فجأة يصيح ضابط فـــى عصبيـــة ، مشيراً إلي أحدهم :

- أنت نظرت .

وسرعان ما تلتصق فوهة مدفعه فى رأسه .. فيتكوم مكانه ، تسح منه الدماء .

وفى المعسكر ، صاح الحارس الإسرائيلي :

- هل فيكم أحد " جدع " ..

... ...

- واحد " جدع " ..

قام أحدهم ، فقال له الحارس :

- قل أنا " جدع " .

فقا ل :

- أنا جدع .

عاجله بدفعة من رشاشه .

اشتدت حمية الشمس .. وأوشكت رؤوسهم أن تتقد ، وإذا بضابط إسرائيلي يدخل إلي المعسكر . أجلسهم الحراس ثلاثات فى صف طويل . قال الضابط :

- بينكم ثلاثة فدائيين .. فليخرجوا .

لم يتحرك أحد . جاءت دبابتان ، واحدة من أول الصف والأخري من آخره ، وهرست كل منها ثلاثة أفراد .

زعق الضابط :

- هل سيخرج الفدائيون .. ؟!

- ... ...

عاودت الدبابتان فعلتهما . وزعق الضابط :

- هل سيخرج الفدائيون .. ؟!

نظروا لبعضهم بعضا ، يتساءلون بعيونهم عما يفعلون . خرج ثلاثة من الصف . أطلق عليهم الضابط الرصاص .

انتصف النهار ..ولحظ المحاضر ، أن حدة لهجتهم ، لم تخف .. فأخذ يحدثهم عن تجميع فلول العائدين من سيناء غداة الحرب .. وإقامة دفاعات علي خط قناة السويس .

بعد المحاضرة صرفوهم حتي موعد الغداء .. وفي العصاري .. حين جاء موعد المحاضرة التالية .. تخلف بعضهم .. وسرعان ما تألقت عيونهم ، ورفت بسمات علي الشفاه . بعد المغرب . كانت جماعات ، تتسلل من تحت سور الأسلاك الشائكة المحيط بالمعسكر . وقد اتفقوا علي العودة فى البكور ، أو قبل أن يمضي النهار ، لمن مسافتهم طويلة .

لا يغيب عن ذهن حمدي ، أبدا ، هذا الألق الذي لمع فى العيون ، وقد توقعوا مفاجأة الأهل .. واستبد بهم فضول محرق ، مبهج ، وهم لا يعرفون بالضبط ماذا سيلاقون .

كانوا يجلسون في مقهي ، علي النيل فى طلخا ، أرادت صفية أن تمضى لتلحـــق موعداً خاصاً بعملها . استأذنت من حمدي ، دون الجالسين جميعا . لحظ ألقا فى عينيها ، محملا بالود . تباطأ فى السلام مستمتعا باللحظة ، فاحمرت وجنتاها ، وزاد من غية فـهز رأسه نافياً السماح لها بالإذن ، اتسعت ابتسامتها راجية ، فطارت سدادة نبع الحنان فـــي داخله ، ووجد نفسه تحتويها ، ورأسه تومئ بالإيجاب .

كأنما كانوا نائمين ، وصحوا فجأة .. وجدوا أنفسهم وسط أنوار القاهرة المتألقـــة . أقلته عربة جيشي حتي تماس صحراء مصر الجديدة مع العمران مع اثنين من زملائــه . حاول حمدي، إيقاف عربة أجرة ، لتذهب بهم إلي موقف عربات الأجرة بين المحافظات. يشير السائق إلي عداده ، الذى تلفه فوطة صفراء ، إشارة إلي أنه خارج العمل .

قال حمدي :

– لن يقف أحد لزبائن مقشفرة مثلنا

قال أحد الزميلين :

– يريد زبائن .. فرادي .. ليأخذ من كل منهم ثمن التوصيلة .

وقال الزميل الآخر :

– وتعلن الحكومة كل مدة عن بنديرة جديدة

ضحكوا .. وعقب حمدي :

– العداد لا يؤبه له .

قال الزميلان :

– كنا مستريحين ..

ضحكوا ضحكة ممطوطة . وأردف حمدي ، ضاغطا علي الحرف الأخير :

– لأ ..

تشعبطوا فى إحدى الباصات المزدحمة حتي موقف " أحمد حلمـــي " .. يتفــادون بصعوبة دخول وخروج العربات .. ونداءات عمال الموقف :

– طنطا نفر .. الزقازيق .. المنصورة .

– المنصورة .

أشار أحد المنادين إلي جانب :

- عندك يا دفعة .

قال أحد الزميلين

- ممكن أنزل فى ميت غمر

- تدفع أجرة المنصورة

- وهو كذلك .

ركبوا ثلاثتهم ، وسرعان ما اكتملت العربة . انطلق السائق وهم لا يصدقون أنفسهم . هل حقا هم فى مصر .. وينطلقون علي الطريق الزراعية .. وفي الطريق إلي بيوتهم .. حلم أم علم .. !!

دمعت أعينهم تأثراً . لمحهم الراكب إلي جوار السائق فى مرآة أمامه .التفت إليهم:

- وحدوه.

- لا إله إلا الله .

- تصلون بالسلامة .

" من سيوصل عم عزيز " . ما أن نطق اسم عزيز ، حتي انفجر الواقفون ضاحكين ، وقد غادرهم شعور بالأسي والترقب منذ بدأو الرحلة فى البكور من عتليت خشية أن يحدث ما يعطل رحلتهم . وقفت الباصات المحملة بالأسرى قرب الشاطئ الشرقي لقناة السويس . أنزلهم الحراس الإسرائيليون . حضر مندوبو الصليب الأحمر ، لعمل اجراءات الاستلام . جاءت لنشات من الضفة الغربية لتقلهم . فجأة وجدوا عم عزيز حارس كنيسة القنطرة شرق بينهم :

- الرجال .. الأبطال .. يا مرحباً .

قال ريس أحد اللنشات مداعبا :

- نريدك معنا يا عم عزيز .

- لم يأن الأوان .

- دائما تقول ذلك .

- ليس بيدي .

قال بعض العائدين :

- افعلها واركب معنا .

- بعد أن يمشي الكلاب .

تلفتوا حولهم فى اضطراب ، مخافة أن يحدث ما يعطل الإجراءات . بعض الحراس يجيدون العربية . نظروا لعم عزيز فى غيظ ولم يعلقوا . لحظ عزيز ما اعتراهم ، فأشاح بيده فى استهانة .

قال ريس اللنش الذى ركبت فيه الدفعة الأولي :

- ألا تريد شيئا يا مقدس .

- سلموا لي علي مصر .

وأعطاه بعضهم ، ما معهم من سجائر وملابس . بقيت معهم من الهدايا المصرية التى حملها إليهم الصليب الأحمر . نهاهم الحراس عن ذلك . وأخذوا في إطلاق الرصاص من رشاشات عوزي قصيرة المدي . اقتحم الواقفين ضابط ملوحاً بمسدسه . لم عم عزيز حاجته ، كأنه لا يراه ومشي نحو الكنيسة . وقد بانت واجهتها المخروطية علي هيئة ثلاث ثمانيات ، الوسطي كبيرة . وتحت الثمانيات دوائر مكسوة بزجاج ملون ، علقت به الأتربة . ولاح لراكبي اللنش جانب من الكنيسة ، ظهرت به خروم ، وتساقط البياض عن بعض الأجزاء .. فظهر الطوب الأحمر .

لكز حمدي الجالس إلي يمينه فى اللنش ، وأشار إلي عزيز قائلا :

- الملعون

تطلع حمدي فوجده واقفاً بالباب الخشبي الضخم . لاحت قامته الممصوصة ، ولم يفلح جلبابه الأفرنجي الأبيض الهفاف فى إخفاء عظام صدره البارزة . وقد انحنت رقبته قليلا علي صدره ، وهاشت شعيرات رمادية فى مقدمة صلعته .. يحيط بها هلال من زغب أبيض .

لوح للنش المغادر بإحدي يديه .. وباليد الأخري يوزع ما لمه علي صبية ونسوة بدويات تجمعوا حوله .

لفت نظر حمدي ، عدم وجود رجال وشباب . فأسر إلي جاره في اللنش بملاحظته. قال :

– لحظت ذلك ونحن علي البر ، سألت عم عزيز فأخبرني أنهم يعتقلونهم .

صافحت عيونهم البر الغربي . وأصوات طلقات الرصاص ما زالت تلاحقهم . وكان أخشي ما يخشونه ، وتنطق به نظراتهم القلقة ، أن يصاب أحد ، أو يموت ، وهو علي وشك الوصول إلي بيته ، وقد انتهت الحرب بالنسبة له منذ دقائق .

كان في استقبالهم ضابط برتبة لواء ، ومعه ضباط برتب كبيرة . سلموا عليهم بحرارة ، وكان الدمع يطل من عيونهم ، لكنهم يتماسكون ، بينما العائدون ، لم يملكوا أنفسهم ، فاغرورقت عيونهم بالدموع ، وقد صعبت عليهم نفوسهم فجأة ، وتجمع ألم ثمانية شهور في الأسر في لحظة واحدة . حاولوا التخفيف عنهم بكلمات الترحيب ، وحمداً لله علي وصولهم بالسلامة . قدموا لكل منهم علبة "جاتوه" ، وعلبة بها شطائر كباب وكفتة ، وزجاجة مياه غازية مثلجة .

وصحبوهم بسرعة ، بعيداً عن شاطئ القناة . وكانت الباصات في انتظارهم في القنطرة غرب . ما أن تكتمل إحداها ، حتي تنطلق . علي جانبي الطريق المسفلت حفر عليها شباك مموهة ، وبداخلها جنود نصبوا المدافع ، ويرتدون الخوذات ، وعليهم شدة الميدان . نهض الجنود من تحت الشباك ، ولوحوا لهم بالبنادق .

– حمداً لله علي السلامة .

– شدة وزالت .

لم يبتعدوا كثيراً ، عن القنطرة غرب ، حين دوت طلقات المدافع . أخبرهم الجنود المرافقون ، أن الاشتباكات عادت من جديد .

من طرطشة الكلام ، التفت السائق إليهم ، كأنما ليتأكد أنهم بشر مثله . تبادلوا النظرات ، وعمهم صمت ، جعل كلا منهم يغرق في أفكاره .

ما أن صعدوا إلي الباص الذي أقلهم من رفح سيناء إلي داخل اسرائيل ، حتي أمرهم حارس بقرب باب الدخول ، بالهتاف : " يسقط ناصر " .

تبادلوا النظرات ، وتململت أيديهم فى قيودهم خلف مقاعدهم . أطلق الحارس دفعة من رشاش عوذي . مالت أجساد بعضهم علي الكراسي ، وسالت الدماء علي أرض العربة . قال الحارس فى صوت أجش :

– يسقط ناصر .

خرج صوت بعضهم ضعيفا :

– يـ سـقـ .. ط .. نا .. صر .

توقفت العربة عند منعطف .. وصعد شاب غاضب فى ملابس مدنية ، وفي كتفه مدفع عوذي . تصفح الوجوه ، كأنه يبحث عن شئ ، فجأة أطلق دفعة من الرصاص . قال السائق وكان مدنيا ، دون أن ينظر ناحيتهم :

– قريب له مات فى الجبهة .

زعق الحارس :

– عاش السيد ديان (وزير الدفاع الإسرائيلي)

تفادوا النظر إلي وجه الحارس ، وخيل إليهم أن أجسادهم تتداخل فى الكراسي .

أطلق الحارس دفعة من الرصاص فوق رؤوسهم اخترقت إحداها رأس الجالس بجوار حمدي .

خرجت أصواتهم واهنة ، فأطلق الحارس دفعة جديدة من الرصاص وحثهم علي رفع أصواتهم .

– يـ .. سقـ .. ط .. ناصر ..

ولم يستطيع أي منهم النظر فى عيني زميله .

الرئيس عبد الناصر ، الذي أحبوه واعتراهم الحماس خاصة وهو يهدد ويتوعد فى مؤتمر صحفي عشية حرب يونيو ، زاعقا فى صحفي انجليزي أنه ليس خرعا مثل ايدن رئيس وزراء بريطانيا .. وبعث صوته الواثق الحمية فى أبدانهم وهم فى معسكراتهم ، وأنهم سوف يهزمون إسرائيل لا محالة .

فوجئوا بالدبابات الإسرائيلية تقتحم مواقعهم وهم من المشاة . وطاردتهم طائرات المستير فى صحراء مكشوفة ، وأمطرتهم بطلقات مدافع الفيكرز ، وليس فى أيديهم سوي

تسليحهم الشخصي من مدافع قصيرة المدي . وحاول من معه بندقية سريعة الطلقات الإطلاق علي الطائرات . لكن انقضاضها أسرع ، ودويها عند الاقتراب يصم الآذان ، وينظرون بأسي إلي مدافع الميدان ، غير مهيأة للعمل . كانت محملة علي المقطورات الخاصة بها ، استعداداً للرحيل إلي موقع آخر . وهم بالأمس فقط حضروا إلي هذا المكان .

الأسطولان الأمريكي والبريطاني ، قريبان من أرض المعركة ، يوحيان بتكرار ماحدث فى ٥٦ ، مع فارق أن أمريكا حلت بدلا من فرنسا ، وحيث احتل الفرنسيون بور فؤاد ، والبريطانيون بورسعيد ، ومن خلفهما القوات الإسرائيلية فى سيناء . وأذاع الرئيس الأمريكي تحذيرا بمغبة من يبدأ بالهجوم .

فى يوليو عام ١٨٨٢ وقف الأسطول البريطاني أمام ساحل الاسكندرية . أسرع عرابي لترميم طوابيها القديمة ، وإصلاح مدافعها عتيقة الطراز ، وكان مدي قذائف أغلبها ، غير مؤثر علي السفن .

أرسل قائد الأسطول تحذيراً من مغبة العمل فى الطوابي ، لأن ذلك يهدد سلامة سفنه . وكأنما خشي الأدميرال أن يسأله أحد : ولماذا أتيت من بريطانيا علي بعد مئات الأميال ، أسرع بإطلاق مدافع بوارجه . اشتعلت النار فى بيوت الإسكندرية ، وأسرع الجنود البريطانيون إلي البر .

وكان بعض القادة قد حذروا من وجود قوات بهذه الكثافة فى سيناء ، دون عمل ، خشية أن تنتقل المبادرة إلي اسرائيل .

وفي صباح السابع من يونيو صدرت الأوامر بالإنسحاب .

- يسقط عبد الناصر .

وصلت العربة إلي قرية ميت غمر . نزل زميلهما . ورفض السائق أخذ الأجرة .

ودع حمدي زميله .. وغرق ثانية فى أفكاره ..

لا .. لم أهتف أبدا يسقط ناصر .. كنت أحرك شفتي فقط .. كان الحارس فى مواجهتي .. ربما يكون صوتي قد خرج ضعيفا .. مجاراة للظروف فقط .. وهل معقول أن أهتف بحياة ديان .. لا .. أنا متأكد أن صوتي لم يخرج أبداً .. خرج .. لا أعتقد .

وعند أجا نزل زميله الآخر . حاول إعطاء السائق أجرة نفرين فـأبى أن يـأخذ شـيئاً .
اعتدل حمدي في جلسته ، وحاول أن يفرد رجليه .. يلازمني سوء الطالع دائماً .. عندما أنزل أعطيه أجر ثلاثتنا .. وغبط نفسه ، لأنه احتاط وأخذ سلفة من مقصـف المعسـكر أكثر من زميليه . وعند سندوب ، علي مشارف المنصورة ، سأل السائق عـن موقـف عربته .. وهل سيدخل إلي المدينة عن طريق كوبري سندوب .. أم سيلف من المدخـل الآخر . قال السائق :

– أين بيتك ..

– بالقرب من ميدان الشيخ حسنين .

لف عجلة القيادة ، ليعبر الكوبري ، غير مصغ لكلامه ينهيه إذا لم تكن طريقه .
توقف عند الميدان . ناوله حمدي أجرتهم جميعا فأبي .

– لا ذنب لك .

بكف السائق اليمنى أطبق يده علي نقوده ، وهو يقول :

– عيب .

وجد نفسه وحيدا في الميدان ، في مواجهته جامع الشيخ حسنين صامتا . وتنبعـث من جنبات الميدان إضاءة خافتة ، وقد أوشك الليل علي الانتصاف . حركت ريح هينـة أغصان أشجار الحديقة التي تتوسط الميدان . طالعته نخله قصيرة ، ذات فروع عريضة. نخلة ملوكي لا تسمق مثل النخيل العادي . وسط الحديقة عامود ، أعلاه مصابيح عليـها قبعات زجاجية مصنفرة ، مكورة ، وبانت أوراق الفروع ريانة . بالتأكيد لا تقترب منـها كثير من الحشرات ، فهي لا تثمر بلحا يغريها . كان يحلو له قبيل الحرب ، أن يسـتريح مع بعض زملائه ، بجوار ثلة من النخيل . وكان السيناوية يحضرون نملا مـن الجبـل يسمونة المقاتل . ويطلقونه عند جذوع النخيل . فيصعد ليلتهم أعداء البلح من دود وسوس أحمر .

وحتي يقطعوا دابر السوس ، أحضروا قططا ، لترشدهم إلي المسارب المؤدية إلـي جحور الفئران ، حيث يحلو للسوس الأحمر أن يضع بيضه فيها لتتم أطواره .

(٢٥)

والمساء يضع عباءته ، أحس حمدي لسعة برد خفيفة . اتجه إلي مقصف الفنـــدق ، حيث يحجز الزجاج عن البحر والهواء . مني النفس برؤية سمية . نظر فـــي ســـاعته ، وتساءل .. هل سلمت .. ؟!

رفع رأسه ، فوجدها أمامه . ابتسامة ، تخايل وجهها :

– أفندم .

تخلص من وقع المفاجأة ، وقال :

– ممكن أعزمك علي حاجة ساقعة .

– ممنوع أثناء العمل .

إجابة لا تتضمن عدم الممانعة .

– بعد انتهاء نوبتك .

– ممنوع في مكان العمل .

– مكان آخر .

– ماذا تريد .

– الكلام معك

ضحكت وقالت :

– ماذا تريد أن تشرب

– أجيبي ينوبك ثواب

– عندك أمي

– ألا نتفق أولا .

نقرت بالقلم علي مفكرتها .. وأشاحت بوجهها عنه :

– أسرع :

– شاي سكر خفيف .

وهي تقيد الطلب ، انزلق قلمها الصغير من بين أصابعها ، علي الترابيزة ، أسرع بمناولته لها ، فتماست الأصابع . سري فيه تيار من دفء ناعم ، مبطن برغبة مبهمة . رمقته بنظرة جانبية سريعة . أتراها تتساءل .. هل حدثت اللمسة .. بقصد .. أم صدفة . وهي تسحب النظرة ، أحس فيها بدلال ، واعتزاز ، وتحذير .

أولته ظهرها . تأمل مقعدتها المكتنزة . استعاد نظرتها ثانية ، محاولا ، سبر أعماقها . عيناها صفراوان ، بهما لمعة بنية ، غير ما انطبع في ذهنه عنهما سابقا ، أنهما عسليتان . لا .. ليست اللمعة بنية ، ولكنها داكنة اصفرار بلح أمهات ، استوي علي أبيه ، أشع فيه ألق الأنثي ، فبدا أشبه باللون العسلي .

وبان له وجهها ، أكثر استطالة ، مما قدر سابقا ، وأحس بوجهها ولا يدري كيف ، أكثر ألفة مما بدا سابقا .. وأقرب إلي النفس .

أحضرت مضيفة أخري الشاي ، فأدرك أن سمية غادرت . لفت نظره أن جمالها طبيعي ، دون مساحيق .

وبعدها معك ..

رأيت فتيات راعني جمالهن ، وعلمت أن بعضهن يهوديات . وكان بصحبتهن طلبة من كلية طب قصر العيني ، يوزعون الصابون علي الفقراء ، ويتحدثون عن النظافة ، حتي يمكن دفع الكوليرا ، التي تفشت في مصر ، عشية حرب ٤٨ في فلسطين . والناس يرحبون بهم ، ويقدمون الشاي .

سألت :

– من هؤلاء .. ؟

– شيوعيون .

البيت يعرف من عنوانه . لابد من محادثة الأم . لكني لم أحسم أمري بعد . ولا أريد أن أعد بشئ .

هل ستقبل الأم ، خطوبة غير معلنة ، فإذا حصل توافق ، وثقنا العلاقة ، وإذا لم يحدث ، فهي القسمة والنصيب .

تردد .. هل يذهب أم لا ..

تردد في الذهاب لتوديع حمدية ، عندما غادرت فى آخر باص ترك العريش مساءً. خشي النظر فى عينيها خاصة وهذه ثاني زيارة لهاَ،وكانت عنده من وقت قصير ، وهو لم يحسم أمره. كل ما وعدها به أنه سيحضر فى القريب . وعليها أن تبحث عن شقة بسعر معقول . لوت شفتيها ، ولسان حالها يقول .. وهل يوجد سعر معقول .. ؟! .. غير المعقول لك، معقول لغيرك .

يا ناس .. هل أذنبت لأن راتبي لا يكفيني .. ؟! حصلت علي مؤهل عال .. وذاكرت وحصلت علي ماجستير ، رغم الاعتقال والتجنيد والأسر ، وحاليا أقوم ببحث .. ومن يدري .. أى بحث وأي ماجستير .. ارحل إلي بلد عربي .. حيث الأجر ضعف راتبك ، اسم الله عليه ، عشرين مرة علي الأقل . وتعال .. كون نفسك .. الآن ..علي مشارف الخمسين .. وهل طلب منك أحد تضيع عمرك.. وتقول لي بحثا .. آنست يا أستاذ بحث .

هل أريح نفسي ، وأوافق علي زواج حمدية . وأحضر أمي لتقيم معي . سيقول الناس ، ناسب لحام أكسوجين . وحمدية بصراحتها المعهودة .. أنت لا تهمك مصلحتي ، كل ما يهمك ماذا سيقول الناس عنك . ونسيت أو تناسيت أننا أبناء مدرس إلزامي وأن عمك ميكانيكي .

ترك عمي العمل مع الإنجليز ، مع باقي العمال الذين رفضوا العمل في معسكرات الجيش الإنجليزي بخط القناة ، بعد إلغاء النحاس باشا لمعاهدة ٣٦ للصداقة مع بريطانيا .

عينهم النحاس عمالاً فى المدارس والمصالح الحكومية المختلفة ، وطالب الإنجليز بالجلاء عن قواعدهم في قناة السويس .

لماذا لا يترك العمال الفلسطينيون العمل فى المصانع والمستوطنات الإسرائيلية . أم تراهم لا يودون أن يخيب رجاء بريطانيا ، وهي التي عملت علي إنشاء إسرائيل ، لتقيم فيها مصانع تعتمد علي العمالة العربية الرخيصة .

فضل عمي العودة إلي قريته ، إلي جوار المنصورة ، يفلح قطعة أرض صغيرة ، ورثهاعن أبيه .

حاول وضع الحقيبة فوق الرف . حالت المسافة الضيقة بينه وسقف العربة دون ذلك . وضعها تحت مقعدها ، وقلبه يرتجف خشية أن تتفوه حمدية بشئ يجرحه .

وضعت صفية الحقيبة تحت مقعده ، في محطة الباص . وجرت تسلم علي أصدقائها ، ولم تقل له حتي خلِ بالك .

راقبها ، وهي تتنقل كالفراشة ، قبل أن تبدأ رحلة إلي مرسي مطروح مع زملائها في العمل . فكر أن يسلم وينصرف .

تريث ، ولام نفسه بعد ذلك . لاشك أنها انطلقت علي سجيتها ، واثقة بأنه لن يغفل عن حقيبتها . لا . لا. يا ست هانم ، لن أكون الحارس الأمين بعد ذلك .

- سلام يا حمدية .

وهي علي وشك الكلام .

- وحياة أبيك ، لا تقولي شيئا .

ضحكت ، وتأملته بعينيها الصقيتين .

وهو يغادر ، طالعته ، لوحة خلف مقعد السائق ، عن آثار الأقصر ، وبالخط العريض " نبع الحضارة " . وتذكر النقاش الدائر في بعض الصحف عن صراع الحضارات .. وهل هو صراع أم تعاون وتكامل .. وانبثق في ذهنه مقال بهي الدين عن تخلفنا الحضاري ، الذي سبب الهزيمة . لهم حق يعالجونه في مستشفي البحرية الأمريكية . عالجوا أم كلثوم في نفس المستشفي ، لا ، هذه ضربة معلم ، لينالوا شعبية علي حسها .

وهل لهم حضارة ، أولئك المجلوبون من شوارع أوربا ، ومتي عملوا حضارة ، في فلسطين ، ولم يمض علي هجرتهم إليها أكثر من عقدين أو ثلاثة من الزمان .

غادر المحطة ، وهو يردد في سخرية :

فلسطين يفدي حماك الشباب .

فلسطين تحميك منا الصدور

قفز فجأة في الهواء ، إثر فرملة زاعقة من مرسيدس .

- فتح يا " أستاذ " .

لم يتفوه بشئ وقد أصبح فى نصف ملابسه .

سارت العربة ، وقد نفثت فى وجهه ، دخانا أسود . مرسيدس أربعة أبواب ، وتعمل " بالجاز " ، مستوردة من إسرائيل ، ويقول بعض السائقين فى العريش ، أن اسرائيل تعطيها لمن يطلبها مجانا ، فقط تعطيه جهاز تسجيل ، ليسجل أحاديث الركاب ، وأن يسلمها الشريط ، كلما امتلأ .

ترك الميدان ، الذي تحرك منه الباص ، ومشي فى الشارع الرئيسي ، وقد بدأت المحال والمقاهي ، تنير أضواءها ، مزيحة غبشة المساء . أحس بأسي يتغلغل فى كيانه . لم يفلح في إرضاء حمدية ، وقد جاءت تستنجد به . ومن قبل لم يفلح في نجدة عم الهواري ، معاشه لم يتجاوز اثنين وأربعين جنيها ، بينما معاش المساعد أول الآن مبلغ وقدره ، كتب له شكاوي ، وكان الرد : أنت استقلت ، وكان يقول له : هم فتحوا باب الاستقالة . وحاول أن يجعله يفيد من التأمين الصحي عندما اشتد عليه المرض ، فاصطدما بعقبة الاستقالة مرة أخري .

التقاه بعدها ، لم يجده ميالا للكلام ، وقد تدلت شفته السفلي المكتنزة ، واحترقت قمحية بشرته ، وفقد هيكله الضخم شدته ، وانطفأت من وجهه اللمعة الباهرة ، عندما كان يحكي عما فعله فى ٧٣ . فطن إلي كثرة العربات والمؤن ، وخمن أن في الأمر شيئا . جمع من حول موقعه علي ساحل البحر الأحمر ، العلب الفارغة ، والزجاجات المهملة ، والمكسورة . فهذه الأشياء تعكس أشعة الشمس ، وفي المساء تومض ، إذا سلطت أضواء كاشفة ، فيظهر الموقع .

أحضر تموينا إضافيا من الوقود ، لتشغيل مكنات الديزل ، لمحطة الرادار . وضحك عم الهواري حين ذكر الضابط الذي قال أنه معين فى غرفة العمليات ، ولا يريد أن يظل بالخارج . كان الإسرائيليون وقد ألقوا صواريخ صغيرة فى حجم الإصبع ، تصطاد الأفراد .

وعندما سقط صاروخ ضخم علي باب الملجأ ، طلب هذا الضابط أن يكون بالخارج .

انحرف فى شارع جانبي إلي يمينه ، متفاديا المارة والمحال . تُري .. ماذا قالت حمدية لنفسها عنه . وماذا قالت بنت الهواري عنه . أتراها لحظته يوم السوق . وهو يداري نفسه منها . تنبه إلي نفسه ، وقد انبسط أمامه خلاء رملي يحيط حافة العريش الشرقية ، ولاحت علي البعد أشجار عالية .

رفرف طائر فى الجو . ما الذي أخره عن المبيت ، ومعالم الأشياء توشك علي الضياع .

مر الطائر فى اتجاه الجنوب . هل بجناحيه مستطيلات سوداء صغيرة ، أم يُهيأ لي. وقدر جسده في حجم حمامة كبيرة . حاول أن يستعيد هيئة منقاره ، لكن مروره الخاطف، لم يجعله علي يقين ، وإن رجحه صغيرا معقوفا .

أتراه .. صقر الباز .

من مدة لم يره ، أو يخبر عنه أحد . كان يتواجد دوما قرب الشاطئ ، يحميه من الطيور المهاجرة . هل تكاثرت عليه ، فنزح جنوبا إلي جحور الجبال .

هل عاوده الحنين ، فخرج إلي الشاطئ أم طار يبحث عن شئ لصغاره ، ولما داهمه المساء ، أسرع عائداً إلي أفراخه .

(٢٦)

قالت صفية :

– حفلة شاي ، قاصرة علي أفراد قلائل من كلتا العائلتين :

وقال عبد السلام :

– بعض الزملاء القدامي ..

– لست صغيرة ، وليست أول مرة .

– علي الأقل اللواء چورج .

– لو بدأنا لن ننتهي .

– وحمدية .. من العائلة .. ؟!

– زميلة ، وأكثر من أخت ..

– وماذا عن حمدي .. ألن ندعوه .. ؟!

توقفت في الكلام ، ومالت بوجهها إلي جانب ، ونشع احمرار خفيف علي وجنتيها.

قال :

– أم زميل قديم .. سأدعوها .

ألقت الطائرات قنابل عنقودية . قلنا : طائرات أمريكية . اسرائيل ليست عندها قنابل من هذا النوع .

وحتي إذا زودوها بها علي عجل أثناء الحرب ، فهل يستطيعون استخدامها دون معرفة سابقة . تنفرط القنبلة إلي كرات صغيرة ، تشبه كرات التنس . كل كرة إذا اصطدمت بأحد ، انفرطت إلي حبات صغيرة من البلي ، كأنها طلقات رشاش ، تنطلق في كل اتجاه في وقت واحد ، ترشق في عدة أماكن من الجسد ، يتهدل الجسم الحي ، وينبثق الدم ، ويصعب وقف النزيف . كان هذا الزميل ، خبير مفرقعات، يجمع هذه الكرات برفق ، ويأخذها إلي حفرة بعيدة ثم يفجرها . ومن كثرة تعوده ، اكتسب ثقة

زائدة ، جعلته يمشي علي مهل . وذات مرة تعثر ، فاصطدمت كرة بجسده . لو ترك حمله يتدحرج ، لدمر الموقع كله . أحاطه بيديه ، وحدب عليه بصدره ، وجري بعيدا ، انكفأ علي وجهه ، فدوي انفجار هائل .

اعترض عبد السلام علي إقامة حفل زواجه فى شقة شقيقها . بيت قديم ، ربما لا يتحمل ما قد يفاجأون بهم من حضور، كما أنه لا يريد أن يضيق علي الرجل وعياله .

قالت فى حزم :

– اتفقنا علي عدم عزومة أحد

– الأمر لا يسلم من مفاجآت .

كانت المفاجأة النقطة ١٤٩ ، وهم يقتربون من ممر متلا ، استولوا علي نقطتين حصينتين في أربعين ساعة تقريبا ، وهذه قاومت ، رغم قذائف المدفعية التي انهالت عليها. ومع أن أشعة الشمس مسلطة فى عيون الإسرائيليين ، ظلوا يضربون . أحدث الضرب خسائر عالية فى الكتيبة ، الجناح الأيمن ، لقوة عبد السلام فاروق . إذا استمر معدل الخسائر ، سوف تتكشف الميمنة . طلب قصفة مدفعية ثقيلة مركزة . كان له ما أراد ، ومع ذلك ما زالت النقطة تضرب عليهم ، كأن شيئا غير مرئي ، يوجههم للضرب علي مواقعهم . ويمنتهي الدقة .

بينما هم فى حيرة من أمرهم ، نبههم أحد الزملاء إلي نقطة المراقبة الدولية . قال عبد السلام :

– أمعقول .. ؟!

– ولم لا ..

أرسل عبد السلامضابطاًويضعة جنود ، للتحري . أخرجوا من فى الموقع . أحد عشر ضابطا كنديا ، وضابطان إسرائيليان ، وقد رفعوا أيديهم إلي أعلي . أه.. الضابطان يوجهان الضرب للنقطة ١٤٩ . أرسلوا الجميع إلي الخلف ، وفي المساء تقرر شن هجوم صامت علي النقطة بالمشاة فقط . التزمت باقي القوات الصمت طوال النهار ، وبعد العشاء ، تسللت وحدة من المشاة ، وبعد ساعتين ، أبلغتهم ، استيلاءها علي الحصن . ومن استجواب من بقي حيا ، تأكد لهم أن الضابطين الإسرائيليين ، كانا السبب فيما

فعلته النقطة ١٤٩ ، وهي وحدة قيادة ، بها أجهزة تكييف ولاسلكي ، وأكثر من مئتي سرير .

لماذا تتشف صفية رأسها . لم يستطع أن يصدق أنها هي نفسها في لحظات اللطف والصفاء هل يتراجع ولم يزل في مفترق الطرق . وهل هذا وقته . وماذا لو كان اللطف ليس ثوبها الحقيقي ، وتتشيف الرأس ثوبها الدائم . هون الأمر علي نفسه ، أن الحياة من هذا وذاك . كان من المهم بعد احتلال القنطرة شرق السيطرة علي مفترق الطرق ، أهمها الطريق الشمالية من القنطرة إلي العريش والطريق الموازية للقناة حتي بورفؤاد ، وهذه المنطقة مهمة لإسرائيل لسيطرتها علي مدخل الاتجاه التعبوي الشمالي ، ولحماية حصون دوريا وكيتوبا وميلانو ومفربكيت ، وعلي بعد حوالي ثمانية كيلو مترات، قوات احتياط لشن هجمات مضادة . في المفترق وقف ضابط يوجه القوات إلي خط السير . فجأة وجد عبد السلام قواته في الطريق إلي سهل الطينة ، وهي أرض منخفضة سبخية ، ممتلئة بالمياه، تحدها من الجنوب منطقة رملية مسطحة ، تمتد لمسافة عشرة كيلو مترات ، صالحة لسير المركبات .

كيف لم ينتبه وهو الذي يحفظ أرض المنطقة جيدا ، وعسكر في مواجهتها زمنا ليس بالقليل . عند بدء الحرب ، تحركت قواته من قطاعه غرب القناة ، إلي القطاع المقابل في الشرق . وهكذا فعل الجيش كله . وبهذه البساطة لم ير الإسرائيليون قوات كبيرة ، تنقل من مكان إلي آخر ، استعداداً لشن الهجوم ، وبالإضافة إلي ذلك كان الخبر مخفيا عن الجيش المصري ، فكيف سيعرف به الجيش الإسرائيلي .. ؟!

توقف وتطلع إلي الخلف . القنطرة شرق رابضة علي مسطح من الرمال الثابتة ، وأمامها شرقا منطقة مفتوحة بها هضاب رملية صغيرة .

ذهب به الضابط إلي منطقة القتل . استعاد صورته في ذهنه .. يرتدي ملابس مصرية ويضع شارة الشرطة العسكرية .. سرعان ما انهالت عليه القذائف، وجاءه صياح العميد جورج في اللاسلكي :

– أين تتجه بقواتك .. ؟

فخ ، ود لو يعود بسرعة ، ليقبض علي هذا الضابط ، مؤكد اسرائيلي متسلل . تراجع بسرعة ، محاولا إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، أصيب جنزير دبابته ودارت حول نفسها ، قفز منها ، وطلب من القاذف أن يستمر فى الضرب لحماية انسحاب باقي الزملاء . أسرع إلي دبابة قديمة تحرس مدخل أحد المعابر ، سبق استخدامها فى الحرب العالمية الثانية ، قفز إلي داخلها ، وأمر طقمها بالتحرك . مدفعها يحتاج لمجهود فى ضبطه ، وباقي الأفراد يعترضون علي انضمامهم لتشكيله ، فالمدفع مداه لا يزيد عن مئة متر ، بينما الدبابات الإسرائيلية من طراز باتون ومدفعها مداه واحد ونصف كيلو متر ، وفي العمر الأول ، ويستطيعون إصابتهم بسهولة . وإزاء إصراره علي اللحاق بقواته ، رضخوا له ، بينما كان يصرخ فى اللاسلكي ، طالبا طلعة طيران . وعندما مرقت الطائرات فوق رؤوسهم ، تنفسوا بارتياح .

تراجعوا إلي منطقة آمنة . وجاء العميد جورج يتفقدهم . كانوا واجمين ، يقرأون الفاتحة علي أرواح الشهداء . وقف إلي جوارهم ، وفتح كفيه إلي السماء ، يقرأ معهم .

وحين أنزل كفيه ، تساءل .. هل بكر فى الدفع بسرية عبد السلام فاروق . تغضن وجهه ، وهم يتطلعون إليه . قال :

– من مات .. يرحمه الله .

وأشار بيده ، فصعدوا إلي الدبابات . طلب قصفة مدفعية مركزة علي الحصون الإسرائيلية وعلي الطرق خلفها ، ليقطعها علي الاحتياطي . وظل متحفزاً ، لا يطاوع نفسه ، كأنما يؤكد لرئيس العمليات ولأركان حربه ، أنه تروي تماما ، قبل البدء بالهجوم. وعندما قدر أن الحصون انعزلت عما حولها ، وأن الإسرائيليين قد طأطأوا رؤوسهم خلف مدافعهم ، لا يستطيعون رفعها ، من شدة القصف ، أعطي الأمر بالتحرك.

تظاهر بمطاوعة صفية وهو يغادرها ، واعتزم فى نفسه دعوة اللواء جورج ، علي الأقل ، يحضر معهم قراءة الفاتحة .

(٢٧)

فى الصباح الباكر ، بادر أصحاب المحال بفتحها ، ورفعوا الأعـــلام المصريـــة . وتخللت الأشجار مصابيح ملفوفة بورق سوليفان أخضر وأحمر وأزرق وأصفر ، وتدلـت كرات فضية وذهبية ، عكست أشعة الشمس الهينة .

وسرعان ما استيقظ سوق الخميس . افترشـــت السيناويات الأرض ، ورصصــن أمامهن ثياباً بألوان زاهية ، وبجانب سور مبني ، قصير ، علق بعضهم شماعات ، عليها ثياب التدريب الرياضي . وفوق أقفاص من الجريد فرش أحدهم ملاءة ، وضـــع فوقــها زجاجات من العطور ، مختلفة الأحجام ، وعلباً من الكريم ، لها علامات متعددة . وفـي جانب فرشت سيناوية قطعة من الخيش فوقها كوم من اللوز السيناوي ، صغير الحـب ، وأمامها ميزان ، وغير بعيد منها جلست سيناوية أخري ، وأمامها أعشاب مختلفة .

بزغت الشمس أكثر ، وبدأت تتخلي عن ستر لهيبها ، لكن السيناويات . لم يتخليـن عن البراقع الحمراء ، التيتتسدل فوق وجوههن ، وقد أخفي مثلث مـــن قصبـة ذهبيـة أنوفهن ، وإن برزت عيونهن السوداء ، وجوانب وجناتهن المشــربة بســمرة خفيفـة . وتتوسط البراقع دوائر ذهبية . فى حجم قطع العملة المعدنية الصغيرة ، وتنتهي بثلاثـــة صفوف من نفس المعدن ، مستعرضة ، عند نهاية صدر جلبابها الأسود . المزركـــش ، بطيور ملونة ترفرف ، وعند الوسط حزام به دوائر زخرفية ، بنسيج ملـون ، والكمـان زرقلوان ، من قماش فانلة ، وبعض السيناويات يُحطن رؤوسهن بمنديل من نسيج رقيــق أسود ، يتكلي طرفه علي صدرها ، فيخفي جزءً من زركشته ، ويلف بوجنتيها ، فيــبرز البرقع أكثر . وعيونهن جميعا ، تناديك ، وهن يتوقعن ألا تخيب رجاءهن همـس سـعد للباشمهندس :

– عجبك شئ .

– والله ما أنا عارف .

رجاء أن تعرف ، ودعك من ترددك .. الشتلة ، إذا كانت علي وشك الإزهار ، من الصعب ملسها من الأرض ، وإذا زرعتها فى مكان آخر ، ستزوي وتموت . فإذا أردتها أن تصح فلابد من نزعها بصلاية كبيرة من الطين حولها ، والتربة هنا رملية ، فإذا انتهت مأموريتى ، هل ستوافق ، وهل ستوافق أمها ، أن ترحل معي ، أم سترفض كما فعلت مع السكندري حين نُقل إلي بلده .

" يا عمُ ، وقتها تكون صلاية من العشرة ، وربما من طفل ، ومن الألفة قد تكونت .

عربة يد ، عليها أقمشة وملابس وقمصان ، مصنوعة فى تايوان وهونج كونج ، وعلي جانب من العربة ، وضع البائع صورة كبيرة مبروزة للرئيس السادات .

وطالعتهم الأعلام الصغيرة ، فى جوانب العربات ، ولاحت الكبيرة ، مرفوعة علي واجهات المحال ، فى ذكري جلاء الإسرائيليين عن سيناء .

كان يحلو له وهو صبي ، أن يمشي مع أقرانه ، فى شارع السكة الجديدة بالمنصورة بعد الخروج من المدرسة ، يغازلون الفتيات ، ويشاهدون المعروض فى واجهات المحال . وعشية إحدي الاحتفالات بذكري ٢٣ يوليو ، ذكري استيلاء " الضباط الأحرار " علي السلطة ، كان مخبر يسير ومعه خيزرانه . يخبط جانب باب كل محل ، ويقول بصوت أجش : علق العلم . لا يجيبه صاحب المحل ولا ينظر إليه ، كأنه كلم أحداً غيره ، ويظل المخبر يتلكأ ، وعيناه جامدتان علي صاحب المحل ، حتي يعلق العلم علي سارية تطل علي الشارع ، مائلة فى جانب من باب المحل .

وفي اليوم التالي ، حيث الرئيس عبد الناصر ، سيلقي خطابة المعهود فى هذه المناسبة ، قبل العرض العسكري ، الذي يسهب المذيع فى وصفه ، وفي استعراض قواتنا العسكرية ، يطوف المخبر ، مرة أخري ، ليتأكد أن الأعلام ، ما زالت مرفوعة ، ويفاجأ الأولاد ، أن أغلبها اختفي . يتراخم المخبر ، حتي تعود الأعلام إلي سواريها . ولا يدري حمدي ، لماذا انسحب من لسانه ، أمام أحد المحال ، تجاهل صاحبه المطلوب منه، والمخبر لا يتعتع ، وقال : ليس عنده . ركب المخبر شيطان ، وتخلي عن بلانته ، ورفع خيزرانته ، التى طالت ظهره ، وهو يقفز جاريا ، يلاحقه زعيقه : وأنت مالك يا ابن الكلب .

جمع من النسوة ، علقن أكلمة صوفية ، صناعة يدوية ، تمازج فيها البني والأصفر بدرجاتهما ، راحة للنفس والعين . وضع راحته خلف ، إحداها:

- صوف .

- جملي وخراف .

قلب فى حقائب مشغولة بمنمنمات من الخرز الملون . أمسك واحدة ، وقد أشـــرق وجهه .

- من غير فلوس .

تمتم سعد ، وحمدي يعرض عليها ما تريد من نقود دون مساومة :

- أخيرا

وأخذه من يده ، إلي جمع آخر من النسوة ، يعرضن عقودا من الخرز والكـــهرمان الأحمر النقي ، والفيروز ، أخضر ، فاتح وغامق ، يشع بعضه بأزرق سماوي ، ومجزع بخطوط هشة سوداء . ومشغولات معدنية . تناول حمدي إحداها وقال :

- فضة

- مطلية

وناولته ، أسورة ، وقالت :

- فضة ، وقيمة .

تأمل حمدي نقوشها الرقيقة ، متفهما ، ومساوما . ولفــت ســعد نظــره لأحزمـــة عريضة ، مشغولة بالكانفاه فى أشكال زخرفية ، مربعات ومثلثات ، وتتدلي منها خيــوط ملفوفة بخرز دقيق أزرق وأخضر .

- بكم الحزام .

همس سعد :

- يسمونه سيرا

قالت المرأة :

- بما تأمر به .

ضحك حمدي ، وقد لفت نظره أن أكمام هاته النسوة ليست من قماش فانلة ، ولكن من قماش أزرق وأخضر قاتم ، عليها ورد أحمر وبمبي .

انتقي سعد سيراً لندا ، ولحظ تردد الباشمهندس فى الشراء ، فأشار إلي العقـــود . انتقى حمدي إحداها ، ولحظت المرأة الجالسة أمامها شغفه ، فقالت :

- كهرمان ، ليس له أخ .

- كم .

- من أجل خاطرك ، سبعون جنيها .

هز رأسه معترضا ، فأخذت السيناوية تباهي بالعقد علي صدرها وتقول :

- أحسن من الذهب .

وإزاء تردده ، عرضت عليه عقداً آخر ، سألها مستنكراً ، وقد لحظ لونه الفاتح :

- كهرمان

- كباس ، تلبسه المرأة بعد الولادة .

همس سعد :

- ليقيها من شر حاسد إذا حسد .

لوحت المرأة بعقد من الفيروز أخضر غامق :

- يحمي من العين .

وأكمل سعد ضاحكا :

- ويفلق الحجر نصفين

لوحت المرأة بعقد آخر من الفيروز أخضر فاتح :

- وهذا يريح القلب

تبادل حمدي وسعد النظرات ، وأمسك سعد بالعقد ، فعاجله حمدي :

- لك ، أم لندا .

لم يلتفت إليه ، وتطلع إلي السيناوية ، فقالت :

- من غير فلوس .

أدرك سعد أنها ستتهاون في السعر ، وأمسك حمدي عقد الكهرمان الذي كـــان قــد أعجبه ، ولوح به ناظرا إلي سعد ، فطمأنه بإيماءة من رأسه .

هبت نسمات طرية من ناحية البحر ، خففت من حرارة الزحام . وتخلـــل الـهواء أعطاف السيناويات ، فانتفخت جلابيبهن الفضفاضة من أسفل ، وتطايرت أجـــزاء مـــن المناديل السوداء ، التي تغطي رؤوسهن ، وأجزاء من صدورهـــن ، فبـــانت الزخـــارف المشغولة بالخيط الوردي والأحمر، والخرز الأزرق والأحمر والأخضر .

وبان الخجل في عيونهن الكحيلة ، وهن يلملمن الأطـــراف .. وبـــدت البائعـــات ، والباعة ، أقل شدة في مساومة المشترين ، ولاحت ، علي البعد ، الأعلام ، فوق الــدور ، وعمارات الفنادق العالية ، وكأن الهواء ، قد بعث في ثناياها أصداء ضحكات مرحـــــة ، فأخذت ترفرف ، ممازحة ، بهجةً وخفةً .

عربة عليها بعض الدمي . شغل صاحبها عروسا ، أخذت ترقص ، وقد أفسح لـــها مكانا ، وتحلق الناس حولها .

كانت الدمية المحشوة بالقش ، يتدربون عليها بـــ الطعن بالسونكي ، وهم يصيحون " هع " . كان سعد يزعق ، ولا يأتي صوته خشنا . طلب منه الرقيب التكـــرار ، وحيـــن يئس منه ، أشار لمن يليه ، ليتقدم . لفت هذا نظر واعظ حضر إلي الكتيبة لمحاضرتهم . فاستأذن من الرقيب أن يستبدل بـــ هع ، الله أكبر .

طاوعه الرقيب ، مرخيا ذراعيه إلي جانبيه . أشار لسعد ، ونظر للواعظ ، كأنـــــه يريه ألا فائدة من الأمر .

صاح سعد : الله أكبر ، ولم يصدق نفسه ، حين سمع الرقيـــب يقـــول : أحســـن . ويشير له أن يعيد الطعن .

الله أكبر فوق مياه القناة . الله أكبر فوق الساتر الترابي في الشرق وفي الغـــرب . كسب سعد وزملاؤه الرهان . أين الجندي لأخذ رهانهم منه . في البداية حدثت هرجلـــة ، ثم انتظمت الأفعال .

المدفعية تضرب علي حافة الماء في الشرق ، ما أن وصلوا ، حتي ارتفع الضـــوب إلي الطريق ، لقطع أي إمدادات إسرائيلية ، ولم تلبث المدرعات البرمائية أن لحقت بهم .

الصيحة في أمر القتال : الله أكبر . قبل فتح الفجوات ، كان أحدهم يتسلق الساتر الترابي ويقف أعلاه ، ويدلي سلماً من الجبال ، بين عقده ، قطع من الخشب يرتقيها الجنود . حامل المدفع الثقيل ينتظر ، حتي يصعد باقي زملائه . يربط مدفعه أسفل السلم ويرتقيه ويجذب المدفع من أعلي . يطوي السلم ويلحق بزملائه .

من مطالعتهم لوجه الجندي ، حين حضرت عربة التعيين ، عرفوا أنه أدرك خسارته لرهانه . ألقي السائق كمية من السجائر علي الأرض ، وقال :

– نادوا علي المسئول ليوزع علي العساكر .

عبأوا جيوبهم بالسجائر ، وخامرهم إحساس أنها ليست مناورة الخريف المعتادة . وهرب المراهن بعينيه من نظراتهم ، حين أحضرت عربة أخري ، كمية كبيرة من الألغام .

(٢٨)

خرج صفوت من بيته في عرايشية مصر . اتجه إلي محطة الباص ، ابتاع جريدة، وفكر أن يتمهل قليلا في مقهي في الشارع الذي به المحطة .. حيث البواكي قد صنعت ظلالاً لبعض البيوت . وتناثرت أمام بعض محالها أدوات ومساحيق التجميل ، وأقمشة وملابس من البرلون .. والجينز.. بركات بورسعيد هلت .. وكلها .. أو أغلبها مصنوع من ألياف مستخرجة من النفط .. تسرع العرب في إعادة ضخه .. وأصغوا إلي المسئولين الأمريكيين الذين طافوا بالعواصم العربية سرا ، بينما في العلن يصرحون أنهم يبحثون عن بدائل للنفط .. هل سيصنعون الملابس من رياح طواحين الهواء . وهل صدقهم اليابان وأوربا .. التي ارتعشت عندما خايلها شبح البطالة .. واحتمال الموت برداً من شتاء علي الأبواب .

عدل عن الذهاب إلي المقهى وقال : البدري بدري . أظل رأسه بالجريدة ، وصعد في الشارع المؤدي إلي خارج الاسماعيلية . وجد حاجزاً وضعه رجال المرور ، ويحولون سير العربات .

وضعت الشرطة حواجز في عرض الشارع أمام اللجنة الانتخابية ووقفت غير بعيد عربة الأمن المركزي ، وبها الجنود بالمدافع الرشاشة ، وكلما اقترب أحد من الحاجز ، زعق به ضابط يحيط به جنديان ، شهرا مدفعين رشاشين : بطاقتك .. أسرع .. لا نريد جمهرة .

ولما كنت لست مزنوقا علي هذا ، فقد عرجت إلي شارع جانبي ومضيت . وفي رأسي ما أذاعه التليفزيون في المساء ، ويذيعه عشية كل انتخاب عن ضرورة ذهاب الناس إلي صناديق الاقتراع ، وأنه لشئ مؤسف ألا يؤدي الناس حقهم الدستوري . وبعد الانتخاب ، ينسي التليفزيون ما أذاعه ، ويتحدث عن إقبال الناس علي الاقتراع ،

وحضور أكثر من خمسة وتسعين فى المئة . صعد إلي الطوار ، متفاديا الحاجز ، إلي يساره مجري مائي ، لطف قليلا من الصهد الذي يبخه الأسفلت ، وهبت نسمات من أطراف بحيرة التمساح ، خففت قليلا من حرارة الشمس .

وطالعته علي البعد لافتة زرقاء ، وسهم يشير إلي طريق القاهرة . وإذا لم تخنه الذاكرة ، فبيت المقاول ، في ثاني شارع إلي يمينه .

دعا الله أن يجده فى هذه الساعة . سمع أنه فى حاجة إلي لحام بالأكسوجين . فإذا وفق إلي عمل معه ، سوف تبطل حجة السيد حمدي .

ماذا يظن نفسه . هل سيصلح الكون . كان يحمل هَمّ زيارته ، لكنه أراد أن يقطع عرقاً ، فنابته دروس فى الجغرافيا والتاريخ ، ولابد من إرجاع فلسطين عربية ، يا سيدي الحكومة ارتضت السلام الآن ، فما شأنك أنت . ومن سيصغي لك ، والكل ملخوم في البحث عن أكل العيش . لوح بيده وأكد : هذا هو الطريق لأكل العيش.

صمت يلوك في ذهنه : مصيبة حلوة هذا الرجل ، هل سأنتظر دون عمل ، حتي يتم القضاء علي اسرائيل ، بينما استمر حمدي : عندك العراق كان علي وشك خلع ثوب الدول النامية ، أقام بنيته الاقتصادية ، وعنده رصيد كبير من الدولار وغيره ، وسنوات قليلة ، وتجده دولة متقدمة مثل فرنسا ، فتحت له أمريكا بالوعة الحرب الإيرانية .. ابتلعت رصيده ، وشبابه ، ورصيد العرب من عوائد النفط . نظر إليه دهشا ، فأكمل : ألم تساعده الكويت والسعودية والإمارات ، كل هذه النقود ذهبت لتجار السلاح فى الغرب .

وعندما سأله ما دخل هذا بنا ، ضحك وتحدث ، كأنما إلي ساذج ، وقال : ألم تقرأ في الجرائد عن ضغط الميزانية في السعودية .. تصور السعودية تتقشف ، وبعد قليل تستغني عن العمالة الزائدة، وفي مقدمتها عمالنا . قال صفوت فى نفسه : مالي وهذه المسائل ، لقد جئت من أجل التحدث فى خطبتي لحمدية ، تدخلني فى متاهات ، ومحاولا التخلص : علي أية حال مصر شئ آخر. وكأنما كان حمدي ينتظر هذه المقولة ، قال : وماذا عن بالوعة حرب ٦٧ .. ؟ . قال فى نفسه : أنت فالح في الكلام ، وخيبتكم قوية،وراغبا فى إنهاء النقاش : يا سيدي .. الله يصلح حالك .. ماذا قلت .. ؟ تطلع إليه

نافد الصبر : قلت عندما توفق إلي عمل ، وتحصل علي شقة ، تعال نتكلم . هل سنتكلم ثانية .. ؟

وهو ينهض ، داعبه حمدي ضاحكا : حبيبك بهي الدين كتب من يومين ، مشيداً بالغزو الأمريكي لبنما ، وبأخذ رئيسها لمحاكمته فى أمريكا . هل القانون الذي درسه يدعو لخطف الناس ، والاعتداء علي سيادة الدول . حملق وهو يقول : عميلهم وأخذوه ، فعاجله : قصدك خرج عن طوعهم ويودون تأديبه . صمت وهو يقول فى نفسه : ماله بهي الدين ، كاتب وطني ، وأراؤه يقدرها الجميع ، عداك أنت الذي لا يعجبك العجب . ولم يشأ التسلم فقال : رأيه ، وقد يخطئ ويصيب ، ولكنك لا تستطيع القول أنه باع نفسه لهم ، الدور على من يبيع أرضه وعرضه . ولم يكن يدري أنه بذلك فتح بوابة الجحيم ، فانطلقت الحمم : يا أبا جهل هل تعرف ماذا فعل الإنجليز في فلسطين ، ولم يصغ لاحتجاجه أنه لم يقصد إلي شئ من ذلك، واستمر : أمر الحاكم الإنجليزي بزراعة محاصيل للتصدير وأعطاهم السلف لذلك . وبعد نضوج المحصول منع التصدير ، فانخفض السعر ، ولم يجد الفلاحون مالاً لتسديد ديونهم ، فبيعت أراضيهم بسعر التراب للجمعيات الصهيونية ، وليته اكتفي بذلك .. باع وقف السلطان عبد الحميد ، من أخصب الأراضي فى غور الأردن ، لنفس الجمعيات ، وطرد المزارعين الفلسطينيين منها .

هذا هو الشارع ، بالتأكيد ، دعا الله ثانية، أن يجده ، حتي لا يشمت فيه هذا الحمدي . وطمأن نفسه ، أن الرجل خبره جيداً ، فإذا كان فى حاجة لمثله ، فلن يتردد . كان يستعين ، به ، عندما كان فى سرية الحراسة ، حين علم أنه فني ، في بعض المهام، التى كان يحتاجها العمل فى إنشاء قواعد الصواريخ المضادة للطائرات . وانتقل مع شركته من موقع إلي آخر علي خط القناة ، حيث تم صب ما يقرب من مليوني متر مكعب خرسانة مسلحة ومليون ونصف خرسانة عادية ، ورأي بعينيه عمال شركات المقاولات والجنود ينقلون ما يقرب من خمسة عشر مليون متر مكعب من الأتربة ، لإقامة سد ترابي فى الضفة الغربية حتي لا يراهم الإسرائيليون ، وهم يمدون مئات الكيلو مترات ، من الطرق الأسفلتية ، ومن الطرق الممهدة بمواد تثبيت للتربة .

ما أن يصب العمال القاعدة ، حتي تحلق الطائرات الإسرائيلية فى الجو ، يسرع العمال إلي الملاجئ ، وتطارد كتائب الحراسة الطائرات .. ما أن تختفي حتي يعود العمال .. ولم يكن الموقف يطاق عندما يسقط العمال ، من قصف الطائرات .. ويضطرون لسحب الجثث تحت القصف ، قبل أن تضيع معالمها .. وذات صباح ، ذهب ما أحسوا به من غصة ، عندما لحظوا أن الطائرات الإسرائيلية ، فوجئت بحائط من صواريخ الدفاع الجوي .. لا يُنسي هذا الصباح .. كانت الجرائد بالعناوين العريضة تعلن عن احتفال أول مايو بعيد العمال .. كان صباح الثلاثين من يونيو عام سبعين .. عندما سقطت ثلاث طائرات من خطاف السماء (سكاي هوك) والشبح (الفانتوم) ، وفي اليوم الثاني من مايو سقطت طائرتان وثلاث فى اليوم الثالث .. وتوالي سقوط الطائرات، وبدأوا يتحدثون عن تآكل السلاح الجوي .. ولكنه وقتها لم يحس بأهمية ذلك تماما .. أحس بذلك حقيقة ، عندما كان فى سيناء ، فوق جبال سدر ، وجاءتهم الأنباء أن إسرائيل، أعطت تعليمات لطياريها بعدم الاقتراب من خط قناة السويس لمسافة خمسة عشر كيلو مترا .. ساعتها اهتز جسده بفرحة داخلية طاغية .

قال لصفية :

- متي تعيشين حياتك .. وتنجبين طفلا نفرح به وبك .
- صدقني .. لا ينقصني شئ .
- والسفرة التى ضاعت .. ؟!
- لم أعد أسف لضياعها .

نظر إليها مدهوشا ، فقالت :

- هل يرضيك أن أرضخ لفكر من العصور الوسطي .. مخرم .. ؟!

تفكر فى كلماتها ملياً ، وقال :

- إذا كان الأمر خلافا من وحي ساعتها ، يمكن معالجته .
- وأكرر غلطة زواجي الأول .

لم يشأ أن يضغط عليها أكثر من ذلك ، خشية أن يضطرها إلي ما لاتحب ، وخشية أن تفسر كلامه أنه يزحلقها لتخلو له الشقة ، مع أنه أفهمها أكثر من مرة ، أنه يعتبرها

شقة العائلة .. وأخوها شقته فى بورسعيد علي كف عفريت .. ومن الممكن أن يفاجأوا به وبعياله فى أي لحظة . وتذكر عبارات ، سمعها منها دون قصد . كانت حمدية عندها . وهو يرتدي ملابسه فى الحجرة المجاورة ، والباب موارب .

- لم أحبه ، ورضيت بقدري .

- لماذا تزوجتيه .. ؟!

- لأكون أماً .

وبعد فترة أكملت :

- لا أذكر يوما ، ربت علي كتفى ، أو أراح ظهري علي صدره .

- مشاغل الحياة .

- أية مشاغل ، لم نتحاضن أبداً فى غير الجنس . هل تصدقين .. عذوبة الجنس ليست فى الوصول للنشوة ، لكن فى الإحساس بالحنان .

ويبدو أنها استشعرت وجوده فصمتت ، وأحس هو بالخجل ، وأسرع يكمل ارتداء ملابسه ، وقد تعجب من كلامها ، وهي الجامدة ، التى لم تذرف دمعة واحدة ، يوم ماتت أمها ، وود لو يحيط كتفيها بأحد ساعديه ، ويشعرها بالحميمية .

أحس بالعطش . تردد فى الوقوف عند ثلاجة أمام محل بقالة ، ممنيا النفس ، أنه سيشرب بعد قليل تحية المقاول . وسرعان ما قال فى نفسه : لا .. دائما عندما أنتظر شراب المضيف ، لا أجده ، وإذا وجدته ، يكون متعجلاً ، المهم لأي سبب لا ينوبني شئ. وأصبح يتشاءم من انتظار هذا المشروب . فتح غطاء الثلاجة ، ينتقي زجاجة مياه غازية ساقعة .

كان العمال يصبون إحدي القواعد الخرسانية ، بعد فايد بقليل ، فى طريق السويس. تأخرت عربة الماء ، والشمس تصب الحمم . جس أحد المهندسين الرمل ، بحثا عن الرطوبة . دلهم علي منطقة غير بعيدة ، يحتمل وجود ماء بها . كيف يمكن سحب بعض العمال ، وقد اسودت جلودهم ، وكاد يُسقطهم الإعياء ، للحفر ، تحت نار الله الموقدة .

أطلقت دبابة من الضفة الشرقية قذيفة وصمتت . تطلعوا بانزعاج . قال صفوت:

- لا شئ ، تقيس المسافة .

ولمعت عيناه فجأة :

- أين الهيئات الهيكلية .

أسرع بعض أفراد الحراسة ، وسحبوا بعض الهيئات .. دبابات خشـــبية .. بـــاب ملجأ.. قاعدة مدفع مموهة بفروع من شجرة .. ووضعوها قرب الرمال الرطبة .

سرعان ما جاءت طائرات الاستطلاع الإسرائيلية ، رصدتها ، ولــــم يــأت أحــد لضربها .

نظروا إلي صفوت ، فى خذلان ، لكنه قال:

- غيروا من وضع الهياكل ، وأضيفوا لها هيكلاً علي شكل قـــاعدة خرســـانية ، وعندما تأتي طائرات الاستطلاع ، اضربوا عليها .

أطرقوا وقد ملوا النظر إلي السماء ، وإذا بالطائرات القاذفة ، تلقي قنابل الأعماق .

راقبوا بقعة الرمال .. ولم يمض وقت طويل حتي فاض الماء .

أظل صفوت رأسه بالجريدة ، وأخذ يطالع البيوت ، حتي تأكد من الباب .

(٢٩)

سُر لاشتداد عود الشتلات قرب الحدود . وسُر أكثر لتنفيذ العمال تعليماته بالحفر أعمق لكنه مازال على غير يقين من سرقة الماء .

أحس بالظمأ . واشتاقت نفسه لفاكهة مرطبة .. مثل البطيخ ، أو الكانتلوب ، تنعشه. ترك الأغوار إلي الشارع الطويل المؤدي إلي الشاطئ . لا يمل من مطالعة البيوت الواطئة إلي يساره ، مقامة علي ربي رملية ، تحيط بها أشجار الأكاسيا ، وتلمح من فرجات أسوجتها أشجار التين بأشواكها المشرعة . وكما تعود لم يخدش سمعه أي صوت ، ولم يخايل نظره ظل لشئ يتحرك. ويكرر أمنيته : لو يعيش الإنسان فى مكان كهذا . وتطلع ببصره إلي يمينه ، حيث لا توجد مبانٍ ، وحيث تسلم حقة الشارع نفسها لرمال ممتدة ، حتي سور الحدود . فكر أن يتجه إلي الشاطئ ، حيث لا يري سوي أحد الناس ، وحيث المياه زرقاء عميقة . لم تطاوعه قدماه ، وعرج إلي الشارع المؤدي إلي بوابة الحدود ، ولا يعبر منها سوى المشاة ، بخلاف البوابة الأخري والتى يسمونها منفذ رفح وتعبر منها سيارات الأجرة والخاصة والشاحنات المحملة بالبضائع ، وفيها جمرك . طالعته محال الفاكهة وبعض المقاهي علي الجانبين ، أسفل بيوت لا يزيد ارتفاعها عن دورين ، ووشت هيئتها بقدم موادها من الأجر والخشب .

أنعشته رائحة الكانتلوب ، فجلس علي مقهي بالقرب منها ، وبينما يعد له العامل " البوري " ويحضر شايه ، تطلع ببصره عبر امتداد الشارع . صدمته بوابة الحدود الضخمة . عالية بعلو السور الممتد إلي البحر من يمينها ، وإلي مالا يدركه البصر من يسارها وترددت عيناه فوق القوائم الحديدية التى دُقت فى الأرض ، وفوق شباك الأسلاك العنكبوتية الممتدة بينها .

جذبت انتباهه جمهرة عند البوابه . نهض لإشباع فضوله ، متجاهلا قدوم العامل بالبوري في يد وبالأخري يلوح بمصفاة فيها جمرات ، ليزيد من توهجها .

اقترب من البوابة ، نظر إلي البوابة المقابلة ، يفصلها عن بوابتنا طريق طويلـــة ، ممتدة بامتداد السور . والجنود الإسرائيليون يمنعون امرأة من العبور ، وهـــي تصـــرخ وتولول . صاح جندي في وجهها :

– ليش ما جئتِ في الميعاد .

فجأة اصطدم طائر لقلق بشبكة السلك ، أحدثت قوة الصدمة نزيفـــا ، وأخـــذ دمـــه يتساقط أحمر قانيا . وحتي لا يسقط أخذ يتشبث بفتحات السلك ، ويخمشها بمخالبه .

تشبثت صفية بذراعي القريب منها ، وأحسست بأظافرها ، رقيقـــة ، مســـتجيرة ، وكنت ألبس قميصا بنصف كم ، في جو صيفي طري .

اندفعت المرأة . فاعترضها الإسرائيلي ووضع مدفعه الرشـــاش بـــالعرض علـــي بطنها، وشهر باقي زملائه مدافعهم في وجوه جمهرة تجمعت ناحيتهم .

فجأة وجدنا أمامنا مجموعة من الكلاب الضالة . كنا عائدين من سهرة عنـــد أحـــد الأصدقاء وسرقنا الليل والكلام . وقفت الكلاب علي بعد غير قليـــل . لمعـــت عيونـــها الفسفورية ، وفتحت أفواهها نصف فتحة . بانت أنيابها ، وأخذ لعابها يسيل . نظرنا إلـــي بعضنا بعضا في خوف ، وزادت صفية من تشبثها بذراعي . قلـــت لـــهم : تجاهلوهـــا واستمروا في المشي .

رفرف اللقلق بجناحيه ، محاولا الطيران . نحت المرأة المدفع جانبا ، واتجهت إلي طائر اللقلق . قفزت محاولة الإمساك به . عادت إلي الجنود وأخذت كرســـيا ، وضعتـــه عند السور وصعدت فوقه . أخذت الطائر في حضنها ، غير مبالية بالدماء التي خضبـــت بلوزتها البيضاء بزهورها الوردية المنمنمة . أحاطت الطائر بإحدي ذراعيها ، وأمســـكت بالأخري الكرسي . وضعته في غل عند الجنود . زادت من حدبها علي الطائر ، وولـــت وجهها ناحيةَ البوابة المصرية ، وسارت بخطوات ثابتة .

كان لابد أن نمر بجميع الكلاب ، لكي نعبر الشارع وإذا تراجعنا فسوف تطاردنـــا . سمعنا زوماً مكتوماً ، متحرشاً ، باحثة ، فيما بدا ، عن نكتة لتنشب أنيابها في أجســـادنا . حذرتهم من أي اضطراب ، مداريا رعباً في داخلي ، وحين مررنا بالكلاب ، زاد غـــرس

الأظافر في ذراعي ، بينما أحاول التماسك ، والخطو بثبات . لو أحست الكلاب بلمحة ضعف ، ستنقض علينا .

تخطيناها ، فتنفسنا جميعا بارتياح .

عبرت المرأة البوابة المصرية ، ووضح أنها في عجلة من أمرها ، اقترب منها حمدي ، ومد يديه إلي الطائر . وقفت برهة مترددة ، فطمأنها أنه سيذهب به إلي طبيب بيطري ، في الوحدة عندهم ، ووسد بيمناه زغب صدر الطائر النافر ، ثم مسح علي ريشه الأبيض ، العامر بالسواد في جانبي جناحيه ، والتي نالت من زهوتها بقع الدم المتجلطة ، والطائر يحاول في ضعف إزالتها بمنقاره الطويل ، وحمدي يهدئ من حركة رقبته الطويلة ، محاولاً طمأنته . غادرت المرأة ، فجأة دون كلمة ، فتمتم أحد الواقفين :

– ربما لتلحق بأولادها .

تطلع إليه حمدي متسائلا ، فأردف الرجل :

– كثير من العائلات مقسمة ، بين رفح فلسطين ، ورفح سيناء . الأب يعمل هنا والأم بصغارها تسكن هناك أو العكس . من قبل لم يكن هناك مشكل ، كانت كمدينة واحدة.. والناس تروح وتجئ .. لكن الآن (وأشار نحو البوابة) .

ترك ورقة مالية علي منضدة المقهي ، ثبتها بطرف كوب الشاي الذي لم يمسه ، وأصبح كل همه أن يجد عربة ، تسرع به إلي العريش .

حاول أن يزحزح الطائر إلي اليسار قليلا ، حتي يتمكن من إحاطته جيداً بسترته ، لكن هذا كان يتشبث بمخالبه في قميصه ، وقد استراح لدفء صدره ، واستكان منقاره بالقرب من إبطه الأيمن . استعاد حمدي إحساسه بملمس غرز الأظافر في ذراعه . ملمس أنثوي ، منبه للذكورة ، والرجولة ، أفصح عن ود دفين . تساءل : لعل ما دفعها لذلك هو إحساسها بخطر مفاجئ ، وليس في الأمر ود ولا يحزنون . ولكن .. لماذا أنا وكنا ثلة من الأصدقاء . لعلي كنت الأقرب إليها أثناء السير .

وراح يعصر ذاكرته: هل كنت الأقرب فعلا .. ؟!

أحس باستكانة الطائر ، داعب ساقيه الطويلتين الحمراوين ، وضمه إلي صدره .

(٣٠)

وافقت ندا أن تجالسه ، مدة قصيرة ، فى طراوة العصرية . وها هو سعد ، الـــذي ما صدق أنه نجح في محايلتها ، قد وقع فى حيص بيص ، لا يدري أين يذهب بها ، بعـد أن اتفقا علي اللقيا عند قلعة سليمان ، بالقرب من البحر .

اقترب من أطلال القلعة ، بقايا أعمدة حجرية ، زحفت الرمال بينها ، صانعة تبابـا صغيرة. اقترح أن يذهبا إلي مقهي أحد فنادق الشاطئ ، وقد احتاط لذلك بسلفة عاجلة من الباشمهندس،لكنها تمنعت، فأغلب مرتاديها من الأجانب،وقد يتعرف عليها أحد العمال.

– وماذا فى ذلك .. ألسنا ..

أطرقت بوجهها إلي الأرض ، وقد وشت عيناها بفرحة غامضة . قالت فى خجل:

– لم نعقد ..

فكر فى مقهي صغير ، اعتاده ، في حارة رملية ، متفرعة من الشارع الجديـد . أو حسب تسمية الباشمهندس ، العريش الجديدة ، وهو مواز للشارع الرئيسي . غربا . وقـد حفل بالعمارات والمقاهي الحديثة والفنادق ، وتخلت عمارته ، عن النمـــط العريشـــي . حيث البيوت من دور واحد ، أمامها باحة ، محاطة بسور ، يطل منه النخيل . والمقـــهي رواده قليل فى هذه الساعة ، وهواؤه طيب ، لقربه من الشارع الموازي للشاطئ . مـا أن أبدي رغبته ، حتي قالت مستنكرة :

– مقهي .. ؟!

طرفت عيناها ، وظلال الأعمدة ، تنسحب إلي الخلف ، ووشوشة البحر تتخللـهما . تلقتيا جلسا علي الرمال ، وطالعته براءة تغلف وجنتيها ، وقد بـــرزت نقشـــها قليـــلا ، ببياضها الأخاذ .. وعندما نظر فى عينيها ، لمح السؤال . قال :

– قريبا أنزل مع الباشمهندس إلي الزقازيق ، ولابد تمرين علي محـــــال الأثـــاث بالعريش ، لعل طرازاً يعجبك .

حركت يديها ، كأنها تريد التخلص من كميها الطويلين ، وابتسمت :

- وهل قلت شيئا .. ؟!

- أقول يعني ..

- ما تحضره سيكون جميلا .

ود لو يحتضنها ، ويقبلها ، ويداعب ذقنها بأصابعه . نظرت إلي بعيد ، كأنها تهرب بنفسها من أمامه . أمسك بكفيها ، وهي تعافر .

- سعد .

- عين سعد .

صعدت ببصرها إلي السماء ، تتبهه إلي بشائر المساء .

- لم أشبع

نهضت ، فشبك ذراعه اليمني فى ذراعها اليسري ، وغير وجهتها إلي الشاطئ ، بدلا من المدينة .

اقتربا من البحر ، صامتين ، متناغمين ، وأطراف الأمواج ، تداعب حواف الشاطئ العريض الممتد تحت غلاله المساء الشفيفة وقد أطلت سعف النخيل وبعض الباسقات من الكافور من خلف البيوت الواطئة ، المتناثرة علي حافة الشاطئ من الجهة الأخري . بينما تنسحب بقايا الأشعة ، وقد رقت ، وازدادت الرطوبة ، وتلاقت العيون . أحاط خاصرتها بذراعه جهتها ، فاستطابت ليونة مستكينة ، مدت يدها من الجهة العكسية، تزيح يده ، برفق ، فتشبث بها .

- وبعد ..

- ولا قبل .

تفلفص فى دلال ، وهو بذراعيه علي جنبيها . كفاه أعلي ظهرها ، وعيناها بنزلان من المودة والترقب . اختلطت الأنفاس الدافئة ، وضغط أكثر ، وقد تذوق رضابها .

أحس فجأة ، أنه لم يعد وحيدا ، وزايله إحساس باليتم ، كان يعانيه . تملي فى عينيها،وقبلها ثانية.كفت عن الفلفصة،وقد تسرب الحنان عبر شفتيه، وبادلته حنانا بحنان .

وصلا إلي الشارع المسفلت بموازاة الشاطئ ، طلبت منه فى خفوت ، أن تمضي خشية أن يراهما أحد . استجاب دون قناعة داخلية .. ولم يلبث أن رجع ما ارتأته ..

ربما رآهم أحد وأفسد الأمر كله ، ألا يكفي أنه ليس من قبيلتها,وليس سيناويا ، ووافق أهلها علي زواجها منه . فكر أن يذهب إلي الباشمهندس ، لكنه لم يجد في نفسه ميلا للكلام ، سار علي مهل ، مخلفا القلعة وراءه . ولايدري ، لماذا بعثت صورة أحجارها ، التى انطبعت فى رأسه ، المنيا ، ومقهاه فى شارع غير بعيد عن النيل . ينتقل الإنسان فجأة من الأبنية الحديثة والفنادق الملأى بالسياح ، إلي مبان قديمة .. يظهر طوبها الأحمر من ظهورها ، ومن واجهتها أحيانا دون طلاء ، والمقاهي البلدية بكراسيها المجدولة من سعف النخيل ، والحرفيون وباعة سوق الخضر وعمال المحال التجارية ، يدخنون المعسل ، ويشربون الشاي الثقيل .

كان يحلو له بعد جلسة المقهي ، أن يمشي علي النيل ، حيث النجيلة في مساحة عريضة .. عليها دكك خشبية ، تحف بها الأشجار .. وأمامه علي الشاطئ الآخر ، جبل، تتعاقب عليه الألوان ، من رملي فاتح ، إلي رملي داكن ، مع حركة الشمس . والقوارب بين الشاطئين ، وحين يصل الرجال إلي الشاطئ الآخر ، يختفون بين شعب الجبل . سأل أباه مرة ، فضحك مبرزاً لسنًا بين نابين صفراوين وقال :

– أرض مزروعة فى جوانب الجبل يوالونها .

كثيراً ما تمني أن يعبر ويجوس فى الجبل . الدار أخذها الأخوال . رحمك الله يا أمي . ورحمك الله يا أم ميلاد ، وماذا لو كانت عانسة . الرحمة تجوز علي الميت والحي. كان لا يحلو لها وضع فرشتها إلا بالقرب من ترابيزاتهم فى المقهي ، الممتدة إلي جزء من الشارع . تعلق علي أحاديثهم ، ويوصونها أن تحتفظ لهم بما يريدون من خضروات . يشاكسها عامل المقهي ، لتبتعد بفرشتها قليلا . تتصعب وتقول :

– لا تتخير عنه .

يتساءلون متصنعين السذاجة :

– من ..

– وهل هناك غيره .. كلمة مسموعة ويد ملطوعة (تلطع عليها القبلات) وفلوس مدفوعة . يغرقون فى الضحك ، لتأورتها علي القس ، الذي لم يوفق بعد فى الحصول لها علي حجرة فى المساكن الشعبية .

ليتك كنت هنا يا أم ميلاد . عمارات المساكن الشعبية فى المساعيد لا تجد من يسكنها ، لكن إلي متي ستظل العريش بعيدة عن غول الزحام .

يا سلام يا " غول " ..

في صباح التاسع من أكتوبر نشط لواء مدرعات تدعمه المدفعية والمشاة فى شن هجوم شامل ، علي القوات الإسرائيلية لإجبارها علي التراجع . موهوا أماكنهم جيداً ، وفي انتظار أوامر جديدة ، احتدم القتال ، وضغط الإسرائيليون ضغطا رهيباً ، أجبر القوات المصرية علي التراجع إلي وادي النخيل ، لإعادة التنظيم لمعاودة الهجوم .

رأي سعد الدبابات يتصاعد منها الدخان ، والأنفار تجري . طلب منه قائد الفصيلة أن يوجه مدفع دبابته ناحية اليمين ، وأي قوات تعدي ، يقصفها .

استمع للأمر فى اللاسلكي ولم ينفذه ، مر القائد ، فاستشاط غضباً .

قال القاذف :

- لا شأن لي ، سعد هو المسئول ..

أخرج القائد طبنجته ووجهها إلي رأس سعد ، فقال :

- يا أفندم .. أراقب المعركة ، والقوات الفارة من عندنا .

بدا القائد غير مقتنع ، فطلب سعد أن ينادي قيادة اللواء أو قيادة الكتيبة ليعرف الحقيقة . وبينما فوهة الطبنجة في رأسه ، أخذ القائد ينادي :

- نعم يا " غول " .. حول يا " غول "

ولم يكد القائد يقول : الجانب الأيمن ، حتي سمع سعد من قيادة اللواء : لا تقترب من جهة اليمين ، فاسترد أنفاسه .

قرب الظهر مر قائد الفصيلة :

- ما اسمك

- عريف مجند خمسة مليون خمسمئة أربعة وعشرون سعد الدري يا أفندم

- ما زلت تحفظ رقمك ..

داعب شعر رأسه بيمناه ، ومضى .

(٣١)

قال حمدي أبو زيد :

- دخلنا فى الجد ..؟!

ابتسم سعد الدري ، وقال :

- عقبي لك .

ضحك حمدي ، وأردف :

- من فمك لباب السماء .

سأل سعد :

- ما رأيك .. هل نحضر الأثاث من دمياط ..؟

قال حمدي :

- نكتفي بحجرة نوم ، ونلتقط طقم أسيوطي ، أم اشترطوا عليك شيئا .. ؟

قال سعد :

- قالوا : بيتك .. افعل ما تشاء .

صمت حمدي قليلا و قال :

- فى البكور نطمئن علي الزرعة .. ونخلع إلي الزقازيق .

ولم يعر دهشة سعد أهمية واستمر :

- هم أيضا يحضرون العظام من دمياط ، ويكسونها ويدهنونها .

قال سعد :

- لكن السعر يكون أعلي .

عاجله حمدي :

- دمياط مشوارها طويل ، فكر فى النقل والبهدلة ، وكله بثمنه .

وصلا محطة الباص ، وهو علي وشك الإقلاع . ولما كانت العربة مزدحمة ، فكرا في النزول . لحظهما السائق ، فطمأنهما أن بعض المقاعد ستخلو عند المساعيد ، علي طرف العريش . المساء عيد . هل كان حقا عيداً بالنسبة لعمرو بن العاص ، وكيف يكون عيداً وقد وصله خطاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ينصحه إن لم يكن دخل أرض مصر ، أن يعود من حيث أتي .

هل أخفي عمرو الخطاب ، ودخل مصراً ، واعتبر ذلك عيداً ، أم الصح ما يردده العريشيون أن عمرو حين وصل إلي هذه المنطقة ، دون مقاومة تذكر من الرومان ، قال لمن حوله : المساء عيد ، وأصبحت عبارته من ساعتها اسما لهذا المكان .

مط حمدي شفتيه . اهتزت العربة ، وكاد يقع علي أحدهم ، لولا تماسكه وسط الواقفين ، وقد لفحته أنفاسهم .

رفعت رأسي إلي سقف العربة ، في طريقنا إلي رأس البر . كانت صفية إلي جواري . ورغم الزحام ، لم يتلامس جسدانا . كيف كانت تحاذر ، رغم الزحام ، وتتفاداني . لكنها لم تفلح في منع أنفاسها ، أو لعلها لم تتنبه إلي ذلك . كنت متردداً في البداية ، كمن يتلمس تذوق طعام لم يصادفه من قبل . وسرعان ما تركت نفسي علي هواها ، وقد شعرت براحة ، ونشوة غامضة .

– المساعيد .. النازل .

جلسا . من النافذة ، تأمل حمدي البيوت الواطئة ، من دور واحد ، متباعدة وسط التلال الرملية ، تحيط بها النخيل ، مخففة من وحشة الصحراء المترامية .

بالقرب من الطريق ، رأي حجرة ، منفردة مهجورة ، وقد زحفت إليها الرمال من كل جانب . أتراها لملاحظ السكك الحديدية ، عندما كانت تمر من هنا قبل عام ٦٧ . لماذا لم يمدوها ثانية .. ؟!

وصلا إلي الزقازيق، وقد استتب المساء . لم يحبذ سعد أن يطوفا علي المحال ليلا. فالتيقن من جودة الأشياء في ضوء النهار أفضل . ولكن أين المبيت . هل نشد عجلنا إلي المنصورة ، ونتحمل ساعة أخري من الزمن ، أم نبحث عن أي خن في الزقازيق .

وصلنا الزقازيق ، وقد أفصحت الشمس عن هويتها . ركبنا بعـــض الشـــاحنات ، وطفنا فى شوارع المدينة ، أعجبني بحر مويس ، تلك الترعة التى تقطع المدينة طوليـــا ، فوقها جسور صغيرة ، وثمة ترعة أخري ، متحاورة معها ومع الشـــوارع فـــى تنـــاغم وونس . والخضرة تحف بالترعتين والأشجار تتدلى عليهما ، وباعة الفاكهة والخضروات ينتشرون علي الشطآن والناس غير ملقية بالاً ، لهذا الجمـــال ، الوجـــوم ينضـــح علـــي وجوههم ، وتكاد الأسئلة تقفز منها :

هل سينجح البريطانيون فى السيطرة علي بورسعيد ، ويتقدمون صوب الدلتا ، بعـد أن أمن الفرنسيون ظهرهم باحتلالهم بور فـــؤاد ، أم ســـيواصل البريطـــانيون زحفـــهم للاستيلاء علي مدن القناة ، واحدة تلو أخري ويشهد عام ١٩٥٦ إنتهاء حكـــم " الضبـــاط الأحرار " . وفي الحالين ستكون الزقازيق مـــهددة . وهـــل سيتجاســـر الإســـرائيليون ، ويقتربون من حافة قناة السويس ، أم يقنعون بما حدده ، الإنجلـــيز والفرنســـيون لـــهم ، ويظلون قابعين خلفهم فى سيناء .

ورغم هذه الأسئلة القلقة ، كنت تلمح همة واستبشاراً علي وجوه الناس ، فقد أممت شركة قناة السويس العالمية للملاحة ، وعربات الجيش ذاهبة وآتية ، في حركة لا تـــهدأ . ومنذ قليل خطب الرئيس عبد الناصر ، من فوق منبر الجامع الأزهر .. منـــهيا كلماتـــه بـــ : سنحارب .. سنحارب .

ونحن نهدر من فوق الشاحنات :

من خان فى الصف يومي بعار	من خاننا سوف يلقـــي الدمـــار *
لن نستجيب لصـــوت الـــهدوء	إن الكفـــاح هـــــو الانتصـــــار

ويلوحون بالبنادق فى الهواء :

شعب الشمال وشعب الجنـــــوب	وحـــد أيـــادي ووحـــد قلـــــوب
نرمـــي بـــها قلـــب مســـــتعمر	فالاتحـــاد ســـــلاح الشـــــعوب

---

* الأبيات فى هذا الفصل لزميل قديم لا يحضرني اسمه .

عند الظهيرة ، وصلنا قرية " أبو حماد " . وجدنا متطوعيـــن كثـيرين ســبقونا . نظرت إلي الهوراي ، وقلت :

– الولد سمير لم يأت .

أردف :

– ولا رجائى .

– أوهمانا أنهما سيحضران .. ضحكا علينا .

– لا تبال .. عيلان .

سمعنا أن مكتب محام بحي الحسينية بالمنصورة ، يجمع متطوعيـــن للســفر إلـــي الجبهة ، فاتفق أربعتنا علي الذهاب .

رنة البشر والتفاؤل ، وأصحابها الوافدون من جهات شتي يتعارفون ، خففت مـــن مرارة ما أحسست به تجاه سمير ورجائى . وأهالي القرية تجمعوا حولنا ، فانطلقنا نردد، والفلاحون يحاولون مجاراتنا .

يـــا شـــعوب الشـــرق هـــــذا   وقـــــت رد الغــــــاصبين
فـــاركبوا الــــهول الشـــداد   واصطلوهـــــا باســــلين
طـــال عـــهد النـــوم فيكـــم   والأعــــــادي ســـــاهرين
أتعيـــــم وبنوكـــــــــم   فــــى المنـــــفي تائــــهين
شـــتتونا فــــى المنــــافي   واملأوا منـــا الســـجون
ســـوف تـــأتيكم ليـــــال   برقـــها حتـــف المنـــون

قادنا الفلاحون إلي قاعة أعدت لاستقبالنا ، مفروشة بالحصر . وجـــدت الـــهوراي سبقنا ، ووقف في ركن ، يجمع فيه البنادق من الداخلين . وقبل أن أسأله عمـــا يفعـــل ، انطلق ضاحكا :

– السلاحليك .

جاوبته بضحكة عالية . فهو لا ينسي عادته في أي مكان نذهب إليه . أشـــار إلـــي ركن آخر وضع فيه بعض الجرائد ، وكتبا ، لا أدري من أين حصل عليها ، وقال :

– المكتبة .. !

أحضر الفلاحون وجبة بسيطة ، علي حد قولهم . خضرة ، جرجير وفجل ، جبـــن وحلوي طحينية ، عيش مرحرح ، مفرود ، طري ، يسيل اللعاب .

اختارا فندقا متواضعا ، قريبا من محطة السكك الحديدية . طالعتهم أنوار النيــــون البيضاء ، منبعثة من محال الحلويات الشرقية . اللديدة المصنوعة من المبشور العريــض لجوز الهند ، وأقراص الشكلمة الصغيرة من المبشور الرفيع لجوز الهند .ومحال الفـــول والطعمية ، ذات الروائح الحريفة . ومحال الفاكهة وقد صُفت حبات البرتقال واليوســـفي فوق مدرجاتها الخشبية الهرمية . تداولا فيما ينبغي شراؤه أولا ، وهـــل يـــأكلان علـــي المقهي ، أم يأخذان زادهما ويصعدان إلي الفندق .

قال حمدي :

– الخبز أولا .

رد سعد :

– لن تجد خبزاً بلدياً الآن .

بعد أن لفا في بعض الشوارع ، وقفا أمام فرن أفرنجي . عند الحساب وجدا ســـعر رغيف الفينو عشرة قروش . لم يستطع حمدي أن يحفظ لسانه :

– معدل .. ولا محسن .

رد الرجل :

– خارج التسعيرة .

ضحكا ، وقال سعد :

– أي تسعيرة يا حاج .

نكس الرجل رأسه ، وانصرف إلي بضاعته .

تمتم حمدي ، كأنما يكلم نفسه :

– من قرش إلي عشرة .. والبلدي من خمسة مليمات إلي خمسين .. !

حدثت هزة في الشارع ، تجاوبت أصداؤها في البيوت والحارات . وعلت الفرحـــة وجوه الناس . سألتُ أمي . أخذتني في حضنها .. أطلقتني برفق وقالت :

– النحاس رخص الرغيف .

وسرعان ما جاء أبي متهللا ، ليزف البشري ، فوجد أمي قد عرفت . جريت إلي الشارع ، أتقافز مع الأولاد ، ولم نتفق علي لعبة معينة ، كما تعودنا ساعة العصاري . واستطعنا أن نلتقط من أفواه الكبار ، أن رئيس الوزراء خفض ثمن الرغيف من ستة مليمات إلي خمسة ، وقلت في نفسي ، لن يربك المليم أمي وهي تحاسب أبي عما أنفقت من العشرة قروش ، التي يعطيها لها مصروفا يوميا للبيت .

لم يجدا في الفرن كيسا بلاستيكيا ليضعا فيه الخبز . نزع حمدي الصفحة الأولي من جريدة كانت في يده . شد عيونهم عنوان بالخط العريض : الحكومة تشدد رقابتها علي المتلاعبين في وزن رغيف الخبز .

سارا صامتين حتي وجدا مقصفا مازال ساهرا ، نظر حمدي إلي سعد وفجأة :

- ها .. ها ..

- ها .. ها .. ي ..

ومعا :

- ها .. ها .. هاي .

اشتريا بيضا مسلوقا ، وكيسا من المخلل . سارا بجوار بحرمويس ، وقد غشيتها الظلمة . سمعا حفيف جناحي طائر . تطلع حمدي إلي أعلي وقال :

- يبدو غرابا ..

- معقول .. ؟!

الغربان اختفت من زمن ، ولكن أحد أنواعها ، لمحته في مكان مهجور ، علي شط البحر ، لعله تسلل ، بحثا عن طعام . وغالب ضحكة وهو يقول :

- يهوي بيض الصقور .

جاوبه سعد ضاحكا :

- نقبه علي شونة .

(٣٢)

- بالمرة .. نشتري الدبلتين .

نظر حمدي إليه مستطلعا . أخرج سعد من جيبه فتلة بيضاء ، ناولها له . وجد علامتين متباعدتين بالكوبيا ، ففهم أنه أخذ مقاس إصبع ندا . حاول لفها علي إصبعه ، فاعترض سعد :

- من فضلك ..

لوح الجندي الإسرائيلي بالرشاش المعلق فى إحدي كتفيه ، وبأصابع يده الأخري تحسس دبلة فضية فى إصبع لي . تعلقت بعينيه . وضع يده علي صدره ، مكوراً ثديي امرأة . هززت رأسي إلي أسفل . ربت الجندي براحة يده الهواء إلي أسفل ، بما يعني وجود أطفال . أبرزت له أربعة أصابع . ترددت أصابعه علي الدبلة ، برهة، تاهت فيها روحي . ألقي بيدي جانبا . تنفست ، غير مصدق . دبلتي عادة تعصلج فى إصبعي . ولن يجد حرجا ، مثل غيره ، فى قطع الإصبع ، وأحيانا قطع اليد كلها ، وإذا انبثق نزيف ، فرصاصة فى الصدر أو الرأس ، تنتهي كل شئ .

قال حمدي :

- ليتك أحضرت ندا ، تشتري بنفسها ، وفرصة لنزهة معا .

تفسحنا فى النيل أمام رأس البر . القمر يفرش أشعته فوق الماء ، والدرافيل تتقافز حول المركب مداعبة . نمد أيدينا إلي الماء ، فتغطس رؤوسها ، وتعاود الظهور . اخوتي وأصدقاء لنا يتسامرون . عيناي علي عيني شقيقة الهواري . أحس بجاذبية خاصة لسمارها وجسمها اللدن . " أنا قلبي إليك ميال " . ظللنا جميعا نحاول اكتشاف ماهية الصوت الجديد الذي أعلن عنه المذيع منذ لحظات . " والبهجة أنت فرحتها ، والفرحة أنت يا حبيبي حلاوتها وابتسامتها " .

- كلمات جديدة .

- اسمها

- فايزة أحمد

زحفت ساقي القريبة منها ، تتحسس سمانة رجلها المجاورة لي ، حركـت سـاقها قليلا ، دون أن تلفت نظر أحد ، أو .. تنظر في وجهي .

نزلنا من المركب ، ومشينا في الطريق إلي اللسان . هذا الطريق الخرساني ، علي يمينه النيل ، وعلي يساره موج البحر الأبيض المتوسط . والـرذاذ ينـاغي وجوهنـا ، وأحياناً موجة تقل أدبها ، تصفع سيقاننا وتتطاول إلي الأفخاذ وقد تطـايرت الفسـاتين ، تتعالي صرخات البنات ، ويحاولن تفادي الموجة ، فنلتصق بعضنا ببعض .

ووجهها يقارب وجهي ، والرذاذ يغمرنا ، وهواء النيل والبحر ، في أول الليـل ، ينبت في أجسادنا أجنحة ، تحمل قلوبنا وأرواحنا ، إلي بهاء ورحابة الأفق ، الحادب علي البحر ، ويتلاشى قوس الشمس في عموض . وثمة أشرعة بيضاء ، تظهر وتختفي .

لحظ الهواري حالي ، فألمح لي : علي سنة الله ورسوله .

ذهبت إلي بيت الهواري . شككت في الأمر . عدت إلي اللافتة الزرقاء المعلقة فـي أول الشارع جهة سوق الخواجات ، عليها بخط أبيض " شارع علي محمود طه " .

قالت العجوز في محل البقالة في المواجهة :

- وقع من زمان .

وأخبرتني أنهم ذهبوا إلي مساكن الإيواء . عمارة وسط المساكن الشـعبية ، فـي إحدى أطراف المدينة . احتلت النسوة المدخل . هذه تنقي أرزاً ، وتلـك تُقمـع باميـة ، وأخري تطرقع بلبانة ، ويلكن في الحديث ، تأملنني بعيون جريئة ، ولم يجبن بسـهولة ، مررت من بين أرجلهن ، وأنا في نصف ملابسي ولم أكد أرقي السلم ، حتى اصطدمـت بالأطفال يلعبون .

قادني أحد الأطفال إلي ممر طويل ، ضيق ، علي جانبيه أبواب مغلقـة . وقـف الطفل أمام أحد الأبواب وتركني وجري . طرقت الباب .. لم يجبني أحد . صفقت بيـدي وأردفت :

- يا ساتر .

أطل وجه امرأة شابة

- جماعة الهواري

- في الآخر علي اليمين

كانت الحجرة بجوار الحمام . بالقرب منها وقفت شابتان ، بينما شاب يخبط بـــاب الحمام، مستعجلا من بالداخل . مرقت فتاة من الحمام كالسهم ، قاصدة الحجرة . طرقـت الباب ، فجأة صوتها :

- وبعدها معكم .

تنحنحت ، وقلت :

- لو سمحت .. ؟!

واربت الباب قليلا . كانت الفوطة تلف شعرها المبلول ، وقطـرات مـن الماء تتساقط من جبينها .

- ماما موجودة .

- أترك عنوانك ، وعندما تشفي

- يا أنسة .. افهميني .

- خلاص .. شف لك غسالة أخري .

- أنا زميل الهواري .

اضطربت الفتاة ، ووسعت من فتحة الباب ..

- لا مؤاخذه .. تفضل.

وجسدها لم يزل يعترض فتحة الباب ، حتي جاءت أمها . ما أن رأته حتي نـهرت الفتاة وهي تنحيها عن الباب :

- اخص عليك .. ألم تعرفيه .. كنا جيرانا .

- كانت أيامها طفلة .

زغدت الفتاة صبيا ينام علي كنبة في الحجرة لتوسع مكانا .

- لا تؤاخذنا يا بني

طالعتني على الحائط ، المواجه لي صورة شخصية لعبد الوهاب وأم كلثوم ، وقـــد مال كل منهما إلي جانب من أعلي .

ياه يا " هواري " ..

لا أذكر هل كنا أمام باب الدرجة الثالثة لسينما عدن ، أم لسينما ركـــس . والأولاد يدفعوننا بعنف ، والرجل بالباب الحديدي لا يريد أن يفلتنا من الفتحـــة الضيقـــة ، إلا إذا تحقق من التذكرة . وبعض الأولاد لم يطيقوا صبرا ، فقفزوا فوق الرؤوس ، بأقدامـــهم ، وحشروا أجسادهم بيننا وبين الباب الحديدي ، لينزلوا ، والهواري يزاحم بيد ، وبـالأخري رفع صورة عبد الوهاب وأم كلثوم تتى أعطاها له بائع التذاكر ، مقابل المليمات الباقيـــة من ثمن التذكرة ، وكانت من نصيبي صورة أعضاء " مجلس قيادة ضباط يوليو " . وبعد أن دخلنا وأخذنا مكاننا علي دكة خشبية في طرف من القاعة ، لوح الهواري بصورتــه ، ووشت عيناه بالانتصار ، وقد رأي ما بقي في يدي من مزق الصورة .

كثيراً ما عنفت نفسي لقيامي بهذه الزيارة . ما كان يصح لي أن أراهم علـــي هـــذا الحال . لاشك أن ذلك آلمهم ، ولكن ماذا كنت أفعل .. أليس من الخسة أن أنقطع عنـــهم وقد ذهب الهواري .. ؟!

تُري .. هل أنقذت سنة الله ورسوله شقيقة الهواري ، من هذه المعيشة ..

عزمت صفية علي الذهاب إلي رأس البر . قـــالت : وإن شـــاء الله علـــي الســـنة المطهرة .. ! دلقت فوقي جردلاً من الماء ، وأخذت أتساءل .. هل أردت من خلالـــها ، استعادة نشوة الحب الغض ، أم أملت أن تؤجج الذكريات حبي لها .

ماذا لو هاودتني ، ومشينا معا علي اللسان ، وجلسنا علي أحد المقـــاهي المنتشـــرة علي النيل في الطريق إليه ، والمطاعم تسوي الكباب في أسياخ فوق فحـــم متقـــد يشـــع بالاحمرار .

وفي الجانب الآخر ، المقاهي والمسارح ، وباعة الفيشار والســـوداني ، بعرباتـــهم الصغيرة ، يتصاعد دخان أبيض من مداخنها . وباعة الحلي الرخيصـــة ، أســـاور مـــن العظام ، ملونة ، ومن القشرة الذهبية . والمناديل مختلفة الألوان ، أطرافها موشاة بالترتر الذهبي والفضي ، عندما كنت أري منديلا مثلها يلم شعر شقيقة الـــهواري ، كـــان قلبـــي

يطب من فرط ما أضفاه عليها من أنوثة ، وما يشع من حيوية وجهها ، التي جعلته محمرا ، شمس الصباح عند البحر ، وقد تقشر جلد رقيق أبان البياض تحته أعلى وجنتيها ، وزاد من سمرة ما حوله أعلي ذراعيها .

وهمسات ، يحملها نسيم المساء الطري .. عبد الوهاب يجلس فى مقهي الجندول . الممثلة فاتن حمامة تجلس فى مقهي أبي طبل ، ومعها الفنان عباس فارس . هل سيغني عبد الوهاب الليلة . حضر للتصبيف وليس للغناء . فى مسرح المقهي المجاور يعرضون رواية جديدة . لمحت الممثل زكي رستم . أنظر من هذا الجانب لتراه . فى المقهي المجاور استعراض ، رقص شرقي وغناء . أسحبها من إحدى يديها ، تطيعني ، نبص علي عبد الوهاب ، وأحيانا الممثل يوسف وهبي .

طافا شوارع الزقازيق ، وعبرا الجسور ، فوق بحر مويس ، والشرقاويات ، البيضاوات ، بملابسهن السوداء الطويلة ، تتلعبط أجسادهن داخلها ، وزاد الكحل علي الجفون من ابراز بياض أديم العيون ، واسوداد النني . وعصبن رؤوسهن بالمناديل السوداء ذات النسيج الرقيق ، وتدلت من آذانهن أقراط علي رسم أهلة كبيرة ، ذات ألوان فاقعة .

وهما يدلفان إلي محل جواهري ، سأل سعدا :

– أحببتها .

تطلع إليه بعينين ، تغنيان عن أي بيان .

" أنا قلبي إليك ميال " . عزمتها علي فطيرة عند أبي طبل . الفطيرة الممتازة ، المحشوة بالزبيب والمكسرات بخمسة قروش ، وشوب اللبن ، بخيره ، يينج ، بثلاثة قروش .

قال حمدي :

– جعنا .

اشتريا خبزا وبيضا مسلوقا وطعمية . ولوح حمدي بجنيهين ، من طرفيهما بين سبابة وابهام يمناه وقال :

– باقي الورقة أم عشرة .

كانت أمي دائمة الشكوي من تصاعد الغلاء . وحكت لنا عن البيضة التى كنا نشتريها ونحن صغار بسبعة مليمات ، أنها كانت تشتريها وهي طفلة بمليمين . كثيرا ما ضحكنا منها ، غير مصدقين أن تكون الأشياء بهذا الرخص . وهل سيصدق أولادنا أن بيضتنا بخمسة عشر قرشا .

قالوا : الثمانينات بداية الرخاء ، هاهي أوشكت علي الانتهاء . قالوا : بعد السلام مع اسرائيل سيعم الرخاء .

تطلع حمدي وهما يسيران إلي مياه بحر مويس الغامضة . وتساءل .. أين الترعة الأخري وتذكر ترعة أم الجلاجل فى المنصورة وسوق الثلاثاء بجوارها ، والذي كان خاليا طوال الأسبوع حيث يلعبان كرة القدم . وترعة البحر الصغير ، وتسابقهم فى الماء وبلبطة أولاد الحي وهم يعلمونهم السباحة ، وقد أصبحتا شارعين مسفلتين .

كانت عربات النقل تسرع فوق الأسفلت بجوار بحر مويس ، وهم فوقها ، ينشدون:

لكل شجاع إلي الانتصار مضى فى ثبات إلي حتفه*

سلام يزلزل قلب الطغاة يحطم من ليس يحيي به

سلام عليكم رفاقا أباة ومن جد منكم بأنفاسه

سلام يقيم بناة الحياة نعيم الملايين فى ظله

لمحت شقيقة الهواري خارجة من محل . أحسست ولست أدري كيف أنها تداري نفسها مني . وقفت فى طريقها . ارتبكت خطواتها . وقفت مستسلمة . ابتسمت ، فاستعدت ما كان منها ومني فى لحظة .

– سعيدة

– يعني

لحظت أن ملابسها ، ليست ولابد ، فخجلت من نفسي .

– لماذا هذا بالذات .. ؟!

غادرت عيناها وجهي ، فأحسست بالحرج ، وندمت علي تسرعي بالسؤال .

---

* الأبيات لزميل قديم لا يحضرني اسمه .

طال اعتقالي ، وكانت الدنيا أيامها مظلمة ، أو ربما حاولت الهرب مـــن مســـاكن الإيواء . لكن مع من .. مع فاشل في تعليمه ، يخب في ركاب ، أحد مقاولي هدم البيـوت وبيع أنقاضها ، وكثيرا ما تعرض لسخريتنا ، وكانت هي من أوائل الساخزين .

نظرت إليها وقد حز في نفسي . لماذا أوقفتها .. لماذا .. ؟! دخلت بيتي ، ولم أكـن فعلت منذ شهور . ذهبت لأشعل البوتاجاز . فتحت باب الفرن .

عدة فئران غضة ، تحرك أعضاءها الرفيعة بالكاد ، صنعت لها أمها حضانة مـــن ندف القطن .

وقف مدهوشا .

(٣٣)

لملمت الشمس غزلها الرهيف من فوق البيوت ، ومن رمل الحارات ، وألقت بـــه فوق مياه البحر . تغطس به حينا ، وتطفو به حينا ، والموج يداعب القـرص الأحمـر . يرتفع ويرتفع حتي يكاد يغطيه .. فيستبدل بخيوطه في ذهبية لون القمح ، خيوطـاً مـن سكر غزل البنات ، المشبع بالإحمرار .

يرتفع الماء .. وتحول الشمس وجهتها ، لتنشر خيوط غزلها في مكان آخـر مـن العالم .

وسعد قد هيأ نفسه ، ليطلب إجازة يومين لندا ، وحين شرع فـي الكـلام ، سـبقه حمدي أبو زيد :

- غدا ، سنبدأ حملة لمدة أسبوع لإزالة جميع النموات أسفل سيقان الخوخ .

استبوخ سعد ، أن يفتر من حماسه ، وقد استطالت سيقان الخوخ واشتدت .

ومن قبل ، حاول إثناء ندا عن الإجازة ، لعلمه بما ينتويـه الباشـمهندس ، لكنـها أصرت . تحدث أخوها تليفونيا من بالوظة إلي خالها في العريش . عندهم حملة لتحصين الأغنام، ضد مرض حمي الوادي ، وفي حاجة لها .

- ألم تخبريني أن أخاك في المدرسة .

- يترك الأغنام ترعي في البكور ، ويذهب إلي المدرسة وبعد خروجه يُكمل يومـه معها .

- ومتي يذاكر .

- وهو معها .

لم يجد ما يقوله فاستمرت :

- حين كنت في سنه ، لم تكن في بالوظة ، أو بالقرب منها أي مدارس .

أمسك إحدي يديها ، فتركتها وهي تقول :

- أمي عجوز

- ومالك .. والغنم

- كنت راعية ، قبل أن يلحقني خالي فى هذا العمل بعد وفاة أبينا .

حار ، كيف يقنع الباشمهندس .

- أقول يعني ..

- لا تقل شيئا .. وبعد هذا الأسبوع سنعمل رشة باللندين ضد ذباب الفاكهة .

علق سعد :

- وهل هنا ذباب فاكهة .. ؟!

تفكر حمدي مليا .. وقال :

- نسأل .

- أقول يعني .. أستأذنك فى إجازة يومين غدا .

انتفض حمدي :

- هذا وقته ..

- ظرف طارئ .

- الطارئ عندنا

وومضت عيناه بألق فرح ، واستمر :

- بعد نزع الزائد من ساق النبات ، وترك عدة أفرع منتقاه ، نكون حددنا هيكل الشجرة مستقبلا .

عزّ علي سعد ألا يجاريه ، ولكن ماذا يفعل وقد وعد ندا . لم يجد بدا من شرح الأمر ، فتفكر حمدي قليلا ، وقال :

- أمرنا لله .. يوم واحد فقط .

عاجله قبل أن يرجع فى كلامه :

- وهو كذلك .

خبأ حماسه ، وتطلع إليه بعينين مترددتين .

– ماذا ثانية .. ؟!

– العربة .. أوصلها وأرجع ، حمامة .

أطرق حمدي ، رفع رأسه وقال :

– أنا لم أقل شيئا .

وقف سعد متردداً ، فزغدة في صدره :

– ماذا تنتظر .. ؟!

لحظ العميد چورج أديب ترددهم ذات مرة لحظة الهجوم فصاح :

– الله أكبر يا رجالاً .

فصاحوا جميعا :

– الله أكبر .

بعد الهجوم ، اشتكوا له من قائد التشكيل ، فقال:

– تعرفون المطلوب منكم .. تصرفوا حسبما يمليه الموقف عليكم .

تقدموا لاحتلال تبة القيادة في القطاع الأوسط . أصر قائد التشكيل أن يصعدوا راكبين العربات المدرعة ب ك . رأهم قائد يحتل تبة مجاورة ، فتحدث مع قائد التشكيل تليفونيا .

علموا أنه أخبره أنه ليس ضروريا أن تركب قواته كلها المدرعات ، ليقلل من الخسائر ، فرد عليه : أقتحم راكبا كما فعل جنرالات الحرب العالمية الثانية . وحين قال له الموقف مختلف ، لم يرد عليه . لحظوا أن فصيلة من قوات التبة المجاورة ، تشغل جانبا للإسرائيليين من ناحيتها ، فقدروا لقائدها صنيعه ، فقد خففت القصف على القوات المهاجمة . كانت كتيبة سعد هي التي ستقوم بالجهد الرئيسي ، وباقي القوات أجناب لحمايتها . هجوم بطريقة المروحة . ثبتوا كتيبة ، وتحركت أخرى نصف حركة ، وشرعت ثالثة في التطويق .

انشغل الإسرائيليون في الرد على الجانب الذي فتح النار . لحظ جانب آخر الموقف ، فخفف عنهم بفتح نيرانه . ومع ذلك لم يتمكنوا من إحتلال التبة . غيروا في

مواعيد الهجوم . هاجمموا ظهراً ، وفي آخر ضوء ، وأخيرا في أول ضوء فى صباح اليوم التالي . ولم يتم لهم احتلال التبة إلا فى المساء .

وكانت عربة القيادة ، وبها العميد چوچ أديب ، تتقدمهم .وكانوا يطلقون عليها : الأديبة . الأديبة راحت . الأديبة جاءت . فجأة تعثر جنزيرها فى لغم . توقفت العربة ، ويبدو أن الإسرائيليين هرشوها ، لكثرة الهوائيات التى تتصاعد منها ، فركزوا مدفعيتهم عليها . أمر قائد التشكيل فصيله سعد ، أن تتقدم منها ، وتقدم تغطية بالنيران ، حتى يمكن إخراج من بداخلها .

تقدم سعد بدبابته . وضع المعمر الدانة ، جري المقذوف ، نصف الخرطوشة فى الداخل ونصفها فى الخارج . ماذا جري .. وكان الإطلاق جيداً منذ الصباح . لو أبلغ سعد قائد الفصيلة سيقول : لماذا لم تفتش على ذخيرتك قبل العملية . وهل يستطيع أن يقول له أنهم لم يناموا من عدة أيام . لن يجدي أي اعتذار . وحتي إذا وجد دانة ملقلقة ، متي كان سيرجعها ، وأين .. ؟! آه .. لا وقت لمثل هذا الحوار . فلو أبلغ قائد الفصيلة قائد التشكيل ، سيوقع به أشد العقاب ، خاصة ، وكان مشكوا فى حقه منذ قليل . تناول المعمر دانة أخري ، ودفع القاذف بكعبها الدانة الواقفة ، جرت الدانة وانطلقت . عمر بدانة أخري .

سعد يعد : ألف وواحد ، واثنان ، وثلاث وأربع وخمس . وثبت بالدبابة حتي يطلق القاذف . نفس المشكل ، فأخذ سعد يناور بالدبابة ، سائرا بسرعة ستة كيلو مترات فى الساعة ، ليتيح له الفرصة للضرب ، والمفروض أن يسير بسرعة خمسين كيلو مترا ، ليتفادي القصف الإسرائيلي ، وليلحق بعربة القيادة . أبلغهم قائد الفصيلة أنهم تأخروا فى الضرب . فالمفروض أن يطلق الدانة فى حوالي خمس ثوان . قال سعد : عطل بسيط يا أفندم وتم التغلب عليه . مصيبة لو غررت به الدانة الثالثة . بم .تراخ .. وتنفس طقم الدبابة براحة .

تقدمت الفصيلة بتشكيل رأس سهم ، ونظراً لاشتداد القصف الإسرائيلي ، أمرهم قائد الفصيلة ، أن يتقدموا فى شكل " زجزاج " ، خاصة وقد لحظوا أن طائرات اسرائيلية تحوم فى الجو ، تود التدخل في المعركة .

إشارة عاجلة من العميد جورج إلي الدفاع الجوي : احذروا الطيران المنخفض .

فهموا أنه يطلب منهم ألا يلتفتوا إلي الطائرات المرتفعة ، كانت علي ارتفاع يزيد علي عشرين كيلو مترا ، وترسل عادما أبيض ، لشد الانتباه ، ولتستجلب الصواريخ ناحيتها ، وهي غير مؤثرة عليها في هذا الارتفاع . وفي نفس اللحظة تظهر طائرات علي ارتفاع منخفض جداً ، حتى لا تراها شاشات الرادار ، فلا تكاد الصواريخ تنطلق من قاعدة ، حتي تدكها علي الفور . ويبدو أن الإسرائيليين أدركوا من عدم استجابتهم للعادم الأبيض أنهم لن ينخدعوا ، فلم يرسلوا طائراتهم المنخفضة .

اقتربوا من عربة القيادة، فأمرهم قائد الفصيلة أن يأخذ التشكيل رأس سهم معكوس.

رئيس العمليات ، أصيب بشظية في ظهره ، حمله أحد الضباط ، وأراحه علي الأرض ، بينما العميد يصيح :

- تقدموا يا رجال

شملتهم حالة من اللامبالاة بالقذائف التي تتري حولهم ، وتقدموا .. استولوا علي التبة الحصينة . وجدوا ثلاث دبابات إسرائيلية مدمرة ، وكذا بعض المدافع . أخذت قذائف الإسرائيليين تنحسر شيئا فشيئا . وانتبهوا لرئيس العمليات المسجي علي الرمال . وجهه أسمر ، مشرب بخيوط من الدماء ، وتتشع من فودية ومقدمة رأسه شيبة خفيفة ، أضفت عليه هيبة . ولم يجسر أحدهم علي الاقتراب منه .يرفضون تصديق موته.

أمر قائد السرية ، بحمل الجثمان إلي التبة . أقاموا له قبرا أعلاها ، وأطلقوا اسمه علي التبة . بعد وقف إطلاق النار ، رفضوا نقل الجثمان من مكانه . حضر قائد الجيش الثاني وحدثهم برفق .. وأن الجثمان من حق أهله .

وافقوا بعد لأي . احتفظوا بشاهد في مكان استشهاده ، وغرسوا حوله بعض النباتات الصحراوية .

(٣٤)

وردت إشارة :

أغلق الإسرائيليون قبل رحيلهم آبار المياه ، يُرجي العمل علي إعادة فتحها . والتأكد من صلاحية مائها للاستخدام .

أربعون بئراً . كيف أجد وقتا لإعادة فتحها . ولعل بعضها قد فسد ، أو هربت المياه منه . اقتربت العربة من رمانة . طالعته خضرة أشجار متناثرة ، حينا ، وكثيفة ، حينا . وبقع من الأرض معشوشبة . وبيوت بين منخفضات الرمال ، تحيط بها أسوجة من سعف النخيل ، جارت عليها الرمال ، وجارت الشمس ، فتغير لونها إلي ما يشبه البني المؤكسد . وبيوت فوق الربي ظهرت شبابيكها ، بألوان خضراء وزرقاء . باهتة. ولاحت مدرسة علي الطريق ، بجوارها أبنية ، مخروطية السقوف . أغلب الظن . حظائر سيارات ، ومخازن لمواد بقالة أو زراعة . لمح مقهي علي الطريق ، أعدت بشكل ، كما حدث نفسه ، يسمح باستقبال السائحين أو أصحاب العربات الخاصة وما أكثرها الآن علي الطريق .. باحة عالية ؛ تصعد لها بعدة سلالم .. وترابيزات متناثرة .. فوقها مظلات ملونة ، مثل شماسي الشواطئ .. وراديو يبعث أغنياته .

طلب من السائق أن يركن ، إلتماساً لشئ من الراحة ، ولكوب من الشاي ..

آه .. لو هفت نفسي وقتها لكوب من الشاى ، لعددتها مجنونة . فقط جرعة ماء .. جرعة .. ! .. فقط بل اللسان المشقق بقطرات ..

لسعتنا الشمس .. لسعتنا .. ؟! .. شوتنا .. أحرقت جلودنا. رأينا أمامنا صفا من الدبابات الإسرائيلية ، لا يقل عن الأربعين ، يعني كتيبة ، العسكر فى حالة استرخاء ، أطل بعضهم من أبراج الدبابات ، وآخرون قفزوا منها . وعربات من الترييت ، ومساعد كرشه ساقط أمامه ، وذقنه ، نبت فيها شعر أبيض . التف حوله العسكر . ناولهم زجاجات مياه غازية ، فيما أحسب ، وقطعاً من الشيكولاته ، وعبوات من البسكوت . وحين زادت الجمهرة ، خلع القايش ، وطوح به فى الهواء ، وهم زائطون ،غير مبالين.

زادت رائحة الشياط ، ونحن ميتون فى جلودنا ، في خنادق مبعثرة علـــي جـــانبي الطريق المسفلت ، العاري من أي مبان ، فقط ثمة أخصاص ، من جريد ، متناثرة بيـــن كثبان من الرمال ، وأمعز ، تنبش فى الأرض .

– قنبلة يدوية يا عالم .

وتذكرت ما تدربت عليه عام ١٩٥٦ ، قنبلة فى البرج ، وأخري فـــى الجـــنزير ، دبابة فى الأمام وأخري فى الخلف أو الوسط ، وتتعطل الكتيبة ، ويصبح أفرادهـــا فـــى متناول بنادقنا الآلية ورشاشاتنا .

حانت مني التفاتة لزملائي فى الخندق . منكمشون خشية أن يلحظـــوا وجودنـــا . وحين سمعت أصوات تحركهم ، أغمضت عيني بشدة ، واهتز جسدي ، وأنا أتخيلهم قـــد عملوا مربعا ناقصاً ضلعا ، حول أحد مواقعنا .. ولن يوجعك ..

فى الطريق إلي العربة ، انسابت .. "أنا قلبي إليك ميال ".. رفت روحه ، خضراء، غضة ، فى نشوة بكر ، ود لو يعود إلي كرسيه . لكن نظرة إلي الـــنق الـــذي ســـبقه ، جعلته يتبعه .

– اقتربنا من بلوظة .

– علي وشك .

طالعته خضرة ، وشجر ، ومبان جديدة ، ومدرسة .. لا .. اثنتـــان فيمـــا أظـــن . وتساءل فى نفسه ، لماذا هذه المنطقة مشجرة هكذا . هل نسبة المياه الجوفية أكثر . أم أن فرع النيل القديم كان يمر من هنا ، وترك غرينا احتفظت به الرمال ، وترك مـــاءً فـــى الأعماق .

ماذا كان يجري لو اسماعيل خديو مصر ، أو من قبله محمـــد علـــي ، أراحنـــي أحدهما وحفر ترعة هنا،تضاف لما حفراه من ترع كانا يفاخران بها.لم تراهما تصدا عن الحفر ليسببا لي وجع القلب.ومن يدريك..ألن يســـتطيع الإســـرائيليون تســـميم الترعـــة. يسممونها..أه..لكن يغلقوها، كما أغلقوا الآبار لا ، لماذا سعادتك زعلان ، يردمونها.

هدأ السائق من سرعته . انحرف إلي جانب من الطريـــق . بينمـــا يفـــك الســـائق ركبتيه،تطلع إلي الشجر.لو سمم الإسرائيليون الآبار هنا،لانعكس ذلك علي مظهر الشجر.

تنبه إلي أن هذه الأشجار لا تروي من الآبار . إذا لظهر الأثر فى الزرع .. تطلع أمامه علي مرمي البصر ، وقال :

- بنا .

مالي أنا والآبار وقلتها . لابد من حسم الأمر . هل أظل أجري وراء سراب إسمه صفية ، أم أتوكل علي الله وأتزوج سمية . أنت فى سن لا تتحمل التلكؤ ، وإلا فمتي تربي طفلا ، لو جاء . وماذا إذا لم يأت الحب المنتظر ، وأطلت من الوجدان صفية .. ؟! ماذا أفعل حينئذ .. ؟!

- هنا .

وأشار ناحية الزرع . أخضر ومرعرع . لمح مجري منحدراً ، مبطن بالأسمنت ، مسور من الجانبين ، لاصطياد مياه المطر من تل قريب ، حتي لا تهرب . جميل .. لم يكد يرفع رأسه ، حتي حضر إليه عماله من خص وسط الزرع لم يلحظه ، كأنهم كانوا فى انتظاره . تبدلوا الشكر ، بعد أن أخبرهم عن مهمته لإعادة تشغيل البئر فى ناحيتهم وصيانته . شمروا عن سواعدهم . وحذرهم من استخدام مائه حتي يخبرهم بنتيجة فحص عينة أخذها .

مال السائق بالعربة إلي مقهي ، بجانب الطريق . تطلع إليه ، وقد افتقد سعدا :

- ريقي نشف .

أحضر صاحب المقهي ، فيما بدا ، براداً من الصاج الأزرق ، وكوبين زجاجيين ، تحتهما طبقان من الصيني .

- عنك .

أخذ حمدي البراد ، وشرع يصب الشاي ، وهم يتشمم البخار .

- من بورسعيد .

- رفح

رمقه بدهشة ، فبورسعيد علي بعد خطوتين ، وكمنطقة حرة مليئة بالبضائع المستوردة ، والشاي هناك من مختلف الأنواع وبأسعار رخيصة .

- عربات الأجرة ، تذهب إلي رفح يوميا ، محملة بالعمال ، بعضهم يعبر إلي رفح فلسطين ، يعملون ويتسوقون .

قلب السكر . وتأمل رسما لكونت وكونتيسة علي الطبق . قالت صفية : كان نفسي تشوف طقم فناجين شاي روميو وجولييت الذي اشتريته من غزة . منه لله موظف جمرك القنطرة شرق ، علي حافة القناة . أصر علي ضرورة فتح العلب الورقية كلها . كنت أحشر بين الفناجين قمصان نوم من النايلون ، حتي لا تتكسر من الشيل والحط . ظنني أهربها . حاول المشرف علي الرحلة أن يقنعه بحسن النية ، زنجر طالباً تصريح سلاح الحدود بالمرور في سيناء . خشي المشرف أن يطلع فيه القطط الفاطسه ، فسكت . نزع الموظف القمصان فى لامبالاة وأخرج محتويات بقي العلب . أعدتها كيفما اتفق . ورصتها زميلة فوق ذراعي . سرت منحنية عليها بصدري . وضعت قدميَّ علي السلمة الحجرية ، للنزول إلي المعدية . وعدوك .. لا أدري ماذا جري .. ترقصت العلب . طرحة أمي فردها الهواء ، وقميص نايلون حريمي ، شبك في أزيم حذائي . وصوت نشنشة.آذان فناجين منثورة ، وأطباق شُرشرت حوافها . وكسر به روميو ، وآخر به جولييت .

هبت نسمات ملطفة لحرارة الجو ، معبقة بشذا الأشجار . لاشك أن عمرو بن العاص توقف هنا لا عند طرف العريش الغربي ، ليقرأ خطاب الخليفة عمر بن الخطاب، إذا لم يكن دخل مصراً أن يعود أدراجه .. هل كان يقصد مصراً ، أم وادي النيل .. ؟! .. علي أيه حال كان عمرو علي عكس السيناويين ، لم يعتبر الوادي بعيداً . بل علي مدي فركة حافر خيل ، واعتبر نفسه قد دخله ، لم تراه ، أسرع ، حتي يجب الزمان والمكان ، وتصبح رسالة ابن الخطاب غير ذات موضوع ، لا شك أن موقع "الفرما" كان هنا .. أو بالقرب من هنا .. وأن هذه الخضرة ، أغرت بدويا مثله ، ليعسكر بجيشه ، ويأخذ أهبته للوثوب علي وادي النيل ، ومواجهة الحامية الرومانية .

سأل حمدي صاحب المقهي ، وهو يحاسبه :

- ألا توجد عربة أجرة من هنا إلي بورسعيد .

- تذهب إلي القنطرة .

سرح حمدي ببصره ، المعيز تبحث فى دأب عن كلأ ، وكبش فى جانب ، أضخم منها حجماً ، يحرك رأسه ذات القرنين الملتويين إلي الخلف .

وصل الباص محملا بالأسري إلي بئر سبع . توافد الأهالي فى هرج ومرج ، يحملون الترامس وشطائر وكعكاً للجنود ، ويحملون إلينا البصقات ، تكاد تخترق زجاج العربة . وحين أنزلونا ضرطوا فى وجوهنا بأفواههم ، ورطنوا بالعبرية ، وقد كشروا عن أسنانهم . مر بنا شخص يحمل دلوا من الماء ، أشار إليه الحارس وقال :

– عربي

طالعتني منه بشرة بيضاء ، شمعية . قال الحارس :

– أخبرهم .. كيف تعيشون معنا .

نظر إلينا الفلسطيني مليا . سحب نظره ببطء ، ومضي .

وعند تبة بالقرب منا ، أطل وعل . صخب بعض الجنود الإسرائيليون ، وأسرعوا فى أثره ، وهم يطلقون الرصاص .

ظهرت رأس وعل . أعجبني لونه البني المائل إلي المشمشي ، لا يكاد يبين من لون الجبل فى غرب أسوان ، وقد التف قرناه للخلف ، وخُيل إليّ أن طول الواحد منهما يزيد عن المتر . زيطنا وقد ظهرت وعول أخري ، الواحد منها فى حجم العجل الذي شب عن الطوق ، أذناه أقصر من أذني الحمار ، ذيله قصير جداً ، وقوائمه أبيض على أسود . وجارانا فى الزيطة والجرى بعض تلاميذ رحلة الثانوية العامة إلي الأقصر وأسوان من المدارس الأخرى،الذين تصادف وجودهم معنا . وكنا حين نظن أنا اقتربنا من إحداها خلف نتوء نجدها قد أطلت من خلف نتوء آخر . تقطعت منا الأنفاس ، وقال أحد الطلبة .

– دوخ الإنجليز وضيوفهم .

التفت إليه . بشرة سمراء لامعة ، وعود سمهري عاود الحديث :

– تنظف الجبال من الحشرات ولا تسمح لغريب بارتيادها ، طاردوها بالبنادق ، ففرت بعضها إلي تلال وجبال المعادي وبعضها إلي سيناء . لم تسلم من رصاص حاميتهم فيها ، فذهبت إلي سدوم بفلسطين .

(٣٥)

وجده منهمكاً فى ملاحظة العمال والعاملات ، وقد لاحت شـجيرات الخـوخ فـى الأغوار ، والأراضي المنبسطة ، وأصبح لها منظر .

اقترب سعد منه ، فلم يزد حمدي عن إشعاره بإحساسه بوجوده. قال سعد :

- تمام .

صعدا إلي العربة . تمتم سعد :

- الله ينور .

طافت عيونهما بالشجيرات . أدار سعد العربة ، وبينما ينطلق ، قال :

- أدعُ لمن تركك تزرع وتقلع علي حافة القناة .

كانت الطائرات الإسرائيلية تطلع للتصوير أولا . ثم تأتي للقصـف بعـد ذلـك . الدبابات تتخندق ، ويخفون أي ظلال . يعرفون من ظل المركبـة نوعـها وتسـليحها ، يضعون شجيرات وفروع من أغصان الشجر فى جوانبها، كي ينبعج ظلها ، ولا يظـهر نوعها من الصور الملتقطة ، حتي عربة التعيين ، كانوا يخفون آثـار عجلاتـها علـي الرمال ، وعينوا مناوبا لمراقبة ذلك . وكانوا يعرفون أنهم أجادوا التمويه ، عندما تقصف الطائرات بعيداً، ولا تُغير عليهم .

نزل حمدي عند المحافظة ، لتخليص بعض الأوراق ، وأخبره سعد أنه سـينتظره ، فى مقهاه . وذهب إلي الحارة الرملية ، بالقرب من شارع الشاطئ .

أسلم نفسه لظهر كرسي من الجريد . تخللت ظهره راحة ، وود لو يتمطي ، ويفرد ساقيه ، وقد خايلته غير بعيد ، سعف نخلة ، استسلمت مطاوعة ريحا هينة .

وغير بعيد من المقهي ، كانت نخلة ، حركت سعفها ، ريح جافـــة ، مـــن جـــوف الصحراء ، وأم ميلاد ، وقد أصبحت لها عربة يد خشبية ، وضعت عليها سباطات مـــن البلح الأحمر . ومع ذلك لم يسلم القس من لسانها . تتلفت حولها ، مشيرة إلي المحال فـي السوق .

– ألست مثل هؤلاء .

– احمدي الله .. بعد الفجل والجرجير .. بلح وفاكهة .

– حمداه قبل أن أراكم .

فينطلقون جميعا في الضحك ، مفوتين عليها الاسترســـال فـــي الحديـث ، حتـــي لاينالهم رذاذها . حكي له أصدقاؤه ما فاته من صباح السابع مـــن أكتوبـــر علـــي أرض سيناء. فوجئوا بامرأة تطلب مقابلة القائد . فوق رأسها مشنة ، أطلت من حوافها ، شـــقق طرية من العيش الساخن ، وفي قمة المشنة سباطات من البلح الأحمر .

أخذ ضابط السرية بعض الجنود ، تكئة ، للقاء العميد جورج ، الذي كان معروفـــا عنه عدم لوم الضباط في حضرة الجنود .

حين رآهم ، تجهم وجهه ، وأمسك نفسه بصعوبة ، وهو يقول :

– هذا وقته يا حضرة الضابط

وكانت تُسمع علي البعد أصوات انطلاق الدانات ، ودفقات متقطعة من رصـــــاص الرشاشات .

مال عليه رئيس العمليات ، بابتسامة هادئة ، وقال بصوت خفيض :

– حضرت المرأة وانتهي الأمر .. لا تكسفها سعادتك .

قال العميد من بين أسنانه :

– شكراً يا ماما .

ولكن هذه تسمرت ، رافضة إنزال حملها . تطلع العميد جورج حولـــه ، فأسـعفه رئيس العمليات بإيماءة من رأسه إلي المشنة .

تقدم العميد جورج فى نفاد صبر ، وأخذ فرعا من البلح . عندئذ أنزلت المرأة المشنة وأطلقت زغرودة . فلم يملك العميد جورج نفسه من الضحك ، وانتهز الموجودون الفرصة ، فقال قائد السرية :

– سعادتك لم تر الفلاحين .. رجالاً ونساءً يحملون " الصباحية " صوانٍ ، عليها قرص وفطير مشلتت ولوازمه من الجبن والقشدة والعسل الأبيض ، والشاي باللبن . ويمشون فوق المعابر .

لوح العميد بيده إلي السماء ، بما يعني : وغارات الطائرات ..

قال رئيس العليات :

– ولا فى دماغهم ..

تناول العميد جورج ، بلحة وضعها فى فمه ، ليزيل الحرج عن الحضور ، فمدوا أيديهم وأمر بتوزيع ما أحضرته علي الجنود .

قال رئيس العمليات :

– أ راهن أنها لا تملك سوي نخلتين ، أحضرت لنا بلحهما .

تطلع سعد فى ساعته . تأخر الباشمهندس . فكر أن ينصرف ، لتدبير الغداء .. تريث قليلا .. الرجل سيجمع أقساط الجمعية . وربما تأخر فى انتظار أحدهم ، ليأخذ قسطه . هل أستطيع أن أطلب منه أن يتم جميله ويقرضني باقي ثمن حجرة النوم ، لا.. يكفي تنازله لي عن دوره .

ماذا سيكون حاله ، لو جاء ولم يجدني .. يا للنذالة .

الضابط الذي تخلف ، اصطادوه حين عودته ، ليضرب كمدفعي ، علي باب أحد الحصون ، مع المدفعية . كانوا يضحكون عليه ساعة الهجوم . وقف فى فتحة برج الدبابة رجل فى الخارج ورجل فى الداخل .

– يا أفندم انزل .. أنت هكذا معرض للخطر أكثر .

– روحك ليست أحسن من أرواحنا .

وفى عصبية قال سعد ، وكان الضابط قد تسلم منه قيادة الدبابة :

– أنت الآن تعرضنا لأى شظية قد تسقط من الفتحة .

جلس القرفصاء علي مقعده ، مستعداً للقفز في أي لحظة . حـــاول ســـعد تعديـــل وضعه دون فائدة . ركبتاه تخبطان فى ظهره . أطلق قذيفة ، أسكتت المدفع الـــذي كـــان يطلق عليهم من تبة الإنجليزي . في ارتداد المدفع ، لبس مسمار مثبت شَدّواقي المدفـــــع فى إحدي ركبتي الضابط. نزل سائل أبيض ، أعقبه دم . أخرج سعد رباط الميدان وربــط له ركبته ، فهو يملكها إلي جواره .وطلب منه أن يغادر الدبابة ، ليبحث عن عربة تقلـــــه إلي الخلف للعلاج . فجأة. تغير وجهه ، وقال أنه سيحارب معهم حتـــي النهايـــة . فـــي المساء ازداد عليه الألم ، وعجز عن تحريك ساقه تماما ، وأخـــذ يصـــرخ ، اضطـــروا لحمله ، وإرساله إلي المؤخرة .

فى صباح اليوم التالي عرض قائد الفصيلة أن يحتلوا تبة بـــالقرب منـــهم ، تدعـــم موقفهم عند الهجوم علي تبة الإنجليزي . اعترض سعد :

- الأن الشمس فى عيوننا .. يروننا جيداً ونحن لا نراهم .

وافق علي الانتظار حتي المساء ، علي أن يكون الهجوم بثلاث دبابات فقط .

قال أحد الزملاء :

- أفاد الاستطلاع بوجود خمس دبابات علي التبة .. لازم الهجوم يكون متفوقاً .. علي الأقل ٣-١ .

قاموا بهجمة ، لم تنجح ، فانسحبوا استعداداً لهجوم أخر ، وزاد القائد عدد الدبابـــات المهاجمة .

كانت تبة الإنجليزي صعبة . وتستطيع أن تري منها الإسماعيلية علي مسافة خمسة وعشرين كيلو مترا تقريبا ، كما تري منها الفردان والقنطرة غرب . وصعوبـــة التبـــة ، ليست فى ارتفاعها فقط ، ولكن لأن تبة أخري اسمها تبة العسكري تحميـــها ، والقـــوات المصرية فى بطن التبة الأولي ، ولم تصل إلي الثانية بعد .

هجم لواء مدرع ، ولم يتمكن من احتلالها . تقـــرر الـــهجوم بالمشـــاة ، علـــي أن تساندهم كتيبة مدرعة . حين أخبرهم قائد الكتيبة بالمهمة ، رجفت قلوبهم ، فالتبة حاكمـــة، ولن يتخلي عنها الإسرائيليون بسهولة . سبق أن احتلوها ليلا واســـتردها الإســـرائيليون نهاراً ، بعد أن قصفوها من تبة العسكري ، ومن قواتهم الاحتياطية فى الخلف .

قامت الطائرات المصرية بعدة طلعات .ومهدت المدفعية ، قبل ان تتقدم كتيبة سعد المدرعة ، مساندة للمشاة . أخذت المدرعات ميمنة قوات المشاة المهاجمة . اشتعلت الدبابات حمية ، ولم تصمت مصادر نيران العدو . تسلقت الدبابات المصرية جانباً من التبة . استرعي انتباه سعد وجود دخان أبيض داخل دبابته خلافاً للدخان الأسود المتخلف عن إطلاق القذائف .

- يا جماعة كل واحد يفتش مكانه .
- لا شئ
- افتحوا فتحة الذخيرة للتهوية .

دخل هواء جديد ، أطل سعد خارج الدبابة ، وصرخ :

- الدبابة مشتعلة .

التفت للملازم أول الذي خلف الضابط المصاب .

- يا أفندم افتح البرج واقفز .
- لا .. لابد من التقدم .
- الدبابة ستنفجر .
- تقدم وأطلق .

وضع المعمر دانة ، وأمسك بيدي البرسكوب يراقب اليمين والأمام ، وأطلق الرامي ، فأخذ يراقب اليسار والأمام ولم يشعر سعد إلا بنفسه يدفع الملازم إلي الخارج ، ويقفز ، ووراءه باقي الطقم .

انبطحوا بعد عدة أمتار ، وسرعان ما انفجرت الدبابة . تطلع سعد إلي وجوههم ، وقد عمق إحساسه بالأسي . فهذه الدبابة حاربت معه أسبوعاً ، ولم تخذله أبداً . قرروا العودة إلي وادي النخيل انتظاراً لدبابة أخري . لكنهم وقعوا في مطب ، فقد نسوا الطريق التي شقها المهندسون وسط الألغام قبل بدء الهجوم . حاولوا الاهتداء بآثار جنزير دبابة . وجدوه مطبوعاً في مكان ، ومطموساً في آخر .

كانت مدفعية العدو تطلق علي الموقع ، فاهتدوا إلي فكرة . كلما قصفت المدفعية مكاناً تقدموا إليه . وهكذا ظلوا ينتقلون من مكان إلي آخر ، تلاحقهم القذائف ، فإذا

سمعوا تكة مكتومة "بم" ، انبطحوا فوراً . وإذا سمعوا صوتا يشبه الصفـــير ، أيقنـــوا أن المقذوف تخطاهم ، وسيسقط بعيداً عنهم ، فيواصلون السير ، حتي وصلوا إلي المؤخرة .

فى المساء علموا أن قواتنا احتلت التبة ، ولما لم يكن هناك استعواض ، فقد ظلـــوا حتي آخر الحرب دون دبابة.

وانتهزوا الفرصة لزيارة قائد دبابتهم السابق الذي أصيب فى ركبته ، في المستشفي بالزقازيق . ما أن رآهم ، حتي هب فى سعد :

- شفتني ميتاً ، حتي تتشهد علي .

وقال سعد فى نفسه : يا خبر .. رغم أنك حقنت بالاتروبين ، كنت واعيا .

وتابع الملازم أول :

- الحمد لله .. أن جاءت هكذا .

كان ساقه ، وجزء من فخذه قد بترا ، لتغلغل الغرغرينا .

- الحمد لله أنني ما زلت أعيش .

وأشار إلي ابنتيه :

- أمل وصفاء .

(٣٦)

– أين الخطر .. ؟!

قال صفوت :

– ليبيا .

ملمحا للتوتر علي الحدود المصرية الليبية . عاجلة ضابط التوجيه المعنوي :

– حمار

جلس صفوت منكسرا ، واستمر الضابط :

– الشرق .. الغزاة دائما يأتون من الشرق .

وقال صفوت فى نفسه : مازلت حمارا ، كيف وافقت علي لقاء عبد السلام فاروق، أحرجت نفسي وأحرجته ، فليس عندي ما أقوله عن صفية . وكيف كان يستطيع رده حين جاءه صوته فى التليفون : ليس كما تتوقع ، عندي موضوع هام .

أعطاه عصا ، كانت بحوزة اللواء جورج وقال :

– تخص العقيد مصطفي عبد الله .

– من مصطفي عبد الله ..

– مصطفي عبد الله .. !!

– أه .. رئيس العمليات .. يرحمه الله .

انتشرت عادة حمل العصا بين كبار الضباط ، فيما يبدو ، تشبها باللواء محمد نجيب ، الذي تصدر حركة " الضباط الأحرار " ، بوجهه البشوش ، وشخصيته الودودة التى اكسبته شعبية هائلة .

أمسك صفوت العصا . تأملها وقال ساخرا :

– ماذا يسمونها .. ؟!

– عصا المارشالية .

أومأ عبد السلام برأسه إلي قمة العصا .

تملي صفوت من الرسم ، واستمر فى سخريته :

- وماذا يعني ..

- عين حورس يا جاهل ..

تطلع صفوت إلي الرسم وقال :

- عين امرأة من حي المناخ ، لطختها بالكحل

انفجر عبد السلام ضاحكا ، وقال :

- علي اية حال .. الكحل اختراع فرعوني .

- وما شأني بالعصا .

- وجدها اللواء جورج في عربة القيادة بعد وقف إطلاق النـــار ، وطلـب منـي توصيلها لأبنائه ، فوعدته ، ولأني أعرف أن لك أصدقاء فى منيا القمح .

أه .. دبست ولا مفر .

وهو يغادرسأله عبد السلام عن مسعاه فى العمل مع أحد المقاولين ، كما سمع .

- سافر إلي الكويت .

جاء مندوب من الإدارة المالية ، ومعه حقيبة بها ستة وعشرون ألف جنيه ، مرتب شهر للجنود ، تبرعت به الكويت .

كان الجنود قد شدوا أغراضهم فوق ظهورهم ، وعقولهم مشغولة ، بما هم مقبلـون عليه ، والمندوب يريد توقيعهم علي استمارات الصرف . أخذه صفوت إلي قائد الوحدة . كانت أمامه بعض الخرائط . أصدر بعد الأوامر ، ولوح بإحدى يديه لصفوت قائلا :

- تصرف .

أخذ صفوت الاستمارات ، واختلي فى موقعه مع بعض الجنود ، ووقعوها . ابتسم المندوب ، أخذها وناولهم النقود . ذهب صفوت إلي القائد ، طالبا مهلة لتوزيعها . رد فى عصبية :

- أيعلم أحدكم .. هل سيعود أم لا .. ؟!

- يا أفندم .

أخذ الحقيبة ، وأطاح بها فوق الرمال .

بعد العمليات ، التقي صفوت القائد ، صدفة . قال الأخير :

- تعرف يا ولد .. ليتنا احتفظنا بالنقود .

فتح صفوت التليفزيون ، ليشاهد مباراة بين مصر والجزائر ، مريحا نفسه من التفكير في العمل وخلافه . ودعا الله ألا يركب العصبي لاعبينا ، لا لشيء ، سوي أن الجزائريين فازوا من قبل مرة أو اثنتين .

أعلن المذيع عن أسماء اللاعبين . وأذن الحكم ببدء المباراة .. كرة ضالة عند خط الـ ١٨ .. ولم تجد من يتابعها .

بالقرب من الكيلو ١٠١ علي طريق السويس ، كانت تعسكر وحدة جزائرية ، وإلي جوارها وحدات رمزية أخري ، سودانية ومغربية ، وغير بعيد نقطة حراسة اسرائيلية.

كانت الطائرات الإسرائيلية ، قد قصفت السويس عدة أيام متتالية . وألقوا منشورات تدعوا الأهالي للتسليم . وانسحب شارون بفرقته المدرعة من أمام الإسماعيلية، وانضم إلي فرقتين مدرعتين أخريين ، نجحتا في التسلل إلي الغرب . وشرعوا في اقتحام المدينة . انبطح الأهالي بجوار رصيفي الشارع ، في مدخل حي الأربعين ، وبالقنابل اليدوية أعطبوا جنازير الدبابات ، وجنود الجيش الثالث ، استخدموا الـ ر - ب -جـ ، ودمروا جميعا ، للإسرائيليين أربعين دبابة .

ومن خرج حيا اصطاده الأهالي ببنادقهم من الشرفات والنوافذ . وجرت قوة منهم ، واحتمت بقسم شرطة الأربعين . حاصرها الأهالي، والتقط أحد رجال التليفونات إشارة يستنجدون فيها بقائد الجبهة الجنوبية جنرال جونين .

وهرب من بقي حيا من قسم الأربعين ، حين حط الظلام ، ولم تعاود الدبابات الهجوم ثانية علي السويس ، وقد تداخلت خطوطهم مع خطوطنا ، حين نفذ قرار وقف إطلاق النار .

وكانت تمر من أمامهم ، قافلة المؤن ، خضروات ، ووقود للسيارات ، وأغراض طبية ، إلي الجيش الثالث في سيناء . ودائما تحدث مشادة بين جنودنا ، وبينهم .. وبعد

أن يتبادلوا الشتائم فى حراسة القوات العربية ، تمــر القافلــة ، ويفاجــأ قــائد المنطقــة بالجزائريين يطلقون النار علي الإسرائيليين . يرسل مندوبا ليكفوا عن الإطــلاق ، فقــد مرت القافلة وانتهي الأمر . يعدونه بذلك ، وما أن يغادرهم ، حتي يعودوا إلــي إطــلاق النار .

كاد أن يفعلها قلب الهجوم المصري ، ويسجل هدفا مبكرا .

ضحك صفوت من نفسه ، وقد ضبط جسده ، قائما نصف قومة ، يتابع الهجمــة . وضحك أكثر حين تذكر مباراة سابقة ، شاهدها معه حمدي أبو زيد . كانت مع تونــس ، يومها سجل التوانسة هدفا مبكرا ، وناموا عليه ، الوقــوع أرضــا ، وادعــاء الإصابــة لإضاعة الوقت ، حتى شاطت أعصاب المصريين وعجزوا عن التعويض .

بعد المباراة انفجر حمدي ضاحكا ، بينما كان صفوت يغلي . قال حمدي :

- أفتي زميل لنا .. بما أننا دولة متخلفة ، وذوقيا نقول نامية ، وكل شئ متخلف .. زراعة وصناعة وتعليم ومواصلات ، فلماذا تشذ كرة القدم .. ؟! اقتنعت بــهذا المنطــق زمنا .. وبدا كأنه تحليل ماركسي لا يخر الماء .

ردد صفوت في نفسه : الرجل رغم غلاسته ، لا يخلومنظرف . قال :

- لا ماركسي ولا يحزنون .. فقط أحد عشر ولدا يجيدون الرمح زمن المبــارة ، مع صقل مهارات اللعب .

تلقف حمدي الخيط :

- لفت نظري أن تونس دولة صغيرة .. واقتصادها علي قدهــا وتفــوز علينــا .. والبرازيل من أفقر الدول، وكثيرا ما فازت بكأس العــالم ، متخطيــة الــدول الغنيــة ، والمتقدمة في التقنية .

وانفجر ضاحكا .. تجاوب معه صفوت .. وقد بدأ يخفف من غلوائــه عليــه فــي داخله، وردد في خاطره .. يبدو أن عنده ، نفس عِرق الظرف الذي عند حمدية .

رجته مرة ، أن يعبر بها من السويس إلي بور توفيق في سيناء . فوجئت بالوحشــة تلك العمارات . أغلبها من طراز واحد كالعمارات الشعبية وقد شوهت طلقات الرصاص واجهتها ، وأحدثت الدانات ثقوبا في الحيطان والشرفات . والريح تعبث محملة بالغبــار

فى الشوارع . نظرت إليه ، كأنما معتذرة . لف ذراعه الأيمن حول خصرها ، وقادها ، برفق إلي مدخل إحدي العمارات .. تطلع إلي عينيها . اختفت يماماتها الويعة ، المنطلقة إلي المرح . حك أنفه بأنفها ، وأراح خده الأيمن علي خدها الأيسر ، وحكه ببطء . مستمرئا نعومة مثل نعومة حبة الجميز . استكانت إليه واستكان إليها ، وشملها بود . قطرات خفيفة من العرق فوق شفتها العليا . مزازة البرتقال الشموتي بين شفتيها . استنشق عبير جسدها بعمق ، حانت منه نظرة خاطفة إلي عينيها . يمامة منكسرة تحرك رقبتها وعينيها فى ترقب .

سارا صامتين وقد أحس بمنقار العصفور ، ينقر فى صدره . استغبيته .. لكزته بذراعها جهته .. توه فى الكلام ، وقال :

– أليس غريبا تسمية هذه المدينة باسم الخديو الذي خان مصر .

وكأنما استردت لياقتها فى الشقاوة فجأة ، قالت :

– لو أسموها بور عرابي لاحتلها الإسرائيليون ، وما تركوها أبدا ..

علت ضحكته ، وجذبها نحوه فى مودة .

الجزائريون يهاجمون . يريدون خطف هدف ، ليتلفوا أعصاب المصريين . وهؤلاء أقاموا خط دفاع قوي . هل سيصمد طويلا .. وهل ستقع أخطاء يستغلها المهاجمون . أخذ المذيع يردد :

– صرح المدرب قبل المباراة ، أننا لسنا فى عصر الكره الذهبي ، أيام الخطيب وحسن شحاته .

قال له الصحفي الذي يحاوره ، أي مدرب يتمني أن يكون عنده أساطين اللعبه مثل بيليه وبوشكاش ودي ستيفانو ، ليفوز . البراعة أن تفوز بما لديك .

استمع الرئيس السادات لطلب اللواء سعد مأمون قائد الجيش الثاني ، من الأسلحة والمعدات الحديثة . ولكن .. من أين .. الغرب لن يعطينا ، والروس لا يلبون كل طلباتنا. قال الرئيس حسما للأمر : معك قوات ومعدات تفوق ما كان مع مونتجمري فى صحرائنا الغربية فى الحرب العالمية الثانية .

ثغرة في الدفاع المصري ، مهاجم جزائري ، أطلق قذيفة أرض جو .. الحمد لله .. مرت فوق العارضة .

أخبرته صفية ، أنهم عاشوا ساعات لا يعلم بها إلا المولي .سمعوا أصوات قذائف، وانتشرت الأنباء في الإسماعيلية ، أن شارون علي رأس فرقة مدرعة ، يطرق أبوابها.

ابتسم صفوت ، وهو يستمع لها . كان الجيشان المصريان الثاني والثالث ، قد دمرا خط بارليف ، وكشحا الإسرائيليين إلي الخلف ، واستوليا علي منطقة بطول القناة ، عرضها من عشرة إلي خمسة عشر كيلو مترا ، حين تفتقت حيلة الإسرائيليين عن دفع بعض قواتهم إلي الغرب .

كانا ، يتغديان ، وقد قلبت صفية سمك الدنيس ، المفضل لديه ، وأعدت إلي جواره الأرز الأحمر الذي يعشقه . نفد أرزه ، فمد ملعقته إلي طبقها . جذبت الطبق ناحيتها ، مهددة ظهر يده ، بشوكة ظهر سمكة التهمتها . لكنه لم يتراجع ، وغرف بملعقته من طبقها .

واستمرت صفية : تصور .. ضابط مدفعية مضادة للطائرات ، حول مدفعيته وأخذ يقصف الدبابات الإسرائيلية ، وأسرع الناس وفتحوا المياه في منطقة الجناين ، ووجد شارون دبابته في مخاضة موحلة ، فأسرع هاربا بقواته .

أراهم المخرج أفرادا يسخنون خلف مرمانا ، والمذيع يعلق :

– هل سيبدل مهاجما بمهاجم ، أم سيدعم الدفاع .. أري أن يدعم الهجوم .. فإذا لم نكسب علي أرضنا .. فأين نكسب .

خيب المدرب توقعه ، واستعد لتدعيم الدفاع .. وبعد أن وقف اللاعب علي خط التماس استعدادا للنزول ، غير المدرب رأيه .. وأجل التبديل .. هجمة جزائرية .. والمذيع في ضراعة :

– استر يارب .

مرت الكرة بجوار القائم الأيسر . تنهد المذيع وقال :

– الحمد لله .

وقع أحد اللاعبين الجزائريين على الأرض . استدعي الحكم رجـــال الإســعاف . انتهز اللاعبون الفرصة ، وتلقفوا بعض زجاجات المياه .. هذا يشرب ويناولها لزميـلي .. وآخر يدلق الماء على رأسه ووجهه .

قال المساعد :

- نتوضأ ونصلي

- يا أفندم الماء لن يكفي الشرب .

- واجب ربنا أولا .

توضأوا جميعا ، وحين شرعوا فى الصلاة ، صفرت دانة . نظر المســـاعد إلـــي أعلي وصاح :

- الحفر

أسرعوا ، وهم يتمسون عليه .

أغلق صوت التليفزيون ، بعصبية ، وفي كل مرة تلاعب فيها مصر دولـــة مـــن الشمال الأفريقي ، يقرر عدم رؤية المباراة حتي لا تتلف أعصابه ، ولكنه يفعل .

ولم يكد ينهض ، حتي سمع ما يشبه " هيه " فى الفضاء ، فأسرع وفتح التليفزيون:

- مصر سجلت هدفاً .

(٣٧)

لحظ سعد أن ندا تخطت جامع العباسي ، ولم تعرج ناحية قلعة سليمان ، كما طلب منها . كانت لاوية بوزها طول النهار ، فخمن أن فى الأمر شيئا .

اقترب منها ، فأسرعت فى مشيتها فى الشارع المسفلت بحذاء الشاطئ .. حاول اللحاق بها ، قبل أن تقترب من منطقة الفنادق ، حيث سترفض الحديث خشية أن يراهما أحد .

كلما اقترب أسرعت أكثر . عليه بالصبر ، حتي تتخطي الفنادق . حانت منها لفتة، فراعه احمرار وجهها .

فى الضحي ، وبينما كانوا سعداء بدفء شتاء هذا العام، إذا بالباشمهندس حمدي ، يخشي ، أن يخدع الدفء النبات ، فيزهر قبل الأوان .

اجتازت منطقة الفنادق ، وبدأت الأرجل تقل ، ولسعة برد خفيفة . لو زاد البرد ، ربما ذبلت الأزهار ، وتلفت البراعم .

ذاب الشارع وسط الرمال الشاسعة ، حيث نمت بعض الأعشاب علي الروابي والمنحدرات ، وحدت الطريق ، ناحية البحر ، أشجار نخيل قصيرة ، وقد ظهرت واحدة طويلة ، وسط كل مجموعة كأنها ترعاها .

- علي مهلك .. قلبي وقع .

- لا كلام لك معي .

- ماذا حدث .. ؟!

- ما تقرب مني أربعين مربعا ، ولو قربت عليك أربعة مربعات .

وقف سعد حائرا ، لا يدري ماذا اقترف ، بينما استمرت ندا :

- في الصحراء ، ممنوع الاقتراب مني لأكثر من أربعين خطوة .

ضحك سعد .. وقال :

– لسنا فى جوف الصحراء

أشارت ندا لما حولهما من رمال ، امتدت على مرمى الأفق ، وإلي يمينها ، كـــان الزبد يتداح عن الأمواج الفاروزية ، ويرغي علي حواف الشاطئ .

حاول إمساك إحدي يديها ، فهددته :

– خطوة واحدة ، وأشكو لشيخ القبيلة ، تغرم عشرين ألف جنيه .

– شغلي طول عمري ، وطول أعمار أولادي من بعدي .

أشاحت بوجهها عنه . قال :

– لكننا فى المدينة ، ولسنا فى الصحراء .

– من سيصدقك .. ؟!

لمس فى لهجتها شيئا من الدلال ، فأدرك أنها علي وشك أن تلين . قال :

– فى الصحراء .. أليس مسموحا بالاقتراب من أجل شربة ماء ؟!

– ليس معنا ماء .

– للسؤال عن الطريق .

– لا نقتفي الأثر .

– لم يبق إلا إبداء الرغبة فى الزواج .

جاء صوتها موشي الحواف بغنة مستترة :

– كسبت يا خائن ..!!

– ...

– منذ وصلت شقيقة الباشمهندس ، وأنت لازق هناك. أوصلني يا سعد ، فــــحني يا سعد ، وأخرتها معها إلي الموقف لتركبها بنفسك .

ضحك سعد ، مقتربا منها . أمسك يديها ، وقال :

– تغارين .. ؟!

لوت شفتيها ، وحولت عينيها .

– الباشمهندس يعتبرني كأخ أصغر ، وهذه ضيفة .

ارتخت يداها فى يديه ، فترك إحداهما ، وطوق خصرها .

- نحن علي الطريق .

دفعها برفق ناحية النخيل ، وقد استشعر ليونة جسدها ، وحرارته .

- احذر .. الغرامة .

- عرج بها ناحية البحر .

- الغرامة تكبر .

التصق بها أكثر ، وجاسا في الشاطئ ، وهو يضمها قائلا :

- عليه العوض لي ولذريتي من بعدي .

ضحكت ، فلم يملك نفسه ، وقد تدفق الوجد من نظراتها ، ومن انفراجة شـــفتيها . قبلها بسرعة ، فأدارت وجهها . انطبعت القبلة علي أحد خديها . أحس بحرارته ، فعـــاود المحاولة ، لكنه أحس بنفور جسدها ، فانبثقت في ذهنه خشية الباشـــمهندس حمـــدي : أن التزهير قبل الأوان قد يعني الذبول السريع .

أخذ راحة يسراها في يمناه ، ووضعها علـــي صـــدره ، وقـــد تلامـــس جنباهمـــا المتجاوران . نظرت إليه بمحبة . اقترب برأسه من وجهها وهو يمد شـــفتيه ، تراجعـــت برأسها في خفة .

- أردت أن أثبت لك .

وضعت سبابة يدها الأخري علي شفتيه ، وهمست :

- لا تثبت شيئا .

كان سعد جريحا فوق الرمال ، وقد نال منه العطش . تقدم منه المـــلازم مجـــدي الشبة . أعطاه جرعة ماء بقيت في زمزميته ، وربط له ذراعه المجروح . وذهب ليمـــلأ زمزميته قبل الرحيل ، فأخبروه أن المياه معطلة لبعض الوقت .

كانت وحدة خاصة ، تمد أنابيب المياه ، خلف القوات كلما تقدمت ، مجلوبـــة مـــن الضفة الأخري ، علي طوف فوق مياه القناة . وخلف القوات ينشـــئون حنفيـــات ،وكـــان الجنود يسمون الحنفيه الغراب . ذهب الملازم إلي الغرب ، ليرى سبب تعطيل الميـــاه . في الضفة الغربية لمحه القائد السابق لعمليات الفرقة ، وكان يعرفه .

- شبة .. ماذا تعمل هنا .. ؟!

- المياه تأخرت .

- العساكر عطشت .. ؟!

ورفع يمناه ، وضربه قلمين .

- علي وحدتك فورا يا ابن الكلب .

- يا أفندم .

- يا جبان .. يا ابن الكلب .

رجع مهموما وحكي لهم عما حدث ، ولم تمض ساعات حتي كانت وحدتهم تستعد للهجوم . انهالت قذائف مدافع الإسرائيليين .

نزلوا إلي الحفر حتي تنتهي القصفة . فجأة ، خرج مجدي الشبة من حفرته ، وصاح :

- الله أكبر .

وتقدم إلي التبة المطلوب الاستيلاء عليها ، وسقط قتيلا .

بعد انتهاء القصفة ، تقدموا واستولوا علي التبة . وقتلوا بعض الإسرائيليين ، وفر آخرون ، وأسروا ثلاثة . وأخذت الحمية الجنود فتقدموا حتي مدي اثنين وعشرين كيلو مترا ، ولاحقتهم الطائرات الإسرائيلية ، فاضطروا للعودة إلي التبة القائدة ، ومع أن مدي صواريخنا المضادة للطائرات اثنان وعشرون كيلو مترا ، إلا أنها عندما تنطلق مائلة ، يصبح مداها المؤثر ستة عشر كيلو مترا . وفي هذا المدي ، لا تستطيع طائرات إسرائيل التحليق .

عندما أحسوا بإمكان التقاط الأنفاس . أخذوا أوراق الملازم الشبة ، ومتعلقاته الشخصية لإرسالها إلي أبيه . حكي مجدي الشبة عنه أنه كان عامل ترحيل ، امتلك قطعة أرض فى مديرية التحرير . وكان حلمه أن يري ابنه ضابطا مثل الضابط مجدي حسنين، الذي أنشأ مديرية التحرير فى قلب الصحراء الممتدة من القاهرة حتي الإسكندرية ، وخضرها بالزرع.وقد نشأ مجدي مع بنت عمه إجلال . وتعاهد الأهل علي زواجهما. وحين كبرأحب كل منهما الأخر . وتحقق حلم الأب فى ابنه ، بينما تخرجت إجلال من مدرسة المعلمات ، وعملت فى مدرسة ابتدائية .

استخسر الأب ابنه الضابط فيها . وكان الأب يطلب مــن ابنــه أن يرتــدي بدلــة الفسحة، حين يحضر فى إجازة ، ويضع عصا تحت إبطه كما يفعــل كبــار الضبــاط ، وينتظره علي محطة ايتاي البارود ، ويحمل عنه شنطته ، وأراهم مجدي خطاب أبيــه ، الذي طلب منه فيه ذلك ، دون خجل ، وقد قربت بينهم الأيام علــي الجبهــة . فــأحبوه لصراحته ، وروحه المرحة ، التى جبت عدم وسامته . كان جلده أسمر غطيسا ، بوجهــه آثار بثور حب الشباب ، وشعره مجعد ، والشئ الوحيد الذي خالف أباه فيه ، عدم قطعــه صلته بإجلال ، واستمر فى حبه لها .

اقترح أحدهم إرسال أوراقه إلي خطيبته إجلال .. تبادلوا النظرات .. علت الابتسامة وجوههم .

(٣٨)

هل يرون ما يراه . قابلوه بترحاب ، والبشاشة تغمر وجوههم . في قرار نفسه يعتقد أنهم لم يدركوا حقيقة ما رأي . اشتد عود الشتلات ، ومدت في الأرض . هواء البحر ، وريح الصحراء رخاء بالنسبة لها . تتمايل بثقة ومرح . وتستوي حينا ، شاخصة إلي سماء لبنية صافية .

دقق في جنين الزهر . خيل إليه أنه رأي جنين التبرعم ، أو هلمته . لا يستطيع أن يلمس ، ويتحقق . رأي في التبرعم الدقيق جدا جدا ، الثمر القادم . الاستدارة الناعمة، في أحجام مختلفة . الغور الصغير المستدير في قمة الثمرة ، أملس ممتد إلي البياض . لون الثمرة الأحمر القاني ، ممتد إلي الأبيض الخمري . وإلي أصفر الليمون البنزهير المشبع بالاخضرار ، وإلي أحمر القطيفة الفاتح والداكن . والزغب الخفيف . الدقيق ، كزغب الشفة العليا لعذراء شقراء . ملمس النواة الحمراء المنداة . المجزعة في تجسيم بارز ، والملتحمة بجسد الثمرة ، عند نزعها تتخلف بقايا علي بعض حوافها . لا .. خوخ سيناء مختلف . تمسك الحبة ، تضغط عليها بالسبابة والإبهام ، تنزلق النواة بسهولة ، مثل انزلاق نواة مشمشة مستوية . ومع الضغطة ، ينبثق عصير حلو ، سكري بمرارة، مستحبة ، ومزازة تجعل النفس لا تجزع ، مهما تناول الإنسان من الثمر . هل هذا ، ما جعل باعة الفاكهة الأخري ينادون عليها ، أنها مثل الخوخ شراب الورد .

لن ينسكب العصير بسهولة فيما بعد ، ولن يتسبب في إحراج من يأكل أمام أحد ، لتساقطه من جانبي الفم ، ولن يبقع الملابس في غفلة منه . هذه السيولة التي تسبب سرعة العطب للثمرة ، وتجعل تخزينه ، ونقله إلي محافظة أخري متعذرا ، حتى لو حفظ في ثلاجة .

آه .. لو نجحت هذه الزرعة .. وحمد الله أن الزارع هنا ليس مدينا لأحد ، مثل الفلاح في الوادي . يستدين من " القومسيونجي " شتاء ، ويرد الدين خوخا في الصيف ،

بثمن بخس ، ويضطر للاستدانة ثانية ، من أجل المحصول القادم، ويظـــل فـــي دائـــرة " القومسيونجي " ، التى يصعب الفكاك منها .

استقل حمدي عربته الجيب ، من ناحية أغوار رفح ، في اتجاه العريش . فى كـــل غور ينزل ويتأكد ، وكلما وجد الريح رخاء ، والأعواد تتمايل معها ، اهتزت أعطافـــه . واستشعر فى فمه ، طعم الخوخ السكري المزز .

اقتربت العربة من الشيخ زويد .لاحت له بيوتها الواطئة ، علـــي يمـــين الطريـــق المسفلت متناثرة ، إلي ما قبل شاطئ البحر بقليل . تتصاعد الأبنية وتنخفض ، تبعا لربـــي الرمال المقامة عليها . لفت نظره غور قريب . تحسس الأعواد برفق . بداية تزهـــير .. أكيد .. ريح هينة من هواء البحر المالح ، مختلطة بهواء الصحراء الجـــاف ، داعبـــت وجهه وذراعيه ، فأحس بانتعاش ورغبة فى الإنطلاق .

واشتد به الشوق ، ليري ثمرات الخوخ .. ويتحسس بيديه ملمسها القطيفي .. لكـــم ود أن يمسك وجه صفية الخمري ، ذا الزغب الخفيف ، براحتيه ، ويقبلها قبلة طويلـــة ، يودعها حنانه ، ويستشعر ترياق فمها علي لسانه . أتراه يكون مسكرا مثل شراب الخوخ. وهل تعتريه مزة حين تشتعل رغبتها .

نهض الصحاب فجأة للذهاب إلي السينما . ولم يرغب حمدي فى الذهـــاب . انتبـــه فجأة أنه سيتحمل حساب المشروبات . وأعلنت صفية أنها لا تريـــد أن تتـــأخر . وجـــدا نفسيهما وحدهما ، وكان مكانهما منعزلا بين الأشجار . تبادلا النظرات وابتسما . كـــان خشية أن تصده ، في انتظار إشارة أو علامة . تكرر تبادل النظرات ، فقال وهـــو يكـــاد يغيب عما حوله :

– عيناك جميلتان .

اشتعلت وجنتاها ، وجاء صوتها ناعما ، منهيا :

– " يا سلام " .. !

كاد أن يفقد توازنه ، وحار فى ردها . بالتأكيد ، تعرف صدق مشاعره تجاهـــها . نهضت وقد ازداد احمرار وجهها ، فلم يملك سوي مجاراتها ، وهو يردد فـــي نفســـه : كشجرة الخوخ ، لا يستطيع الإنسان أن يستظل بها مثل شجرة التوت أو البرتقال .

عندما قدر أنها وصلت إلي بيتها ، فكر أن يتلفن لها ، لعلهما في الأسلاك يعبران عن نفسيهما أفضل .. عازه الحماس ، وتساءل .. وماذا عساي أقول لها . وكان ماحز في نفسه ، عجزه عن التصرف . لا يدري حقا كيف يسلك معها . نزع ملابسه ، ووضع نفسه تحت الدش ، وكلما فكر في وقف إسالة الماء والخروج ، انتظر لا يدري لماذا .. وتذكر عندما كانوا يجمعون الخوخ ، وينفضونه بقطعة من القماش لتخليصه من وبره اللاسع ، فيعلق بهم . ولا تجدي أي محاولة له لإزالته ، سوي خلع الملابس كلها ، ووضع جسده تحت الدش ، وكلما فكر في الخروج انتظر ، خشية ، أن يكون بعضه مازال عالقا برأسه ورقبته ، فلا يستطيع الجلوس مستقرا ، كمن وُضع في قفاه مسحوق العفريت .

لم يكد يستقر ، حتي حضرت مفتشة من الجهاز المركزي للمحاسبات . هل هي دسيسة ، لشغله عن تجاربه ، وإذلاله ، أم حضرت بظروفها .

رفع رأسه ، وهو لا يعرف ، ماذا يقول عن نفتر يجهل ماهيتها ، ولم يسدد خانتها ، وقال :

- أهلا .. وسهلا .

حين رآها ، لا يدري ما الذي حدث له ، وأية نشوة هزت كيانه . وجه صبوح ، مشرب بحمرة ، لا طويلة ولا قصيرة ، فخذاها من حز الفستان عليهما . عندما جلست ، أبانا عن سخانتهما . قدماها الأبيضان ، وأصابعهما الصغيرة ، الطالة من حذاء صيفي ، بأظافر دقيقة غير مطلية ، مست حواف شجونه .

صدرها راسخ، دون تزيد ، فلقته سمراء بلون الظل ، عيناها واسعتان ، دعجاوان.

أحس ، ولا يدري كيف ، كأنه يعرفها من زمن ، وأن شيئا ينبعث منها ، لا يدريه يشده لتأمل جسدها ، والتطلع إلي وجهها .

أرته بطاقتها الشخصية ، ليتأكد أنها عضوة بالجهاز . تطلع إلي البطاقة ، ولم يطالع شيئا . نحي يدها الممدودة بالبطاقة بهدوء . وهو يفعل ، ارتعشت يدها ، وفي لحظة خاطفة ، لمح انكسارا في عينيها ، اعترته الدهشة ، وأدرك أنها تعاني مثله ، ولم يكد يدرك ، ولم تكد تدرك أنه يدرك ، حتي استأذنت لدقيقة .

خرجت من الحجرة ، وظل فيانتظارها ، تعاوده الذكري .. والحنين .. وهي لا تظهر . وكم سأل نفسه .. كيف حدث هذا مع إنسانه لم أرها من قبل ، وكيف أحسست بهذه الرغبة الطاغية .. وأنها تريدني ، وأنها تخصني .. وليس هذا بالضبط .. إحساس بالحميمية .. وكيف تولدت نفس الأحاسيس عندها ، وإلا ما اختفت هكذا ، وبسرعة ، ولم تعد أبدا . لاشك أنها لو استمرت في عملها ، لن تستطيع الصمود ، ففضلت الهرب . لماذا هربتِ يا سيدتي ، وأنا الإنسان الوحيد المتمم لك . وأين أجدك ، وأنت المرأة الوحيدة ، التى عشقتها ، وأردتها ، وأحسست أنني سأذوب فيها ، وبها ، في لحظة كشف باهرة.مفاجئة ، لحظة كنت فيها أمتلك الحياة كلها .

أكيد ، ثقتك بنفسك ،جعلتك تقدمين بطاقتك الشخصية ، ليتني تيقنت من إسمك وعنوانك ، وحالتك الاجتماعية ، وهل كنت أعلم .. ؟!

لماذا ، الأنثي الوحيدة ، التى أردتها وأرادتني ، دون تفكير ، أو تلعثم في لحظة خاطفة ، لا أراها ثانية . لحظة خاطفة ، كانت تعني التحقق كله ، والحب كله ، والعشق كله ، والجنس ، برغبة نابعة من الأعماق ، رغبة المسام للمسام ، رغبة امتزاج الأنفاس بالأنفاس رغبة الانجذاب العفوي ، الصادق ، النقي . أين تكمن أنثاى الآن .. تري .. هل هذا سر إنجذابي لسمية . نظرتها قريبة من نظرتها .. لكن الأخري صريحة .. واضحة.. أما سمية فحيية بعض الشئ . نفس الحجم تقريبا ، واقتراب الملامح .. لحد ما.. هل سأعشق فيها تلك الحبيبة .. وكيف لي أن أحضن بصحيح ، وأُقبل بصحيح ، وأحب بصحيح .

صار بخطوات متمهلة ، وقد شمله شعور بالأسي ، لا يفلح معه أي عزاء . فجأة سمع طائرا يبح بصوت مشروخ . التفت إلي مصدر الصوت .. طائر قادم من ناحية الشاطئ .. استعاد بحة صوت "فناء الصافي" في الخمسينات ، تبث حنينها المفعم بالشجن، من إذاعة فلسطين بالقاهرة : طير الطاير من عنا (عندنا) من عند الأهل .. خبرني يا طاير .. وحياتك يا طاير .. كيف حال الزرع بموطنا .. كيف حال الأهل .

اقترب الطائر ، بان جسمه الأبيض في حجم بطة كبيرة وقد أحاط به جناحاه المفرودان كمروحة بيضاء ، شابها شريط أسود ، حاذاه حز أبيض رفيع في نهاية

الطرف ، رجلاه طويلتان رفيعتان، يميل اللون في أسفلهما إلي الأحمر البصلي . هبـــط بحذاء الماء ، أرسل بحته ثانية ، ولما لم يجبه أحد ، مد رقبته الطويلـــة ، خبـــط المـــاء بمنقاره ، وأخذ يعب الماء .

هل يطفئ الماء المالح غليلك.

سرعان ما قذف الماء .

يالي من غبي ، كان يصفي الطحالب الدقيقة في فمه ، لعله يسد جوعته .

سرعان ما رفرف بجناحيه ، وطار في اتجاه الجنوب . هل إلي بحيرة البردويل .. ليغتسل ، ويصيب شيئا من الراحة . أم إلي الملاحات بالقرب من بور فؤاد ، بعد رحلـــة للبحث عن غذاء ، لصغاره ، الذين تركهم في عش ، آمن من الجـــوارح ، وســـط ميـــاه ضحلة ، آسنة ، سبخة، لزجة ، مليئة بالبقع الملحية ، البيضـــاء ، والحمـــراء ، عـــاقت الدبابات الإسرائيلية عن التقدم لاحتلال بور فؤاد عام ٦٧ . غيبت سحابات بيضاء الطـــائر عن عينيه . تراءى له منظر الملاحات في البكور ، وطيور البشروش خارجـــة وســـط الضباب ، وقد علقت بأجنحة بعضها ذرات الملح الحمراء . كأنها طيور النار ، خرجـــت لتوها من الجحيم ، وعلقت بأجنحة بعض آخر ذرات الملح البيضاء ، كأنها بعثـــت مـــن عدم البحيرات الملحية ، حيث لا تجرؤ طيور أخري علي الاقتراب منـــها . هـــل لـــهذا احتفي بها أسلافنا ، وطالعناها في آثارهم . لماذا أوقفت وزارة التربية والتعليم رحـــلات طلبة الثانوية العامة إلي الأقصر وأسوان .

لمح الطائر يحوم في الأفق ، كأنما يروم اختراقه ، وبانت السماء زرقاء صافية .

(٣٩)

خرج أفراد الرحلة من الحصن ، وسألت تلميذه :

- هل الساتر الرملي رمل .. ؟!

ضحك الأولاد وصخبوا .

هدأهم صفوت بيديه ، راجيا ألا يسخروا من زميلتهم ، وقال :

- لا .. ليس رملا . قاعدة خرسانية ، فوقها قضبان سكة حديدية ، عليها عربات قطر ، ملأوها بالدبش والتراب ، وفوقها طبقة من الرمال أو الطفلة ، روعي أن تكون هشة ، حتي يصعب تسلقها . وارتفاع الساتر ، يزيد علي خمسة عشر مترا ، وعليه تجهيزات ، تسمح بصعود الدبابات ، والسد محاط بأسلاك شائكة مكهربة .

وسأل أحد التلاميذ :

- كم حصنا فى خط بارليف .. ؟

رد صفوت :

- خمسة وعشرون حصنا ، أو قلعة . كل حصن يتكون من ملجأين ، كل ملجأ عبارة عن عربة سكة حديدية ، مدفونة في الأرض ، وعليها أكوام من الرمال يصل ارتفاعها إلي خمسة وعشرين مترا ، وحول الحصن بُثت الألغام . وفي الداخل قاعة للسينما وأخرى للتليفزيون ، وبالحصن ثلاجة ، وحمامات مياه باردة وساخنة .

ذات ليلة فاجأهم قائد السرية ، وأخذ من كل فصيلة فردا ، وأمام باب أحد الملاجئ ، نزلوا عدة درجات . دفع القائد الباب وصاح :

- انزلوا .

إزاء الظلام والرهبة ، ترددوا . قال :

- خائفون .. !

تخطا الباب ، وسلط كشافا في أرجاء الملجأ . وقفوا مصعوقين . رقـــاب حزتـــها سكاكين ، أو سناكي بنادق . بطون مبقورة بطلقات الرصاص . خيوط دماء متجلطة علي الأجساد وعلي الأرض . عيون تحجرت علي نظرات فزعة .

تسلل القائد بإحدي يديه ، تحت رقبة أحدهم ، ورفع سلسلة ، بـــها قطعـــة معدنيـــة بيضاوية ، قربها من كشافه ، وقال :

- مصريون .

مشي بضعة خطوات ، وفتح بابا جانبيا ، وسلط كشافه . معلبات كثيرة ، لحـــوم ، مربات ، فول مدمس ، علب بسكوت .

- حملوا

ترددت خطواتهم .. يستوعبون ما حدث .. في أحيان قليلة ، بعد أن يسقط الحصـــن في أيدي قواتنا ، يسترده الإسرائيليون ثانية بعض الوقت .

- هيا .

أطاعوا ببطء ، فتعيينهم نفد تقريبا ، وأثناء الخروج تحاشوا النظر ، أو الملامســة . وفي السرية أمرهم القائد أن يوزعوا علي جميع الفصائل دون حســـاب ، ولن يســـتعدوا لجولة ثانية . شبع الجنود لأول مرة ، من مدة ، أما من ذهبوا مع القائد ، فكانت أنفســـهم مسدودة .

اقترب القائد ، من صفوت ، أقدمهم رتبة ، وقال :

- لا تكن أحمق .. ألا تود العودة لعيالك .

- لم أتزوج .

- لخطيبتك .

- لم أخطب .

- لأهلك .

دمعت عيناه .

- كل.. حتي يأكل زملاؤك .

تطلع صفوت إلي الأولاد والبنات ، لا يكفون عن الأسئلة ، وخشى أن يتأخر عن موعده مع حمدية ، وإن شابه الفتور . ماذا عساه يقول لها . وجد وظيفة معاون في روضة أطفال . وعندما ألمحوا أنه لابد أن ينتظر بعد إنصراف العاملين ، لأن بعض الآباء يتأخرون عن موعد أطفالهم ، أدرك أنه فى الحقيقة مساعد فراش . يكاد يسمع صوت حمدية : اقبل حتى يأتى الأحسن . بعض الأولاد خرجوا من إحدي ممرات الحصن ،وبأيديهم أحذية قديمة، وبعض الملابس المتهرئة ، والتساؤل في عيونهم . تفحص صفوت ما يحملون ، طمس الزمن والإهمال معالمها ، ولم يستطع أن يقطع هل هي لنا أم للإسرائيليين .

وكل ما رآه المنتصرون فى معسكر " أوشفيتز " النازي ، أحذية ونظارات وملابس مهملة ، ممكن أن تكون لأي ناس . لكن أمريكا المنتصرة فى الحرب العالمية الثانية . أجبرت ألمانيا المهزومة ، علي دفع تعويضات لإسرائيل ، بزعم أن هذه الأشياء تخص يهودا ، تم إعدامهم فى غرف الغاز ، وقد اعترفت حكومة بولندا فيما بعد ، أن هذه الغرف التي يشاهدها السياح ، بنيت عام ٤٨ بعد انتهاء الحرب بعدة سنوات . كما دفعت ألمانيا تعويضات لإسرائيل ، عن أعمال السخرة التى فرضها النازيون علي يهود أوربا ، مع أنهم ليسوا مواطنين إسرائيليين ، وكيف يكونون وإسرائيل لم يكن لها وجود وقتها.

واستطاعت إسرائيل بهذه الأموال ، البناء فى فلسطين .. مدت خطوط السكك الحديدية ، وسفلتت الشوارع ، وأنشأت المدن والمطارات والموانئ ، وأكملت ما بدأه الفلاحون المصريون فى الحرب العالمية الأولي .

كان البريطانيون،الذين يحتلون مصر،يهجمون ليلا علي القري ، ويأخذون الفلاحين، وفي النهار يخطفونهم من الأسواق والشوارع ويقيدون كل خمسين فلاحا من أقدامهم في حبل طويل ، يسيرون فى طابور إذا وقف أحد تعطلوا جميعا ، وإذا سقط أحد سقط الباقون . ويقتادون إلي مراكز الشرطة ، حيث ينتظرهم ضابط بريطاني ، يشحنهم فى القطار إلي سيناء وفلسطين ، لرصف الطرق ومد خطوط السكك الحديدية وأعمال

الحفر ، ونقل ذخائر ومعدات الجيش البريطاني بالجمال . وكان البريطانيون يجبرون الفلاحين الأميين والعمال علي ختم طلب بالتطوع ، ومن يرفض ، يضرب ويجلد حتي يفعل . وفي بعض المراكز كان يقيم صانع أختام علي الباب ، ليصنع ختما لمن لا ختم له. ومات الآلاف من أصل مليون وسبعين ألف رجل ، تم تسخيرهم للعمل في سيناء وفلسطين ، والعراق وخلف خطوط القتال في الجبهة الغربية في فرنسا وفي جزيرة " موردروس " بالبحر المتوسط ، برصاص وقنابل الألمان والأتراك ، ومن الجوع والمرض، حيث كانوا يتركون عرايا ، دون ملابس أو خيام ، فقط ما يستر عوراتهم ولم يتقاض الفرد في أغلب الأحيان أي أجر ، وإذا أعطوه ، لم يزد عن سبعة قروش في اليوم في أحسن الأحوال .

كانوا مستجدين ، وعُينوا حرسا علي البوابة ، وقال القدامي :

– أي عربة تمر من البوابة ، بها رتب عالية ،لابد أن تعظموا

مرت عربة ، ضربوا سلام سلاح ، دون أن يجرؤ أحدهم علي النظر ، والتحقق ممن بداخلها . وعلي مقربة ، كان القدامي يمسكون بطونهم ، وهم يلتوون من كثرة الضحك . وصاح أحدهم :

– عربة زبالة يا بهائم .

سأل أحد التلاميذ ، عن مواسير النابالم .

ضحك صفوت ، وقال :

– مواسير النابلم .

اقترح أحدهم ، أن تعبر وحدة صاعقة ، وتقطع المواسير الموصلة إلي القناة ، من خزانات النابالم علي الضفة الشرقية ، حتي لا تشتعل فور وقوع الحرب ، وتحيل سطح القناة إلي جحيم . ولكن هذه العملية ، قد تكشف ، ويمكنهم إصلاحها بسهولة .

اتفق علي سد فوهات المواسير في الماء ، بالأسمنت . لكن الأسمنت سريع الشك لم يكن متوفرا في مصر ، فاستوردوا كمية بسرعة من أوربا . وبقي مشكل .. الأسمنت في حاجة إلي شبكة حديدية ، حتي يتماسك . لو تصرفوا مثلما يفعل البناؤون في

الخرسانة المسلحة فى إقامة البيوت ، سيستغرق ذلك وقتا ، وهم يريدون العمل والانتهاء عشية الحرب ، دون أن يشعر بهم أحد .

وجاءت الفكرة من أحد الجنود . البقالون فى الريف يعلقون علي حيطان محالهم سلالا منسوجة من أسلاك معدنية ، يحفظون فيها البيض ، المعروض للبيع . وهذه السلال فى حجم فوهات مواسير النابالم .

اقترب وقت العصر . لا يصح تركها تنتظر . عزمه القائمون علي الرحلة ، ليستريح معهم فى إحدى المقاهي ، وشرب شئ مرطب . تعلل بموعد له فى المنصورة ، فأخبروه أنهم يستطيعون توصيله فى طريقهم إلي دمياط . استأذن ليغير ملابسه . وفي البيت تناول لقمة كيفما اتفق ، وتناول بنطلونا وقميصا مكويين . استعرض ثنية البنطلون ، وكان يفضلها حادة كالسيف . لحظته صفية فقالت :

- إلي أين العزم

رد مداعبا :

- عندي فرح

- من إن شاء الله

إمعانا فى المداعبة :

- حمدي .

سهمت برهة ، وقالت :

- يا دمك .

تطلع إلي ساعته . لا وقت ليحلق ذقنه ، وقد تفوته عربة الرحلة ، ويتأخر أكثر ، فتغضب حمدية ، وتفقد روحها المرحة .

كانا يسيران غداة الحرب فى حي الأربعين بالسويس . وأنقاض البيوت في كل مكان .

قالت حمدية :

- الفقراء دائما قارفنا ، يضرب زلزال بيوتهم فتقع ، تقوم حرب ، بيوتهم تقع ، لماذا لا يسكنون عمارات حديثة .

تصعب وقال :

– ليس لهم حق

طالعتهم بعض العمارات ، وقد أحدثت الطلقات ، والدانات ، بعض الثقوب في الحيطان، أو الشرفات ، لكنها متماسكة ، بخرسانتها المسلحة . وتساءل صفوت : هل طمع الإسرائيليون في الاستيلاء علي الإسماعيلية ، أو السويس ، لإحداث فرقعة إعلامية، تطغي ، علي ما أحدثه تحطيم مصر لخط بارليف واستيلاؤها عليه ، من أثر في العالم .

وعندما لم يتحقق لهم ذلك ، وانكشف نشرهم صور الأسري المصريين عام ٦٧ في صحف أوربا وأمريكا ، علي أنها صور من حرب ٧٣ ، أشاعوا أنهم حاصروا الجيش الثالث في سيناء . وتذكر ما رواه له صديق من الصاعقة ، كان ضمن قوات الجيش الثالث غرب القناة . بينما كانت الطائرات الإسرائيلية نشطة علي طريق مصر السويس لقطع الإمدادات ، عن بعض قوات الجيش الثالث في سيناء وعن مدينة السويس ، جمعهم قائدهم وطلب نقل كميات من الأدوية والمحاليل الطبية للنقط المتقدمة في سيناء . تسابقوا للمهمة ، فأجري القرعة ، وكانت من نصيب صديقه . وتألقت عيناه بالبريق وهو يخبره، أنها أعظم رحلة في حياته . شعر بقمة المتعة ، حيث اعتلت سيارته المعبر فوق القناة . قصف الطائرات لا ينقطع ، ودوي المدافع حوله ، والماء تحته ، والسماء فوقه . وسيارته ، تكاد تطير ..

وسحبت إسرائيل قواتها من الغرب ، بعد وقف إطلاق النار ، دون أن تطلب مصر، ودون أن تنص علي ذلك ، اتفاقية الفصل بين القوات المصرية والإسرائيلية ، ففيم كان عبورهم إلي غرب القناة .. ؟! .

خطا صفوت ليعبر الشارع . وهو يلحظ بعينيه ثنيتي البنطلون ، يتأكد من استقامتهما . مرت أمامه عربة مسرعة ، أحدثت عجلاتها طرطشة من ماء في مطب .

وقف متضايقا .. رغم علمه ، أن هذه الطرطشة ، لن تلبث أن تجف ، وأن أي حبات من الطين قد تعلق ببنطلونه ، يمكن فركها ، بعد قليل بسهولة .

حين تلقي صفوت مكالمة حمدية التليفونية ، للقاء حمدي ، أشـــفق علـــي نفســه ، لا يريد أن يسمع سخافاته .

ايشي ايشي ضرب البلد ومشي .

رد عليه ، كما النكتة ، بهتاف أعضاء اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي (التنظيم السياسي الوحيد وقتها) :

– ناصر .. ناصر .

أجابه بلهجة السادات الممطوطة :

– الله يرحمه .

وضحك متهما إياه أن به عرقا ناصريا ، فرد عليه وأنت بك عرق سـاداتي ، وأراد إغاظته :

رفع السادات رأسه من النعش ، وسأل وزير الداخلية :

– كم عدد الحضور في الجنازة .

– ٩٩,٩٠٨٥٠ (إشارة إلي نسبة الأصوات ، التي يعلنها وزير الداخلية ، في كــل مرة ، علي استفتاء رئاسة الجمهورية أن الرئيس حصل عليها) .

– ادفن .

دخلوا نقطة في خط بارليف ، وجدوا بعض القتلي ، بينهم صبي صغير ، حـــاروا في أمره.قال أحدهم لعله طالب في مدرسة ، وكان في رحلة لمشاهدة خط بارليف .

– وهل يأتي وحده .

– ادفن

لم يرد أبدا للأمور أن تصل بينهما إلي هذا الحد ، لكنها دائما تفلــت منــه . هــل يذهب للقائه والسلام .

أخبرته حمدية أن زميلا قديما له في الزقازيق ، عنده ورشة للحام بالأكسوجين ، ونظرا لكبر سنه يريد من يطمئن إليه ، ويحل محله .

علي قدر ما انبسط ، علي قدر ما امتعض . لم يكن يريدها أن تأتي من جهته . الرجل أتعب نفسه ، وحادث شقيقته ، ودبر لك موعدا ، فلماذا لا تكسبه في صفك .

علموا أن الإسرائيليين ، يبنون مطارا وقاعدة عسكرية بالقرب من شرم الشيخ . لابد من الاستطلاع . أقلعت طائرتان والشمس في عيون الإسرائيليين ، بين العصر والمغرب ، وحين عادتا ، كانت الشمس قد تحركت وأصبحت في عيونهم أيضا .

لم يستقر علي قرار ، فنهض وشغل التليفزيون . كانت الراقصة المصرية نعيمة عاكف ترقص في مهرجان لرقصات الشعوب في موسكو ، وفي خلفيتها جدارية فرعونية، حيث رقصة تتمايل علي إيقاع من يصفقون علي الواحدة ، ولفت انتباهه رشاقة نعيمة، التي لم يلحظها من قبل في أفلامها .. وكأنها ترقص علي إيقاع المصفقين.

كانوا يشاهدون فيلما عربيا ، ودخل حمدي ، حين كانت راقصة تتهادي كمهرة تتعاجب بنفسها . جلس دون كلمة ، وعيناه لا ترمشان . وعندما أدرك أن صفوت لحظه، هرب بعينيه وتوه في الكلام . عجب صفوت من التوافق بين الراقصتين .. هل هي براعة من المصور . أم من المخرج .. أم هي رهافة نعيمة عاكف .

كان لابد أن يتم الكوبري في نفس الوقت ، الذي يتم فيه إنشاء فتحة في السد الترابي في الغرب الذي يستر قواتنا . لو تمت الفتحة قبل الكوبري ، قد يعبر منها الإسرائيليون ، لو الكوبري تم قبل الفتحة ، قد يقصفه الإسرائيليون ، ومن الممكن أن يعبروا فوقه .

إذا لم يذهب للقائه ، سيفتح علي نفسه فتحة ، لن يستطيع سدها بأي عذر ، ولن يسلم من لسان حمدية .

وكان لابد ألا يعرف العدو أين الفتحات الرئيسية ، وإلا عرف أين ستضع الكباري. عملوا مئتي فتحة تقريبا ، وسدوها بشكائر من الرمال . وحضر أهالي بلبيس للمساعدة . وكانوا يحضرون الكباري من القاهرة إلي الجبهة ، ثم يعودون بها ثانية ، وهكذا دواليك ليموهوا علي عدو معه مخابرات الدول الغربية ، بأقمارها الصناعية واستطلاعها

الألكتروني . فقد سبق للصهاينة خدمتهم . خدموا المخابرات الألمانية في الحرب العالمية الأولي ، وعندما لاحت الهزيمة ، نقلوا أسرارهم إلي بريطانيا ، وحصلوا علي وعد من الوزير بلفور بتمكينهم من فلسطين . وحين استقلت مصر والعراق ، وبدأ نفوذ بريطانيا يضعف في المنطقة ، نقلوا ولاءهم إلي أمريكا ، التي كانت شركاتها تنقب عن النفط في الأراضي العربية .

قال حمدي :

– تسرع العرب في ضخ النفط ، وإسرائيل ما زالت جاسمة في المرتفعات السورية (الجولان) والضفة الغربية ولم تعد بشئ ، بينما كان الناس في أوربا وأمريكا واليابان يرتعشون من احتمال استمرار وقف الضخ والشتاء علي الأبواب .. وكثير من مصانعهم مهدد بالتوقف .

قال عبد السلام فاروق ، وكان حاضرا :

– فعلها كسينجر ، وضحك علي العرب ..

ضحك حمدي وقال :

– الأغرب أن الأمريكيين صرحوا أنهم في طريقهم لإيجاد بدائل للنفط . واسترسل في الضحك بتؤدة .. وقال :

– هل سيستخرجون من الطاقة الشمسية ، أو من طواحين الهواء أليافا لمصانع النسيج ، وعشرات المواد الكيماوية ، و مواداً لصناعة المنظفات،والقار ، و وقوداً لتطير الطائرات ، ولتسير العربات .

غمز عبد السلام فاروق بإحدي عينيه وقال :

– وماذا عن السادات .. ألم يتسرع ..

نظرا إليه مستطلعين ، فاستمر :

– تعجل في فك حصار باب المندب ..

استرد حمدي نفسه ، وقال :

– آه .. عندك حق .. كان البحر الأحمر قد أصبح بحيرة عربية .. ومراكب إسرائيل ، محملة بالبضائع في المحيط . عاجزة عن الوصول إلي إيلات .

عقب عبد السلام فاروق ، ضاحكا :

- قصدك قرية أم الرشرش ..

تطلعت العيون فى تساؤل ، فاستمر :

- حتي بعد حرب ٤٨ .

حار صفوت فى أمر حمدي .. ساعة ساداتي .. وساعة لا يعرف له ملة . كانوا يجلسون ساعتها فى نادي الضباط بالإسماعيلية . فجأة هل عليهم شاب فى منتصف العمر. رحب به عبد السلام فاروق مبالغا ، وهو يقول :

- أقدم لكما كليم السادات .. !

وبينما يتقدم نحوهم ، فوق النجيلة ، حذره عبد السلام من الجنايني ، لكن هذا لم يعبأ ، وأولاه ظهره ، فاندفع الماء من البشبوري ، الذي كان يعد له ، فوجد نفسه فجأة ، غارقا بالماء ، وعلا صخبهم ضاحكين .

أخبر صفوت زميله فى الصاعقة ، أنهم فوجئوا بثلاثة جنود يعبرون معهم . كل منهم فوق " طوف " أسفله مضخة ، ومثبت بها ماسورة فى نهايتها بشبوري . وفي الضفة الشرقية ، سددوا خراطيم من المياه القوية ، أسفل السد الرملي فانهار كالحلاوة الطحينية ، كان أحد الضباط مهندسا فى السد العالي ، وتخلفت عن العمل أكوام من الرمال والحجارة ، فوجد أن أسهل وأسرع وسيلة لإزاحتها من الموقع ، استخدام الماء .

ولم تكد الفتحة تتم ، حتي توالت موجات من الجنود . ورغم رصاص مدافع مزاغل الحصون المنهمر كالمطر ، وقذائف الدبابات ، وقنابل الطائرات ، استمر التدفق .

وقطب الزميل جبينه واكتسبت عيناه حدة : كان لازم لرد شرفنا بعد ما حدث في ٦٧ أن يعطيني العسكري الإسرائيلي ظهره ..

- أنت موعود .

قالها عبد السلام وهو يفسح لصديقه مكانا ، ويهون عليه ، أن الهواء لن يلبث أن يجفف ملابسه ، واستطرد :

- رائد ناجي خضر ..

عقب حمدي :

- وكليم السادات ..

عاودوا الضحك وألمح أحدهم إلي تصريح بيريز زعيم حزب العمل الإسرائيلي الذي سخر فيه من النبي موسي ، كليم الله ، مما أعطي فرصة للمعارضة الإسرائيلية لمهاجمته .

قال عبد السلام فاروق :

- ألسنا أولي بالدفاع عن النبي موسي .. علي الأقل مصري ، وُلد وتربي هنا .

سأل ناجي خضر :

- وماذا يبقي لليهود .. ؟!

قال حمدي :

- وهل تظن أن يهود إسرائيل ، أحفاد يهود النبي موسي .. هؤلاء أولاد ناس من إمارة الخزر الروسية ، اعتنق أميرهم اليهودية فى القرن الماضي وتبعته رعيته .

قال عبد السلام مؤكدا :

- جاءكم كلامي .. نحن أولي بالدفاع عن موسي .

قال حمدي :

- علي أية حال .. دعنا من هذا الآن .. خلنا فى كليم السادات .

قال ناجي خضر :

- كنت أقود فصيلة مشاة فى الغرب ، بالقرب فى منطقة البحيرات ، وإذا بالتليفون يرن ، والمتحدث الرئيس السادات . طبعا ارتبكت ، وأخبرته عن وضع المتسللين فى الثغرة ، كيفما تبادر إلي ذهني وقتها . أعطاني تعليمات بكيفية مقاومتهم ، نفذتها علي الفور ، واتصلت لأبلغ قائد المنطقة ، فوجدت الأمر صدر بنقله . وآخر من القاهرة علي وصول . قلت في نفسي .. حتي يعرف القائد الجديد وضع القوات علي الطبيعة يلزمه يومان علي الأقل ، تكون قد حدثت فيهما أمور ، خاصة والوضع يتطور من دقيقة إلي أخري . وتصرف كل منا علي عهدته ..وحين حضر القائد الجديد ، كانت الأوضاع قد تغيرت ولم يستوعب الموقف ، فنقلوه ، وأصبحنا فى انتظار آخر ، ونحن نعجب ، لماذا لا يعينون قائدا من هيئة العمليات عندنا ، علي الأقل أصابعه فى الصورة .

أحس صفوت بصداع شديد ، وأن رأسه ستنفجر ، فانتبه إلي أن التليفزيون شغال ، فقام وأغلقه . اقترب موعده مع حمدي ، ولم يزل مترددا ..

لماذا يساعده الآن .. هل أدرك أن شقيقته متعلقة به ، ومن الصعب إبعادها عنه ، أم أنه لا يربط بين مساعدته ، ورغبته في الارتباط بحمدية .. هل هذا ممكن .. ربما بالنسبة لغريب .. أم هو .. لا يعتقد .. أم تراه يود مساعدة صديقه الزقازيقي .

ارتدي ملابسه في تكاسل .. وغادر بيته في العرايشية ، يسير علي مهل .. ليصل في موعد تحرك الباص إلي الزقازيق بالضبط ، حتي لا يضطر إلي الحديث معه .. دائما رده حاضر .. عندما أبدي له مرة ، ملاحظة ، علي استحياء بهذا الشأن ، هز كتفيه وقال :

– أبدا .. كثير من هذه المعلومات موجودة في الجرائد اليومية .

ابتاع جريدة ، يشغل نفسه بها في الباص ، فلا يضطر إلي الالتفات إليه . تعدي المحطة حيث الموعد ، وسار حتي عمارة ذات بواك ، أسفلها مقهي ، ليشرب فنجانا من القهوة ، وطالعته علي الحيطان ، صور لرضا لاعب النادي الإسماعيلي الشهير ، وضحك من عبارة تحت إحدي الصور : شهيد الكرة المصرية .

سأل عبد السلام فاروق ذات مرة :

– حقا .. لماذا هذه الشعبية ..

ولم يكن الرد جاهزا هذه المرة ، ذوي حمدي مابين حاجبيه ، وقال بتؤدة :

– يبدو لي .. والله أعلم .. لأن أغلب لاعبيها تربوا في الحارات الشعبية .. حيث اللعب والشقاوة والترقيص بالكرة .. وحيث تصقل مهارات الموهوب منهم .. وفجأة يجد اللاعب نفسه في التليفزيون وصوره في الجرائد .. ويخطب وده أصحاب الحظوة والمال.. وعندما يوجد أحد الفقراء في الضوء .. فكأنه يرد الاعتبار لأهله من الفقراء ، فكيف لا تتحمس له الأحياء الشعبية .

ابتسم عبد السلام فاروق ، وقال :

– تحليل ماركسي ، لا يخر الماء .. !

ضحك حمدي وقال :

– أنتم تظلمون الماركسية .. ليست أكثر من منهج فى التفكير ، أو طريقة فى النظر إلي الأمور .

بغتة ، بتنمر ، قال عبد السلام فاروق :

– وأين كان هذا المنهج يوم إعفاء الخبراء الروس .. ؟!

انتبه حمدي كمن فوجئ .. تريث وهو يشمله بعينيه ، وقال :

– نعم .. كانت الإشارة واضحة .. لكننا لمن نفهمها .. ففي الوقت الذي كان السادات يريدها معركة مصرية مئة فى المئة .. اعتقدنا أنه بإخراجه الخبراء الروس من مصر ، يتخلى عن المعركة .

اعتدل عبد السلام فى جلسته ، ووشي ألق عينيه ، أنه انتزع منه شيئا ، بينما استطرد حمدي :

– لم نكن وحدنا ..

عاجله عبد السلام :

– لا تتمحك فى الناس .

ضحك حمدي وقال :

– هل نسيت النكتة الشهيرة .. ركب السادات الباص وسأل عن اتجاهه ، وحين أخبروه : التحرير ، قفز مسرعا وهو يقول أنه ذاهب إلي العتبة .

أكمل عبد السلام :

– ميدان العتبة .. ولم يقل العتبة البيضاء ، (عتبة البيت الأبيض فى واشطن) كما أشعتم .

– وهل خاب حد سنا .. ؟! ..

صمت عبد السلام ، فاستطرد حمدي :

– فعل هذا وكيسنجر يلهث بين السعودية والأردن .. خوفا من فتح الجبهة الأردنية، التى كانت تعني نهاية إسرائيل .. وكانت القوات السعودية قد دخلت الأردن بالفعل والقوات العراقية فى طريقها من الأردن للحدود السورية ..

وعلي فكرة نحن لم نعترض علي خروج الخبراء ، ولكن علي طريقة إخراجهم ، التي بدت مهينة ، دون كلمة شكر .

وتذكر صفوت ما حدث في الجبهة في أواخر حرب الاستنزاف ، حين زحف حائط الصواريخ .. ففي نهاية اليوم الثامن من الزحف ، دخلت طائرات " الشبح " الإسرائيلية المعركة ، وأجهزة التشويش ، وفقدت قوات الدفاع الجوي ربع رجالها تقريبا .. أسرعت القوات الروسية من مشارف القاهرة وسدت بعض الثغرات ، حتي رجعت المبادرة إلي أيدي قواتنا .

وسأل ناجي خضر :

- وهل فهمت أمريكا بجلاله قدرها .. ؟!

ضحك حمدي بطريقة صاخبة ، وهو يخبط المنضدة بيديه ، وهم يطلبون منه أن يهدئ اللعب . قال من بين همهماته :

- بدل أن يتفهموا مغزي إنهاء مهمة الخبراء الروس ، طلع علينا كيسنجر ، وكان وقتها مستشارا للأمن القومي ، بالإضافة إلي وزارة الخارجية ، مصرحاً :

لو كان السادات طلب ثمنا لإخراجهم لأعطيناه . وبدا سعيدا ، معتبرا أمريكا كسبت نقطة مجانا في سباق النفوذ في منطقة الشرق الأوسط .. ولبس السادات مسوح الأخلاقيين ، ورد أنه تصرف من وحي مبادئه ، دون النظر إلي ثمن أو خلافه .

شرب صفوت قهوته ، ونهض في طريقه إلي محطة الباص .. لاح في ذهنه ما ردده عبد السلام فاروق ، يوما نقلا عن اللواء جورج ، أنه لولا قاعدة برتغالية في جزر الأزور ، في آخر لحظة ، سمحت لطائرات أمريكا ، بالتزود بالوقود ، ما أمكن نجدة إسرائيل ، حيث كانت الطائرات تهبط مباشرة في مطار العريش ، علي بعد قليل من الجبهة ، لتزودهم بالدبابات والعتاد الحربي . وتعليق حمدي ، مرة ، أنه يعتبر كسبنا لمعركة ٧٣ ، تجربة (بروفة) لكسب الحرب وعودة فلسطين عربية . قالها بثقة أغاظت صفوت ، وتساءل :

- من أين له هذا اليقين .. ؟!

(٤١)

حار سعد ، كيف يسلك .. ؟!

خال ندا يود عقد القران في العريش ، وندا تود أن يتم ذلك في قريتها بلوظة ، إكراما لأهلها ، ولأمها ، التي لن تستطيع الحضور ، لو عقدوا في العريش . أسر بالموضوع إلي الباشمهندس حمدي ، واقترح أن يعقد في العريش ، ويزف في بلوظة :

ضحك حمدي ، وقال :

- فرعون حضرتك .. تزف عبر سيناء .. !

- حاولت إقناع الخال ، للإنتقال إلي بلوظة فرفض .

قال حمدي :

- الخال معذور .

أصبح تقليدا ، عقد القرآن ، في مسجد العبلسي بسوق الخميس منذ الاحتلال الإسرائيلي . فحين تصدع الجامع ، أعاد الأهالي بناءه ، ضد رغبة الإسرائيليين الذين كانوا يخشون من تجمع الناس فيه ، وجعلوا .. كل زيجاتهم تتم فيه .

وكان الأهالي يسارعون ، بتزويج من يبلغ مبلغ الشباب ، خشية تعرضهم للغواية ، فقد انتشرت أفلام الجنس ، وانتشر الفيديو ، ووصل إرسال التليفزيون الإسرائيلي إلي العريش ، وكان يبث فيلما جنسيا ليلة الجمعة من كل أسبوع . أما البنات ، فقد فرض عليهن الأهل الملابس السوداء التي تغطي البنت من أسلفها إلي رأسها ، حتى لا تتعرض لأي معاكسة من جنود الاحتلال .

سأل سعد :

- ماذا أفعل لأرضي الطرفين .. ؟

تفكر حمدي برهة ، وقال :

– وماذا عن ندا .. ؟

– اقترحت أن نقيم حفلا للعرس في القرية ، ونوزع " الشربات " ، ولا تتم الدخلة، وفي اليوم التالي ، نحضر إلي العريش ، ونعقد القران في المسجد العباسي ، ومن استطاع من أهلها فليحضر .

– خير ما اقترحت ..

ظل سعد علي تقطيبة وجهه . قال حمدي :

– ماذا أيضا ..

تردد سعد ، وهذا يستوضحه ، حتي انطلق البخار المحبوس ، فدفع الغطاء ، وانهالت الكلمات :

– لا أريدها أن تعمل .. !

نظر إليه حمدي دهشا ، فاستمر :

– ألم تر كيف نظر لها مفتش الزراعة .. ؟!

– هل أكلها .. ؟

خفت درجة حرارة البخار ، وقل اندفاعه :

– أنت يا باشمهندس ..

– هذه تعمل .. ومعرضة للحديث مع هذا ونظرات ذاك .

– ألم تلحظ نظراته ... ؟

أخذ حمدي كفه اليسري في يمناه ، وقال :

– لنفرض أنها لا تعمل .. ألا تسير في الشارع .. كيف ستمنع نظرات الناس عنها.. أطرق سعد ، ولم يشأ أن يخبره بما دار بينهما ، حين طلب منها ترك العمل بعد الزواج ، فنظرت إليه من فوق لتحت وقالت وهي تشهق :

– أعود للرعي .. ؟!

في معرض حديث قالت : كنت أحس بالسأم . أنظر إلي الفضاء حولي ، أتنشق علي قطرة ماء ، أو قطعة أرض بها عشب . ساعات طوال أفقد فيها روحي ، ولا أحس بنفسي ، إلا بعد عودتي ، والحديث مع أمي وأخي .

قال متحليا بالصبر :

– يا بنت الحلال .. إذا لم أكفك مؤنتك لك الكلام .

– ليست الحكاية ، مؤنا ..

غرزت الجرافة . فرش حصيراً لا يقل طوله عن اثني عشر مترا . سارت الجرافة، واختلط عرقه بالرمل . مهدوا الطرق من مواقع الكتائب ، إلى شاطئ القناة ، من عشرين إلي أربعة وعشرين كيلو مترا تقريبا . ولم يشعر بالراحة إلا بعد انتهاء هذه المحاور ، وعندما رأى الدبابات والعربات تسير عليها ، زال تعبه .

فجأة جاءه أمر :

– خذ عربة واحضر التعيين .

ربت بيديه علي حديد " الجرافة " ، وأحس بظهره ينقصف .

وثب قلبه وهو يمشي بها فوق المعبر ، ولم يكن الجنود مصدقين ، أنه يستطيع العبور إلي سيناء ، استعدل بالعجلتين الأماميتين ، وجعلهما في الوسط ، وجعل العجلات الأربعة في الخلف ، تحف بالكاد ، بجانبي المعبر ، ورفع سكين تسوية الأرض بميل خاص ، خشية أن تصطدم بالمعبر ، فيسبب مشكلا لمن يعبر بعده .

ذهب إلي منطقة وعرة مطلوب تسويتها ، أنزل المحراث في الأمام ، بأسنانه الخمسة، وشرع في العمل .

سأل حمدي ، إذا كان أحضر قش الأرز عندما كان في المنصورة ، فأومأ بالإيجاب ، عندئذ طلب من ندا وبعض العاملات ، أن يضعنه حول الشجيرات .

ابتسم سعد .. كان حمدي متوجسا بالأمس من ريح محملة بسف الرمل ، وتساءل في استنكار ، إذا كانت رياح الخماسين أتت قبل الأوان ، مشفقا أن تقتلع الشجيرات التي زرعت مؤخراً .

وإزاء باله المشغول ، لم يستطع أن يذكره بوعده بمكافأة إذا أحضر المطلوب .

خف قصف السويس ، وبالقرب من الكيلو ١٠١ وجد زميلين قد يمين . ما أن رأياه حتي انفجرا ضاحكين ، وهما يشيران إلي قدميه .

خمن ما يدور في ذهنهما . من سائق دبابة في انتظار استعاضتها ، عندما عطبت ، إلي سائق جرافة ، عند الحاجة ، إلي سائق عربة جيب ، لتلبية أي طلب ، إلي سائر علي قدميه . أشار إليهما ، ليستأنفا المسير معه إلي سيناء . طلبا منه أن يجلس معهما قليلا ، حتي يصطادوا عربة .

قال سعد فجأة :

– لماذا لم تركبا الباص

رد أحدهما :

– فأل الله ولا فألك..

كان الإسرائيليون قد اصطادوا باصاً ، أجلسوا فيه نفرين معهما بطاقتا هوية مصرية ، أفلتا من الشرطة العسكرية ، وأذاعا في مكبر للصوت بالعربية في مدخل مدينة السويس .

– الجنود الذين يودون المغادرة ، عليهم اللحاق بالباص .

ركب بعض الجنود ، أخذوهم أسري .

استراحوا قليلا .. وإذا بطائرات تناور .. تعلو وتنخفض .. وقذائف تنطلق .. والطائرات تتفاداها .. لبست قذيفة في طائرة ، وتصاعد دخان ، وقفز اثنان بالمظلة . جروا ليشاهدوا الطيارين .. ولأن الرؤية واضحة .. ظنوهما في مكان قريب .. جروا مدة طويلة .. وكلما ظنوا أنهم وصلوا .. عاودوا الجري .. كانوا يرنون مشاهدة عملية الأسر .. وفكرة تدور في أذهانهم .. ربما لم يصل أحد قبلهم فيقومون بالأسر ، ويحوزون شهرة ، وربما مكافأة .

فوجئوا بجنود كثيرين ، من وحدات مختلفة . لمست المظلتان الأرض . نظر سعد لزميليه وضحكوا . مظلتان مصريتان . أصيب الطياران ببعض رضوض وجروح . وسرعان ما اقتحمت سرية طبية المكان ، وحملت المصابين . وحتي لا يخرجوا من

المولد بلا حمص ، أخذ كل منهم قطعة من حرير المظلة كتذكار ، ولكم أدهشت سعد نعومتها الفائقة .

تطلع سعد إلي ندا المنهمكة في العمل ، يود انتهاز فرصة ، ليومئ لها ، ويخبرها أنه سيمر عليها عند خالها ، بعد انتهاء العمل . لكنها لا تنظر ناحيته .. طبعا شايلة منه .. وظلت علي عنادها حتي غادرها بالأمس .. كان تضع حزاما حول وسطها .. حاول مداعبتها ، حتي يصرف عنها . مد يده ليجعلها تخلع الحزام ، وكأنه يمد يده في حقل ألغام ، وكان الخل علي وصول .

كانت غبشة آخر الليل في سيناء ، وسرية تزرع حقل ألغام ، وسعد يقف علي مقربة من عربته ، التي أقلتهم . شعاع خافت لاح كومضة خاطفة . تسمروا في أماكنهم ، والتساؤل في عيونهم : هل أشعة تحت الحمراء . ارتجفت أجسادهم . لو حدد الإسرائيليون مكانهم . طلقة واحدة تفجر الموقع كله .

لم يشأ الإلحاح أكثر من ذلك . وهنه لدهشته خلعت الحزام ، كان أحمر عريضا . وبانت سرة الصدر حمراء بخطوط مستطيلة من زهرة الفل صفراء وسماوية . اقترب منها . تعبيرات وجهها جامدة . نهض متعثراً في خطواته ، كأن بنطلونه انزلق عنه .

بدا الأسير مذعوراً ، مهلهل الثياب ، وقد انحسر بنطلونه عن وسطه ، يمسكه بإحدي يديه ، حنقيا ، نقنه نابتة .

ظل صامتا ، رافضا الإجابة عن أي سؤال . لم يسفر التفتيش الظاهري ، عن شئ يدل علي حقيقته . لكن سحنته ونظراته ، جعلت قائدهم يشك أنه ضابط ، وربما ضابط غير عادي . أمر بتفتيش ملابسه الداخلية . عثروا معه علي خريطة ، عليها علامات وأسهم ، وكلمات بالعبرية . حين انتزعوها منه ، تخلي عن هدوئه ، وقاوم معرضا نفسه للقتل ، وخطفها وكاد يأكلها ، لولا تكاتفهم عليه ، وانتزاعها منه .

أمر القائد سعداً بتجهيز عربة ، لمهمة عاجلة ، وعين اثنين لحراسة خاصة لهذا الأسير ، وأمر بإطلاق الرصاص فوراً لو حاول الهرب . وكان بالوحدة أسيران آخران ، جهز لهما عربة أخري .

ونبه القائد ، أن تسبق عربة سعد ، العربة الأخري بمسافة ، حتـــي إذا تعرضـــوا لغارة جوية ، لا يضيع الصيد كله .

فجأة لمعت عينا القائد وهو يتأمل الخريطة ثانية . قا ل:

- هذا طيار .

أخذها منه رئيس العمليات ، وتفحصها . قال :

- مواقـع صواريخنا فى الضفة الغربية .

فى صباح السابع من أكتوبر ، نشط الطيران الإسرائيلي . ولأول مرة يري الجنـود طائراتهم تتهاوي بتلك الأعداد الكبيرة . قبل ذلك ، حين كانت تســقط طــائرة ، كــانوا يهللون ، ويصيحون : إسرائيلية . وعندما يتعرفون علي علامتها ، تغيم الفرحـــة ، وقـد رأوها ميج مصرية. الأن لا يرون العلامة بوضوح فقط ، بل يرون قائدها أيضا .

سلموا الأسري في مركز قيادة اللواء ، وتلكأوا قليلا ، ليعرفوا هويتهم . لكنهم فـــي القيادة أسرعوا بهم إلي الخطوط الخلفية ، ونهروهم لعدم إســراعهم فــي العــودة إلــي وحدتهم.

وكادوا ينسون الأمر ، لولا أن القائد فاجأهم ، فوق التبة التي يحتلونـــها ، بإشـــارة شكر من قيادة الجيش . اتضح أن الرجل طيار بالفعل . وأن ما ظنوه خريطـــة . كـــان بمثابة تعليمات بقصف مواقع صواريخ مصرية ، ومطار متقدم .

واتضح من استجواب الأسير ، أن الأمر جزء من خطة اسرائيلية اسمها " الحـــزام الأسود " وتعني الاستيلاء علي جنوب لبنان ، وضم أراضي أخري من سوريا ، وإنشـــاء خط حصين فى سهل الأردن ، طبعا كانوا سيسمونه خط ديان ، أسوة بخـــط بـــارليف . والاستيلاء علي الضفة الغربية لقناة السويس ، وتشغيل القناة ، وتحويل سيناء إلي مركـــز للتجارب النووية . وكان توقيت القيام بهذه الضربة هو الثامن من أكتوبر عام ١٩٧٣ .

ضرب القائد كف بكف ، وقال :

- سبقناهم بيومين فقط .. !!

تطلع سعد ناحية ندا ، ما زالت علي غيها .. فليتظاهر بعدم الاهتمام ، لعله يجــذب نظرها .

لم يلجأ قائد السرية إلي هذا ، إلا بعد أن يئس من قائد التبة ، الرائد عبـد السـلام فاروق . أنبأ الاستطلاع أن الإسرائيليين ينوون شن هجوم مضاد فى أول ضوء . ظـهر هذا من احتشاد دباباتهم فى الطريق القادمة من وسط سيناء ، فهُم ، رغم فشل هجماتـهم المضادة ، لم ييئسوا بعد . والحل هو الاستيلاء علي الطريق المؤدية إلي وسط سـيناء ، واحتلال تباب أمامية ، تمكن مدفعيتنا من إجهاض أي تجمع لشن هجمات مضادة . وبهذا يأمنون من الخطر تماما قال قائد السرية :

– يا سيادة الرائد .. الخطر أمام أعيننا .. والطريق تقع فى قطاعي .

مال سعد علي جندي الإشارة وهمس :

– متي ترقي

– بعد فتح القنطرة شرق .

أمهلهم قائد التبة ، حتي يستأذن ، فليست عنده أوامر . كانت حدود رأس كوبـري الجيش مرتبطة بمدي بطاريات الدفاع الجوي غرب القناة . ولـم يسـل لعـاب القـوات المصرية فى أي وقت أن تتقدم بضع مئات من الأمتار ، لكي تستولي علي هيئـات ذات أهمية مؤقتة ، ربما تركها الإسرائيليون ، ليجروا أرجلهم .

زفر قائد السرية ، وتمتم :

– رحم الله المقدم ، أكان هذا وقته..

ملمحاً إلي استشهاد القائد السابق ،عند اقتحامهم مركز قيادة ، أقامـه الإسـرائيليون خلف التبة ، وكان من دورين ، ومجهز بكل الأسلحة والمعدات الألكترونيـة للإتصـال بالنقط الحصينة . والتبة علي أرتفاع أكثر من سبعين مترا عن سطح البحـر ، وطولـها يقرب من ألف وخمسمئة متر وعرضها حوالي خمسمئة متر ، وتبعد عن القناة تسعة كيلو مترات .

واتضح من تعبيرات جندي الإشارة ، أن قائد التبة ، لم يوفق بعد فـي الاتصـال بقيادة اللواء . صرخ قائد السرية :

– يا أفندم التشكيل الإسرائيلي يقترب ، أخذوا مواقع هجومية ، وواضح من ترتيـب الدبابات أنهم يفكرون فى الصعود إلينا .

- لابد من الترخيص بالضرب .

- يكون الله يرحمنا .

والتفت إليهم ونادي :

- سعد

- أفندم

- استعد بالجرافة

فهم ما يعنيه . يتظاهر بإصلاح الطريق الصاعدة إلي التبة ، فيتوهم الإسرائيليون أنه غير صالح للاستعمال ، فيستديرون إلي الطريق الخلفية ، حيث الدبابات المصرية فى حفرها . وحيث تطولهم مدافع الجانبين .

قاد سعد الجرافة ، وخلفه سارت ثلاث دبابات .

وتأكد أن الإسرائيليين شربوها ، من ضرب مدافع دباباتهم الشوقى . خفنوا إصابتهم بلدهشة ، وقد رأوا الدبابات المصرية خلفهم ، يساندهم حملة الـ آر - ب - ج، من الجانب الأخر للطريق . وسرعان ما سيطروا علي التباب الحاكمة ، وصبت المدافع المصرية نيرانها من بعيد . وبات واضحا تعذر اقتراب الإسرائيليين من تبتهم العالية .

وهلل الجنود :

- الله أكبر . الله أكبر ..

وقد رأوا الإسرائيليين يقفزون من فتحة البرج فى الدبابات ، وبعضهم يرفعون أيديهم استسلاماً .

وجاء صوت قائد التبة ، يُعلم قائد السرية ، أن قيادة اللواء علي الخط فماذا يقول لها .

- قل أمنَّا الموقع ، وتقدمت قواتنا إلي الأمام .

وبينما يتحفظون علي الأسري ، ويعدون عربة لنقلهم إلي الخلف ، ويعينون الحراسة اللازمة ، وصلت إشارة من قيادة اللواء ، تشكر قائد التبة ، علي ما قامت به قواته من تأمين لحد اللواء الأيسر .

نظر الجنود لبعضهم بعضا ، وانفجروا ضاحكين .

ضبطها متلبسة بالنظر ناحيته . دارت ابتسامة والتفتت بسرعة .

بعد قليل ، اقترب منها ، وقد لحظ ابتعادها عن الزملاء والزميلات . تأمل وجهها بين الشجيرات .. وشيئا فشيئاً ، تخلي عنها حيادها واستجابت لابتسامته ؛ بتحفظ

- سأمر بعد المغرب .

أومأت بذقنها فى تثاقل إلي أسفل .

منوا النفس بقضاء ليلة هادئة . لكن قائد التبة أعاد تنظيم الموقع . أمر بسحب الجرحي من أسفل التبة إلي أعلاها . وعزز المدافع فى العالي بمدافع من الوحدة التى يحرسون جانبها الأيسر ، حيث لم تتعرض لاشتباك مباشر حتي الآن .

وأمر بالانتباه طوال الليل ، مذكراً إياهم ، بمقدرة الإسرائيليين علي شن هجوم ليلي، وتحديد أهدافهم بدقة ، بالأشعة تحت الحمراء .

وبالفعل عاود الإسرائيليون القصف ، من مدافع بعيدة المدي ، جانباً كبيراً من الليل. وبعد أن اتضح لهم ، قدرهم ، أن يظلوا فوق هذه التبة ، إما أحياءً يحتلونها ، أو أمواتاً يرحمهم الله ، خلت تصرفاتهم من العصبية ، وجنحت إلي الهدوء .

وأفاد جندي الإشارة ، أنه ولف جهازه اللاسلكي علي ترددات الإسرائيليين ، والتقط بعض إشاراتهم . سجلها ولم يفهمها . ولما لم يكن معهم عامل شفرة ، أمره قائد التبة أن يبرق بها إلي قيادة اللواء .

بعدها ، عم التبة والصحراء ، سكون متربص . ومر الضباط وضباط الصف علي الجنود فى أماكنهم يطمئنون إلي يقظتهم . وأمر قائد التبة أن يأكلوا ، وأن يشربوا من علب العصائر حتي لا يغفو أحدهم .

وحذر ألا ينخدع الجنود بهذا السكون الذي حط فجأة ، فربما يدبرون شيئا ، وزيادة فى الحيطة ، دفع بجنديين من الاستطلاع ، للنزول من التبة ، والتقدم علي المحور الأمامي ، للتيقن من الأمر .

فاجأ سعداً أحدهم ، بكوب من الشاى الساخن . وقبل أن يعلق قائد السرية ، أسرع صانع الشاى :

- ولا بصيص ضوء .

وأشار إلي حفرة سُدت فتحتها بغطاء من المشمع ، أوقد فيها قرصا أبيض من كحول جاف .

قال القائد بصوت خفيض :

- خل بالك .

سمع جندي الإشارة إشارة تنبيه من جهازه ، ترك كوب الشاي الذي لم يكد يصله ، مسرعاً ، وأسرع إليه .

أصغي قليلا ، والتفت إلي قائد السرية :

- قيادة اللواء حلت الشفرة .

أبلغ قائد التبة الذي حضر مسرعا .

قال جندي الإشارة :

- القائد الإسرائيلي المهاجم ، طلب الإذن من قيادته بالكف عن محاولة استرداد التبة . لأنهم - حسب قوله - يرقصون علي وقع طبولنا .

احتضن قائد التبة قائد السرية ، وأزاح الأخير جانباً من المشمع وقال لمن في الحفرة :

- وزع شايا علي الباقين .

لم يكد ينطق بها ، حتي خيل إليهم ، أنهم سمعوا حفيف جنازير دبابات . أصغوا وقد امتنعوا عن أية حركة ، وعلاهم الوجوم والترقب . قال الرائد عبد السلام فاروق :

- مالكم .. فليحضروا ..

وأشار إلي أماكن المدافع :

- عندنا الطبول .

ضحكوا بهدوء ، ولم تزايلهم رهبة الموقف تماماً ، إلا بعد أن أتي جندي من الملاحظة ، وأفاد أنها دبابات مصرية ، تعزز الجانب الأيمن .

تنفسوا بارتياح . وأمر قائد التبة ، أن ينام بعضهم ، ليستريحوا قليلا ، قبل طلوع الفجر ، وشدد علي يقظة الساهرين ، حتي يصحو زملاؤهم .

(٤٢)

طالع الإشارة بسرعة .

" يرجي الذهاب علي وجه السرعة ، ناحية قطاع رمانة بالوظة .. "

عبر بعينيه السطور بسرعة ، حتي توقف عند " يرفض السيناوية زرع الأرض بشتلات الموالح " . كرمش البرقية فى راحة يمناه ، وتنهد فى راحة . ظن شيئا حدث من مياه البئر ، ناحيتهم ، وسبق أن طمأنهم ، بنتيجة تحليل مياهها . أرسل فى طلب سعد .

هل يتصل بأم سمية ، ويعلمها بالوضع ، اتقاءً لما قد يتفاقم إليه . نحي الفكرة جانباً. فالمرأة لم تصبح حماته بعد ، ولا يود أن يشغلها بمشاكله منذ الآن ، بل ولا داعي مستقبلا ، للاستعانة بما لها من إتصالات ومكانة ، وعلي أية حال ليس من عاداته أن يشرك الآخرين فيما يعتريه . فإشراك أم سمية ، سوف يعني الإفادة ، أيضا ، من نفوذ قبيلتها من الفواخرية ، فى سيناء . وتذكر مغالاتهم عند الخطبة . وأسف لأن سعداً ، لن يستطيع ، أن يرد له فى وقت قريب قبضيته فى الجمعية ، تري .. هل ستسهل له الأمر ، كما فهم من تلميحاتها ، وتتغاضي عن الهدايا والمجوهرات ، أم هو كلام فض مجالس . عليه أن يسلك ، كيفما اعتاد ، فربما كان رافضو الزراعة ، من قبيلة السواركة، المقاسمة لهم فى النفوذ ، فيتعقد المشكل .

لكنها ربما تزعل ، لأنه لم يشركها ، أو يعلمها . فلتزعل قليلا .. وبعدها يكون الأمر واضحاً لها .

ونفي خاطراً ، أن تتزعزع ثقتها به .

بالأمس ، ساعة العصاري ، استأذنت لتلحق باجتماع فى المحافظة وقالت ضاحكة:

– البيت بيتك .

كانا يجلسان متجاورين علي الكنبة . تطلعت سمية إلي قدميها في خفر ، وقالت بصوت هامس :

– دقيقة أعمل لك حاجة .

– أنتِ حاجتي .

ابتسمت ، وكانت لم تنهض . مال رأسه علي جبهتها ، وانتظر .. تمازجت الأنفاس، وقبلها .

أمسك يديها ، وتطلع إلي عينيها . افتر ثغرها عن ابتسامة مشجعة . وبان مقدم لسانها متألقاً . لثم شفتيها ، وأحس بثدييها في صدره ، طريين ، حانيين ، فمد إحدي يديه، وبالأخري ضغط ظهرها .

رفرفت فراشات ، وغردت طيور . استشعر نعومة نحرها ، ولطشه عبير عرقها . ونبض الجسدان بالحنان ، ووشت اللمسات بالمودة والمحبة ، وازداد الالتصاق ، وشم رائحة ماء الحياة في أنفاسها ، وشمتها في أنفاسه ، واختلط العرق ، وتصاعدت الحرارة.

آلاف الابتسامات ، والتخيلات ، والرغبات المكبوتة ، ورؤية الآخر ، وصحبة النساء ، وصحبة الرجال ، ولحظات التشوق ، والتطلع ، والفضول ، والانتظار ، وكلاهما يتعاطي الآخر ، والذرات تطمح إلي الاندماج ، والتداخل ، كأنما لتفلت من المحدودية . وفي الصوت غنة . جعلت الطاقة المبأرة ، تتدفق ، مزيلة الغربة في الرجل وفي المرأة ، ولتمسك بالنفسين معا ، ومزازة حفل بها ريقها ، فتشبث بها في وله ، وهي لا تفلته . ويتركز كل شئ في كل شئ ، في بؤرة شديدة الكثافة ، كأنها الثقب الأسود في الفضاء الخارجي ، ولا تتحمل البؤرة ، ضغط الطاقة الهائلة ، فتنفذ ، مما يشبه عنق الزجاجة ، وتنطلق فيما يشبه لحظة الانفجار العظيم في الكون ، وقد ارتعش الجسدان ، وارتجفا ، وانبثقت النشوة .

كانت ، لم تزل ، في حضنه مستكينة ، وسعادته غامرة ، عندما تسللت العكارة .. انسلت ، وجلست في جانب من الكنبة ، منتظرة .

لم يدر ، كيف يتصرف . نهض كالمخدر ، لا يعرف ، هل ينعي نفسه أم يشفق عليها ، أم علي سمية ، كل ما يعلمه ، بعد أن هدأت نفسه ، أنه لم يصل هكذا من قبل ،

وأن شوقه ازداد إليها . هل هو شوق إلي شخصها ، أم لتذوق عسيلتها . وهل بعد أن علم ما علم ، سيكون من الحرارة ، بحيث ينعقد سكرها ، وتتبثق مزازتها ، التى تشبه مزازة المشمش، أو الخوخ، ومتي تتبثق مزازة الفاكهة ، هل بعد أن تتسلل الريح بحبات الحب، وتطير الفراشات بحبات الحب ، وتغرد الطيور ، فوق الزهور ، مداعبة بمناقيرها، ناثرة حبات الحب .

هل سيعبق عرق سمية ، ثانية ، بتلك الرائحة ، التى شدته أكثر ، وأيقظت ذكورته أكثر ، فاحتضنها بصدق ورفق وهيام ، ولا يدري إلا ومزازة من ريقها علي لسانه وشفتيه ، فزاد هياماً علي هيام .

لقد ظن وقتها ، وقت أن بلغ قمة النشوة ، أنه بلغ نهاية المطاف ، فما باله الآن ، لا يدري إلا أن هذا هو بداية المطاف .

كان غريباً ، أن صفية ، التى سبق لها الزواج ، لم تمكنه منها ، وسمية التى لم تتزوج تفعل . هل هذا ضد طبيعة الأشياء ، أم أن هذا هو طبيعة الأشياء .

يحس الآن بالألم ، كلما تذكر منظرها ، ساعة أن تركها .

كانت نظرتها منكسرة ، لا ، ليست منكسرة ، كانت مترقبة ، وإن علق بها ظل انكسار ، فبسبب ما قد يظنه عنها ، وهي تعرفه . ولم تكن فى نظرتها شبهة ندم . كانت قوية ، ومنتظرة .

أين كلامك يا بطل . كل إنسان حر فى أفعاله ، مادام ليس مرتبطا ، ولا يسئ لأحد، فلماذا تركتها دون كلمة .

المفاجأة . شوشت الفكر لعدم التوقع . الرغبة فى التفكير بروية . لو كان ما تقوله متأصلا فى أعماقك ، ماتشوشت .

كانت صريحة معك . لم تخدعك . كانت تستطيع الانتظار ، حتى تتزوجها ، وتفاجأ أن هناك من سار علي الدرب قبلك . أتراها أرادت أن تعلمك ، لتكون علي بينة . أم تري اللحظة أخذتها ، فلم تملك نفسها ، وحدث ما حدث .

لا يعتقد ، مع فتاة قوية مثلها ، ذات نظرات صريحة ، وبريئة ، نعم هذا ما يحسه، رغم كل شئ . فتاة كهذه ، تستطيع أن تقف عند حد معين لو أرادت .. وعلي أية حال من يدري .. ؟!

بريئة .. هذا ما يحار منه .. وما يحار فيه أكثر ، إحساسه أنه ارتبط بها ، ولا يدري كيف . وعصف به الألم ، فهي تعرف ، أنه علم عنها ، ولا تعرف ما يفكر فيه . فيم كان تمنعها في السابق . هل لأنها لم تكن وثقت بحبه ، وبرغبته الاقتران بها ..

وهل تعلم أمها عنها ، ولذلك باركت هذا الزواج ، رغم فارق السن ، أم تراها لاتعلم .

وجدت امرأتك ، فماذاتطمع أكثر من ذلك .. ؟!

كان مارجرجس يستطيع أن يصبح أميرا ، ويخلف أباه فى حكم مقاطعة اللد بفلسطين ، أو يصبح فارسا فى الجيش الروماني ، لماذا سلك طريق العذاب ، وكان يستطيع الزواج من عروس جميلة ويتمتع بثروة أمة الفلسطينية .. ؟!

أما لماذا فعلت ، مع غيرك ، أو كيف ، فما أدراك بالظروف ، وكيف تحكم دون بينة ، وهل من حقك أن تدين ماضيا ، لم تكن موجوداً به .. ؟!

عجب من نفسه وقد أحس أنه يريدها.

- نحن هنا .

نهض حمدي ، كاد يتعثر فى سلك التليفون المدلي فى جانب من مكتبه ، تمتم فى سره : السلك وراني وراني . ناول سعداً الإشارة . فردها ، ومر بعينيه علي سطورها . تطلع إلي حمدي الذي قال :

- سعيد طبعا .

رد سعد :

- لا .. والله ، كان عندي مثلك مشوار فى رفح .

طالع الورقة ثانية ، ليتيقن من المكان .. عند الطريق الفرعية النازلة إلي العمق ، بعيداً عن الطريق الساحلية . أسرعا خشية أن يصطدم عمال الزراعة بالأهالي .

طالعتهما بالوظة علي البعد ، تسبقها واحة من الأشجار المورقة ، وإلـــي يســـارها طريق معبدة ، غير مرصوفة ، قال حمدي :

- أعتقد من هنا .

دون أن يرد ، أدار مقود العربة ، وأحسا بانحدارها في منزل . طالعتـــها أطـــلال حجرية ، بقايا بيوت قديمة . وثمة ما يوحي ببوابة ، خلفها كومة من الأحجـــار . لعلـــها قلعة تداعت . أتراها بقايا قلعة الفارما أيام الرومان . هل توقف عمرو هنا ، وجاءه رسل قبط مصر ، مرحبين بدخوله مصر .

انطقي أيتها الأحجار .. هل دفعهم إلي ذلك عسف الرومان . لماذا لم تكن عندهـــم نزعة الاستقلال . هل لأنهم كانوا ممنوعين من حمل السلاح ، أم أن قوانين الصراع فـــي هذا العصر ، حتمت أن تسيطر قوة علي العالم القديم ، فإذا تراجعت أو انهزمت ، حلـــت محلها القوة البازغة . حانت منه التفاتة إلي مرآة السائق العاكسة ، وفـــزع .. صورتـــه لا تشي بحقيقته الداخلية التي يشعر بها .

خيوط معقودة وسط الجبهة ، جفون ذابلة . شفته السفلي متدلية وشيء مـــا يعتصـــر وجهه .

اقتربا من الأرض . رمال علي مدي الشوف . شـــجيرات قزمـــة علـــي جـــانبي الطريق. السيناوية في الأرض ، وعمال الزراعة ، وهم سيناوية أيضا علـــي الطريـــق . أتراهم يوالسون بعضهم بعضا أمامنا .

تسابقوا وقد اختلطت الأصوات .

أشار حمدي إلي عماله أن اصمتوا . وجد من الكياسة أن يسمع الآخرين أولا . من جهة يرضيهم ، ومن جهة يكسب ودهم .

اقترب منه رجل ممصوص ، أسمر ، عيناه ذات جفون حمراء ، تساقطت شعيرات من رموشها . وتغير بؤبؤا عينيه من اللون الأسود ، إلي أزرق مغشوش . قال :

- خسارة .. الجميزان .

لحظ حمدي ، ولم يكن لفت انتباهه من قبل ، نباتاً ارتفاعه شبراً أو شـــبران عـــن الأرض ، أوراقه خشنة ، كأنها مشرشرة . استمر الرجل :

- جادت الأرض .. نخربها .

اقترب حمدي من النبات ، لحظ نباتا آخر علي حافة جرف .انحني والتقط ورقـــة منه ، قربها من أنفه .

- قيسون .. !

- قليل .

سبلت صفية عينيها ، فارتج قلبه . ظن أنها خجلي منــــه ، وأن التســبيل علامــة الرضا . ويبدو أنها خمنت ما دار بخلده ، فأخبرته أنها تشعر مع مطلـــع كـل صيــف بجفونها ذابلة ، وتحس برغبة جارفة في حكها . باخت نفسه ، واقترح عليـــها اســتخدام مرهم من مركبات المايسين ، فقالت له أنها عندما كانت فى الخارج حدثوها عـن نبــات القيسون ، وأن كثيرين جربوه وأتي بنتائج مدهشة .

عندما حضر إلي سيناء سأل عن القيسون . أرشدوه إلي الفوالق الصخرية وســط سيناء ، وسيكون محظوظا لو وجده . أيام الاحتلال الاسرائيلي ، أتي خواجات كثـيرون ، وكلما وجدوا نباتا بريا ، لم يتركوا منه نبتة واحدة .

لانت تقاطيع وجه حمدي وابتسم ، قال السيناوي الممصوص :

- لا تؤاخذنا يا باشمهندس ..

واصطحبه إلي خص ، تظلله أكياب مجدولة من أوراق البردي الجافة ، ذات لــون بني مصفر ، بينما اتسعت ابتسامة حمدي . كان فى طريقه إلي رفح ، للقاء أحد العمـــال الذين يعبرون إلي رفح فلسطين ، حيث وعده بإحضار بعض من نبات القيسون ، الـــذي ينمو بكثرة فوق ربي فلسطين ، خاصة عند المجدل ، عندما جاءته الإشارة .

أخذ الجميع يثرثرون ، فى انتظار الشاى ، وحمدي فى حيرة من أمره . السيناوية عندهم حق . النباتات الطبية ، نادرة ، وربحها مضمون ، والأجـــانب يســـعون إليــها ، ويصدرونها لنا مصنعة ، علي أساس أنها من اكتشافهم ، وندفع فيـــها دم قلوبنـــا . هـــل ستفهم مديرية الزراعة ذلك . أبسط رد عند السيناوية : الأرض واسعة ، اتركوا هـــذه . المديرية ستقول هذه الأرض ضمن المنطقة المعدة لزراعة الموالح ، وعلي الســـيناوية أن

يقدموا طلبا للحصول علي أرض أخري ، خاصة وهم يسهلون لهم شراء الأرض ، بأسعار رخيصة ، وبتقسيط ممل .

- ماذا قلت يا باشمهندس .

وناوله كوب الشاي . أخذه بين راحتيه وقال :

- سنجد حلا .

بالتأكيد . لا يوجد شئ مقدس . لابد أن تفهم الزراعة الوضع . الأرض التى جادت بخيرها دون جهد ، نساعدها علي ذلك ، بدلا من نزع نباتها . الأرض ضمن خطة الزراعة . نعدل الخطة .ونجعل السيناوية يقدمون طلبا لاستغلالها . ألسنا نريدهم أن يستقروا ، ها هي الفرصة ، وليذهب تخطيطنا المسبق إلي جهنم .

نهض وسلم ، وهم يرجونه أن ينتظر ، فهذا موعد غداء ، وهو يطمئنهم ، ويقول أن المرات القادمة كثيرة ، أم هم لا يريدونه أن يحضر .

ركب العربة وقد أخذ ما أراده من القيسون والجعيثران ، معتزما أن يرسل القيسون إلي صفية . تتحدث ثانية . تفكر فى سمية وتهدي صفية . وهل محاولتي الوصال مع سمية ، تمنع أن تكون صلتي جيدة بصفية .

سار بحذاء الأرض . يقدر مساحتها ، وقد اعتزم كتابة مذكرة بالأمر ، وضرورة إنشاء بنك للأصول الوراثية للنبات . ألمانيا قننت مئات التركيبات الدوائية من التراث العربي .

ضحك من نفسه ..

قال يعني .. حللت مشكل الأرض .. فذهبت تبحث عن البنك وقلته .

الأرض نما علي حدودها نبات التين الشوكي الأحمر ، أوراقه خضراء ، شوكية ، تشبه نبات الصبار . لشد ما دميت يداي من هذا الشوك اللعين . كنا فى الساعات الأولي من حرب يونيو . انقطعت خطوط المواصلات السلكية . كلفني قائد الكتيبة مع نفرين آخرين للبحث عن الخطوط المقطوعة وإصلاحها .

لا دراية لي بهذه المهمة . زميلاى مشيا يتبعان الأسلاك المغروسة فى الرمال ، وغارات طائرات المستير الإسرائيلية لا تنقطع ، وأصوات رشقات الطلقات تسمع فى

جنبات الصحراء . قلت لنفسي .. لماذا أموت في مهمة لن أفعل فيها شيئا . تباطأت حتي اختفيا عن ناظري ، وعدت إلي الكتيبة ، لم نسمع عنهما شيئا بعد ذلك . ما ضر لو ذهبت معهما .. ربما مددت يد المساعدة . نظر سعد إليه وقال :

– هل ما زال العزم موجوداً

– رفح

نظر إلي ساعته ، وهو يردد في خاطره .. هل استطاع العامل أن يتقصي أمر الآبار عند المجدل كما طلب منه . قال :

– الوقت لا يسمح .

ومتي سيسمح الوقت ، ليزور وسط سيناء ، ويري الفوالق الصخرية بنفسه . سمع عن نبات هناك ، يُصنع منه بروتين ، تزيد حلاوته عن حلاوة السكر ، ولا خوف علي مريض السكر إذا تناوله . كم ستسعد أمه بذلك .

تري .. هل الفوالق وسط سيناء ، امتداد للشرخ في قاع خليج العقبة . تخيل الخريطة ونفي الأمر . لو قدر لهذا الشرخ أن يستمر ، سيكون بحذاء حدود مصر ، وسيشطر إسرائيل إلي نصفين . الطبيعة فعلها بطئ . ومن يدريك . قاع البحر الأحمر غير مستقر ، ومكمن للزلازل . في لحظة تجد العالي في الواطئ . ويتحول الإسرائيليون إلي نفاية وطعام للأسماك ، وقد تحتفظ الصخور ببعضهم متحجراً ، يقال أن الحيوانات تحس بالزلازل قبل وقوعه . سوف تكون علامة واضحة ، عندما لا تحط الطيور المهاجرة من أوربا علي سواحلنا .

(٤٣)

ظل حمدي يتعجل حضور سعد . ولماكان قلقا ، ولم يستقر علي وضع ، فقد ترجل حتي بيت سعد ، فى حارة متفرعة من الشارع الرئيسي بتعريش . علي يمينه وهو آت من ناحية البحر . بيت من دور واحد . طرق بابه ، ولما لم يرد أحد ، دفع إحدي ضلفتيه برفق ، وخطا إلي فناء واسع،اصطفت عدة حجرات علي ثلاثة أجناب منه ، وظهرت من خلفها العمارات الحديثة . صفق بيديه وهو يقول " يا ستر " ، أطل سعد من إحدي الحجرات ، أشار له بإحدي يديه وأسرع إلي دورة مياه فى زاوية بعيدة ، ليفك ماءه .

اقترح سعد أن يتناولا فطورهما أولا .

- لا وقت لدينا .

فى نفاد صبر :

- إلي أين ..

انفجر حمدي ضاحكا ، فهو لم يحدد وجهته بعد . تلقي مكالمة هتفية فى الصباح ليتوجه ناحية بحيرة البردويل ، وكان يعتزم الذهاب إلي رفح وفاءً لموعد مع صديقه العامل . إذا فرقع موعده هذه المرة ، فربما فقد ثقته به .

قال سعد وهو يدير محرك السيارة :

- اركب وفكر علي مهلك .

خرجا من الحارة إلي الشارع ، أغلب بناياته عمارات حديثة مرتفعة ، وفنادق سياحية ، ومحال تجارية تزخر بمختلف المعروضات .. أقمشة ، مستوردة ، وعطور باريسية ، ومصنوعات جلدية إيطالية وانجليزية .. بعضها مضروب ومُصنع فى هونج كونج وسنغافورة . ومحال تعرض إلي جانب أحدث أنواع الشيكولاته ، والفاكهة ، اللوز السيناوي صغير الحجم ، وزيت حبة البركة . وعربات يد محملة ببنطلونات الجينز وقمصان حريمي من النايلون الأحمر الفاقع ، وأدوات الزينة ، وإعلانات النيون فى الميدان ، قد خبا ضوؤها فى شمس النهار .

دخل سعد حارة جانبية ، خرج منها إلي الشارع الرئيسي القديم ، وهو موازٍ للآخر. ورغم أنه يفتقر إلي المارة ، فقد أحس حمدي بألفة .. ربما لسابق معرفته به حين عسكر مع وحدته بالقرب من المدينة عام ٦٧ .

طالعتهم المقاهي البلدية ، والعمال يحتسونَ الشاى ويدخنون البواري . وأمام واحدة، مقامة فوق مصطبة مثلثة ، ركن سعد العربة . لم يعترض حمدي ونزل بهدوء.

صعدا عدة درجات. وجلسا إلي ترابيزة ، غير بعيد عنهما تليفزيون أبيض وأسود، يبث أغنياته . تنبه حمدي إلي أن اليوم أحد ، وأنهم يبثون مبكرا برامج اليوم المفتوح .

أحضر سعد لفتين من البسكوت . فك حمدي غلاف واحدة ، وهو لم يحسم أمره بعد . نفخ فى غيظ . حجزت الشرطة بعض عمال الزراعة . هل أفقنا من مشاكل الزراعة ، حتي نواجه بمشاكل الصيادين . ترى ماذا هناك . هل الأمر المعتاد ، صيادو دمياط وبورسعيد ، خرجوا إلي البحر فى مراكبهم ، واقتربوا من البردويل ، يصطادون أمهات السمك ، أثناء خروجها أو إيابها إلي البحيرة . لا توجد عندهم رحمة .. يصطادون الأمهات، بشباك ، من كفرهم ، دقيقة الفتحات فتحصد معها الزريعة الصغيرة فيفسد موسم الصيد الغالي . فإن لم يكذبني حدسي بالنسبة للجو ، فهذا موسم التكاثر ، وفيه تنشط الهجرة والعودة ، من وإلي البحيرة .

وصيادو سيناء يعرفون المواعيد . هل تجمهروا عند البحيرة ، ووعدتهم الشـــرطة بالقيام بالواجب . أي واجب .. ومراكب البحر الكبيرة ، لن يجدي معها إلا لنش كبـــير ، وسريع ، يمكنه المطاردة واللحاق بها .

هل تأزم الموقف ، وهم المجربون لوعود حرس الحدود من قبل ، أطاحوا بـــهم ، فاحتموا بعمال الزراعة، وجاءت الشرطة فأخذت العاطل مع الباطل . وما ذنبي أنا .. ؟!

" ذنبي فى حبك أني بحبك "

وهل أحبتني صفية يوما .. ؟!

تطلع إلي الشارع ، حيث الميدان من بعيد ، وشرطي ينظم حركة المرور .. وغـير بعيد منه مباني المصالح الحكومية ومبني المحافظة ..

فكر فى العودة ، ليتنسم خبرا جديداً ، يساعده علي اختيار وجهته . أم يغادر إلـــي البردويل ، ويتوكل علي الله . وأخونا المنتظر فى رفح .. ؟

ركبا العربة ، وسعد يتطلع إليه ، فأشار إلي منزل الشارع . فى الواطـــئ ، إلـــى يمينه ، وهما يغادران العريش ، طالعته مصاطب المقابر ، تنخفض وترتفع حسب التبـاب الرملية . وقد نمت أعشاب قليلة ، لم تطغ علي لون الرمال ، التى بدت مشـــبعة بنمنمـــة رمادية ، كأن طوابير نمل كثيرة ، تزحف ببطء . وتعجب من كثرة المقابر .

وحين كان سعد علي وشك الانحراف يسارا ، إلي الطريق الساحلية قال حمدي:

– خذ يمينك ..

تطلع إليه سعد ، ويبدو أن عينيه فضحتاه . ما دام ينـــوي الذهـــاب إلـــي رفـــح ، ما الداعي لهذه اللفة ، ألم يكن أوفر لهما أن يأخذا الطريق الظريفة شرق العريش ، تحف بها أشجار الزيتون المورقة . كما أن بوسعهما الآن الاتجاه يمينا بعد الوصول للطريـــق الساحلية . أوفر وأسرع .

– الدنيا لن تتهد .. لو تأخرنا ساعة ، أو بعض ساعة .

داس سعد دواسة الوقود ، وانسابت العربة من الطريق الساحلية إلي طريق ضيقـة، ملتوية ، فكان يضطر لتخفيف السرعة ، وعلي مدي البصر من الناحيتين ، أرض رملية، مزروعة بأشجار اللوز الكستنائية ، قصيرة القامة . وأشجار المانجو عريضـــة الأوراق ،

يانعة الاخضرار ، وتلوح أشجار البرقوق علي البعد ، وتُسيج الأراضي أسوجة قصيرة من نبات التين الشوكي لا تكاد تلمح ثمره الأحمر ، بين الأوراق الشوكية ، وقد لطفت المزروعات من هجير الصحراء .

تنفس حمدي بعمق .. كنا فى عرض نسمة من هذا العبق فى يونيو ٦٧ .

ولما لم تعد تطالعهما أشجار الزيتون ، أحس حمدي فى داخله ، أنهما غادرا وادي العريش .. نزلت العربة ، صعدت ثانية .. مبان علي الطريق .. مدرسة بحذائه .. امرأة أمام مبني من طابق واحد .. وغير بعيد منها أطفال ..

آه .. كنا فى عرض صريخ ابن يومين ..

فجأة غمرت الأرض مزروعات كثيفة .. من المانجو والخوخ ، وصنعت الطبيعة أغواراً متسعة بين التلال الرملية تتسامر فيها أشجار اليوسفي والبرقوق والخوخ .

قالا فى نفس واحد :

– الوادي الأخضر ..

بما يعني أنهما علي وشك الوصول . وكلما صفقحت عينا حمدي أوراق الأشجار اليانعة ، تأكدت له عذوبة المياه الجوفية ، رغم القرب من البحر المالح ، واطمأنت نفسه.

خرجا من الطريق الجانبية إلي مفترق ، تتعامد عليه الطريق الرئيسية . عرجا شمالا فى الطريق إلي رفح .. طالعتهما لافتة كبيرة تعلن عن فيلم فى قصر ثقافة العريش، وامرأة ترتدي فستانا بفتحة أعلي الساق ، وقد اتكأت بكوعها علي حشية مستديرة ،وبيدها الأخري تهم بوضع سيجارة بمبسم طويل ، فى فمها .

والله أوحشتنا يا " ترسو " سينما عدن . علي بابه مكتوب بخط ردئ " العمريطي مستعد للشكل " ، وكنت دائما أتساءل هل هو من " العمارطة " .. تجار الطوي المشهورين فى المنصورة ، أم هو من فرع فقير . كانت تذكرة الدخول باثنين وعشرين مليما .. لماذا ليست بعشرين .. أو بخمسة وعشرين .. المليمان .. لم يكونا متوفرين دائما .. نعطي الرجل قرشين ونصفا ، فيعطينا بالباقى صورة ملونة لأحد الممثلين أو المطربين .. وأحيانا كتيبات بها أغان للكحلاوي وشكوكو وليلي مراد . وأحياناً كتيبات بها قصص الحمال والسبع بنات ،وأبى زيد الهلالى ،وفاطمة بنت بري .

مرة فوجئت بالرجل يعطيني صورة بها ضباط ، ومكتوب أسفلها بخط عريض : "مجلس قيادة ثورة يوليو ١٩٥٢ " .

نظرت له فضحك ، وقال :

- دستة ملوك بثلاثة مليمات .. ؟!

وجد العامل فى انتظاره بالمقهي ، فى الشارع المؤدي إلي بوابة الحدود . اعتذر له عن تأخره ، حيث لم يسلك الطريق الساحلية المباشرة ، ليطمئن علي الزراعة فى بعض الأغوار .

أنبأه العامل ، أنهم يحفرون آباراً أعمق من المعتاد . قطب حمدي جبينه ، ومط شفتيه . قال العامل :

- لاحظ أن أرضهم فى العالي .

رد حمدي

- لا يمنع ..

نهض حمدي ، وهو يشكره ، ونادي ليدفع الحساب ، فزام العامل وأصر علي أنهما ضيفاه .ركبا العربة ، وحمدي يطلب من سعد أن يسرع ..

ترى هل انتهي الأمر علي خير .. أم احتجزوا عمال الزراعة ، حتي يحضر ، ليضمنهم ، ويكتب تعهداً بعدم عودتهم لذلك مستقبلا . وهل يستطيع أن يقف حتلا بين سيناوي وآخر . يضحكون علينا أم علي أنفسهم . هذا هو المطلوب .. فلا داعي للفلسفة. ألا تكفي "البورسعيدية والدمايطة" الأسماك جهتهم .. أم هنا الأنواع أفضل .. لعلهم سمعوا عما فعله الإسرائيليون عندما كانوا هنا . كانت طائرات " الشارتر" تحمل يوميا أسماك الدنيس طازجة إلي مطاعم إيطاليا وفرنسا بملايين الدولارات سنويا . وليتهم يحضرون فى موسم الصيد . وبالتأكيد اهتبل صيادو عزبة البرج الفرصة وحضروا بمراكبهم الصغيرة ، لعلهم يصيبهم من الحب جانب .

حل النحس بأهل العزبة ، بعد أن كان رزقهم وفيراً من السردين الذي كانت تجذبه رائحة طمي النيل عند المصب ، وعندما امتنع بعد حجز الماء فى أسوان وترسبه خلف

السد العالي ، كانوا يرحلون إلي السواحل التركية والليبية ، وأحيانـــا اليمنيـــة ..وكثـــيراً ما نشرت الجرائد أخبار القبض عليهم .

فجأة انطلق حمدي ضاحكاً . إلتفت إليه سعد .. وعاود النظر إلي الطريق .

– تراهني .. ؟!

لفت وجهه بسرعة متسائلا .

– سنجد المراكب الكبيرة أقلعت ، وقبضوا علي صيادي عزبة البرج .

ضحك سعد بتؤدة ، كأنه يبتلع شيئا بين الضحكة والأخري . وتناوب الخبط بيديــــه علي عجلة القيادة . التقط حمدي جريدة ، ابتاعها من رفح ، مضي علي صدورها عـــدة أيام، مر بسرعة علي عناوين الصفحة الأولي ، وقلب الصفحات .

" القبض علي رئيس نقابة العاملين بالإدارة المحلية "

عدة سطور ورفع رأسه ..

محام ويختلس ، ويتنزه فى أوربا مع سكرتير النقابة ، وعلي حساب العمال ..!

أعاد رأسه للجريدة ، وقد استوقفه اسم المحامي .

يا خبر .. الذي جمعنا عنده فى مكتبه بالمنصورة ، لنسافر إلـــي بورســـعيد أيـــام حرب ٥٦ .

لماذا أنت خائف من حل التنظيم . الناس موجودة . ماذا سيجري لها . نظرت إلـــي صديقي القيادي ، وكان أديباً أحببته ، وتعجبت للثقة والمرح فى حديثه . ووشـــت رنـــة صوته بالفرح لأنه التحق بالتنظيم الطليعي . ولم أستطع أن أفهم ، كيـــف يكـــون عبـــد الناصر فى السلطة وينشئ تنظيماً سريا . وأعلن خلفه الرئيس السادات أنه سيمشي علـــي خطي عبد الناصر . ومشي عليها فعلا ، ولكن بأستيكة .

فرمل سعد فجأة ، فاندفع حمدي بجسده إلي الأمام ، حتى كادت رأســـه تصطـــدم بزجاج العربة . لمح قطة تقفز بسرعة إلي جانب ، فكظم غضبه .

جاء صوت سعد هادئا :

– اقتربنا

نظر حمدي له بغيظ . وانصرف فكره لما هو مقبل عليه .

لابد مما ليس منه بد . وأخذ يهون علي نفسه لقائه مـــع الشــرطة ، ومـــع خفــر السواحل . وما ينبغي أن يقال .. راجياً ألا يكون الأمر قد تعقد ..

جاءني موظف الأمن فى مديرية الزراعة بالعريش وقت العصاري .. عزم نفســـه علي كوب من الشاي . يا مرحبا . وعند الغروب صعدنا إلـــي الســـطح .. ننظـــر إلـــي البحر.. ونغسل وجهينا فى أشعة الشمس .

لمح الموظف فى جانب من السطح ، ما يشبه المهاد من خرق قديمة ، صنعته قطة تتردد علي البيت . ولست أدري ما الذي استفزه من ذلك .. فجأة حمله وألقي به من فوق السطح .

نظرت إليه متعجباً .. فردد ببرود أنها بيئة صالحة لاجتذاب الحشــرات . أردت أن أصرخ .. ما شأنك .. ساعة وتتصرف ، فلماذا تفسد علي أمري . ومن فرط غيظي لـــم أستطع التفوه بكلمة . نزلنا وقد حُرمت متعة استنشاق بعض الـــهواء النقـــي . ســـرعان ما حط الظلام . سمعنا حركة علي السلالم . صحنا فى نفس واحد : القطـــة . عـــاودت القطة الصعود والهبوط ، وأخذت تموء مواءً ممطوطاً ، غاضبا . نظر إلي موظف الأمن وقال: تشتمني .

(٤٤)

ترجل حمدي في الطريق الساحلية . فندق سياحي عن يمينه ، وشمسيات متناثرة قرب الشاطئ الفسيح . والكراسي خالية ، إلا من نفر قليل يسرحون في الملكوت ، في سويعات ما قبل الغروب . وبيوت متناثرة ، غافية ، بين أشجار النخيل ، على الجانب الآخر من الطريق . والعريش ببيوتها الواطئة خلفه ، وذهنه ما زال يلوك ما حدث من عدة أيام . هل يتحدث مع الصيادين ، لينشئوا جمعية ، تتولى شراء لنش سريع، يمكنه حراسة البحيرة من تعدي صيادي دمياط وبورسعيد . سيتحرون ، وإذا عرفوا أنه وراء المشروع ، سينقل من هنا ، وعلي مشروع الخوخ العفاء . فليكن بشكل غير مباشر . يتحدث مع من يثق به من عمال الزراعة ، وهم يتولون الأمر .

استعاد في ذهنه بعض النقاط التي تتردد على ألسنة الصيادين ..

تتولى شرطة المسطحات المائية الأمر بدلا من سلاح الحدود . قد يتعللون بالأمن القومي أو ما شابه ، دعك من هذه النقطة . السماح للمراكب الكبيرة بالصيد في أعالي البحار ، ويسمحون للصيادين باستخدام محركات عالية . من أين المال .. من أرباح جمعية يساهم فيها الصيادون . آه .. رجعنا للجمعية ثانية . تمثيل الصيادين في مجلس لإدارة البحيرة . سينظرون لك شذراً . فلينظروا . قوة دفع مناسبة للمياه من البحر إلى

البحيرة للحفاظ على نسبة الملوحة المطلوبة . ممكن . مد الرصيف الغربي من البوغاز الشرقي إلي داخل البحر ، وإغلاق الفتحة خلف الرصيف التى أحدثها النحر . عليك وعلي المحافظة .

كان وقت الضحي ، وهو يسير عند أطراف بحيرة البردويل ، عندما قالوا له :

– أنت أهل لها يا باشمهندس

مشيرين إلي صلته بالمحافظة بحكم عمله .

– ربنا يسهل

وواصل سيره ، يتأمل صفحة الماء الرائق ، تداعبه مويجات هينة .

غصت صفحة الماء قرب الشاطئ بالمراكب فى حرب يونيو . وقام الصيادون بتحميلها بالجنود المشردين فى الصحراء ، غير مبالين بتحذيرات الإسرائيلين . وطلقات مدافع الفيكرز التى تلاحقهم .

شق صفحة الماء لنشان سريعان ، أحدهما معلق فى مقدمته مكبر صوت ، يذيع تسجيلا لطلقات رصاص . والثاني معلق فى أحد جنبيه مكبر صوت يذيع تسجيلا لاستغاثة طائر عجاج مصاب . وطيور العجاج عاجزة عن تكوين جدارية ، تقتحم بها الماء . طارت فرادي ، مضطربة .. بعد قليل لمت شملها فى بقعة من الأفق ، وإذا ببالونات علي هيئة طيور جارحة تلاحقها ، ففرت مذعورة إلي عرض البحر .

وضحك حمدي .. لن تستطيع الطيور أن تحط علي الشاطئ ، أو بالقرب من الملاحات ، فقد وضعوا لها مواداً حريقة . وبدت طيور البشاروش ، وخلفها طيور العجاج ، كأنها اتشحت بالسواد ، تتماوج علي غير هدي ، وقد غادرتها النشوة ، التى كانت تلوح منها ، وهي تنقض علي أسماك الدنيس الفاخرة . وتهادت علي صفحة الماء مراكب الصيادين ، بلون واحد . كانت جمعيات تجار الأسماك ، قد حددت لونا لمراكب العرايشية ، وآخر لمراكب البدو . فكثيرا ما وقعت بينهما المشاجرات .

تري .. هل هذا سبب ترقيته المفاجأة . أخبره صديق بمديرية الزراعة بالدقهلية ، أنه مرشح لتولي منصب مدير إدارة ، وكل ما عليه أن يقدم طلبا لإلغاء انتدابه والحضور فوراً . لماذا الآن .. وقد اشتكي مراراً بأحقيته بالمنصب ، منذ حصل علي الدرجة

الأولي من عدة سنوات .وحدت لون المراكب ، وغداً تنشئ جمعية لثلاثة آلاف صياد ، يملكون ثمانيمئة مركب ، يبرطعون فوق بحيرة مساحتها ما يقرب من مئة وسبعين ألف فدان .

– يا ليل ويالا ويالا لا .

تطلع إلي المركب المقترب ، وتمتم في نفسه : من السواركة . لماذا لا يغني الفواخرية نفس الأغنية .. ؟! حانت نظرة منه نحو البيوت المتناثره ، وتساءل عن بيت محمد عايش . زادت كثافة النخيل بالقرب من الطريق ، وخلفها الرمال مترامية ، حافلة بالتباب والمهاد. وقد نمت في غير مكان نباتات وحشائش برية . عبقت أنفاسه بأريج . إذا لم تخنه الذاكرة، فهو الجعيثران .

فكر أن يعود ولايغذي السير ، ليتكلم مع خال ندا عن تدابير الخطوبة وعقد القران. لم يشعر بميل إلي ذلك . كان الكدر ما زال عالقاً بنفسه من حماة سعد . كان العايدي بين المقبوض عليهم ، وأجلوا الإفراج عنه لمزيد من التحريات كما قالوا . لم يسترح لنظرات سعد متهما إياه بالتقصير ورده عليه حين علق :

– كان مستريحاً في المقهي ، ما الذي أتي به .. ؟

– أنت الذي تقول ذلك ..؟!

وماذا عليه لو أخذ بعضا من زهور الجعيثران لأم سمية ، التي تشكو من مغص في أحد جنبيها ، وتخشي أن تصاب بفشل كلوي .

وبأي وجه يقابل سمية .. ؟!

كان قد ألمح لها أنه متضايق ، من حملقة الرواد في جسدها ، ومن نظراتهم غير المريحة .

– وافقت علي خطبتي وأنت تعرف طبيعة عملي .

لم يجد في نفسه الجرأة ، لأن يطلب منها التخلي عنه ، ومن مدة وجيزة تألقت عيناها بالفرح وهي تخبره بترقيتها إلي رئيسة قسم الاستقبال ، وأنها ا ختارت زميلات للعمل معها ترتاح لهن ، وحدثتهن بضوورة معاملة المصريين المترددين ، نفس معاملة الأجانب الباشة ، والودودة .

في البداية ظن أن العبور وشيك وأحس بالخطر علي نفسه وعلي زرعه ، ولما طال الأمر ، انتقل بزرعته إلي الصالحية . وبعد أن ترعرت ، أخذ من نتاجها شتلات جديدة ، واقترب ثانية من شط القناة ، حيث البيئة مناسبة ، رملية ، وليس بها شئ من طمي النيل . بعد الحرب طالت المفاضات ، وحين استردت مصر سيناء ، كانت الشتلات التى استنبتها فيها ، من الناتج الثالث . ورغم اطمئنانه ، كان متوجسا ألا تصح التوليفة فى التربة الجديدة . وعندما صحت .. شعشعت أعطافه ..

هل لهذا فزع عندما رأي وجهه فى مرآة السيارة ، لا يعبر عما يمور بداخله .

وأخذته الحمية ، ونوي عمل بحث عن الأصول الوراثية للنبات . مقاومة الأمراض، تحمل الجفاف ، والملوحة ، ورصد صفات الخوخ الثمرية ومواعيد نضجها .

واكتشف أن المحلي من أنواع السلطاني والفرك والحجازي والمادوي والشامي والنيلي ، يفوق الأجنبي من حيث النكهة والمذاق .

واقترحت سمية عمل جدول بالأنواع مبكرة النضج ومتوسطة النضج ، وأضاف هو : ورصد تنوع اللب من برتقالى إلي أبيض وأحمر ، وعلاقة ذلك ، إذا كانت هناك علاقة بقوة نمو الشجرة ، ونتاجها العالي . وسمي لها ثلاثة عشر نوعا تُعتبر من أجودها وأنه لابد من تطعيمها علي أصل التيماجارد والأوكيناوا.

لفتت سمية نظره أنه لابد من زرعها كأمهات . و لم يملك نفسه من الضحك وهو يسمعها تقول :

– ومتابعة نموها الخضري والزهري .

وأضاف :

– وعمل بصمات وراثية لهذه السلالات .

طبع قبلة علي شفتيها ، استسلمت فضغط بشدة . فلفصت محتجة :

– ماذا .

– بصمة .

انحني يقطف بعض زهور الجعيثران . لو قابلته سمية بوجه مربد . سيزعم أنه لم يأت من أجلها . جاء ليرى ماذا صنعت أمها فيما أثاره معها بشأن تصاريح الصيد من

البحيرة،حيث يؤجر الواحد بأربعة آلاف جنيه ويباع بثمانية وعشرين ألف جنيه .. هذا في الوقت الذي يتم فيه تحصيل رسوم عن كل كيلو سمك يُستخرج من البحيرة .. وتساءل .. كيف زادت الديون على الصيادين من خمسة آلاف جنيه غداة الاحتلال الإسرائيلي .. إلي أربعين ألف جنيه الآن .. ولماذا انخفض نتاج البحيرة للتصدير إلي ما قيمته ثلاثون مليون دولار ، أقل مما كان يصدر الإسرائيليون بعشرة ملايين على الأقل .

تطلعت إليه أم سمية ، وقالت :

– كان الإسرائيليون ينزحون البحيرة .

فكر أن يسأل أم سمية مساعدته في الحصول على شقة في المساكن الشعبية بالمساعيد ، لكنه نحى الفكرة جانبا ، خشية أن تظنه يحاول الابتعاد عنها من أولها .وعجب من نفسه لماذا لم يفكر في هذا من قبل ، وكانت العمارات ، خالية لا تجد من يسكنها ، والآن بعد أن نبهته حمدية ، رجا أن يكون الحظ من نصيبه .

ومع أن حمدية اقترحت ذلك ، فقد رفضت ، أن تنتقل مع أمها للعيش معه في العريش ، إذا تأزم الموقف بالنسبه لشقتهما .

تركها حزينا ، كاسف البال ، وقد تفهم تلميحات حمدية عن الأم ، رجلها والقبر ، وما يعنيه ذلك من مشقة لو قضيت بعيداً عن المنصورة .

مشى في شارع بورسعيد ، والمساء على وصول .. دار ابن لقمان إلي يساره .. أزعجه ازدحام الشارع المؤدي إلي كوبري طلخا الجديد .. كان في المدرسة الابتدائية عند بناء الكوبري .. لم يكن الشارع مفتوحا ، كانت مدرسة التربية النسوية أمام موقع الكوبري .. وكان ما يسير فيه الآن شارعا جانبيا ، تحيط به البيوت القديمة ذات الأبواب الخشبية الكبيرة . دار القاضي ابن لقمان .. هدموا الصف المواجه لها لتصبح الطريق ذات اتجاهين .. وهدمت المدرسة لينساب المرور إلي الكوبري ..

وقامت في باقي دار القاضي ، عمارة كبيرة ، جاورتها أخريات ، تخرت بمحال الأدوات الصحية والأحذية والمشمعات والأقمشة ، ولم يحتفظوا إلا بالحجرة ، التي يحضر السواح من فرنسا لمشاهدتها ، الأمر الذي أثار دهشته وهو صغير ، فليس في الحجرة التي قضى فيها لويس ملكهم ، فترة أسره ، سوي كنبة عادية ، كان ينام عليها ،

وخزانة خشبية مثبتة في أحد الحيطان ، ليس لها عمق ، وبها ضلفتان جرارتان ، وثمـة شباك صغير يطل على خلفية مدخل البيت ، تغلقه عصفورة خشبية ، وبـاب الحجـرة أصغر من باب البيت ، الخشبي الكبير ، ويغلق مثله بمصاريع خشبية . وللحجرة شـباك يطل علي الشارع ، من مربعات خشبية ، كعقلات القصب ، قصيرة ، ملفوفـه ، تصـل العقلة بالأخري كرات خشبية ، وخلفها ضلفتان مغلقتان . وتظهر عروق السقف الخشبية، ذات اللون البني الغامق ، تتدلي منها مشكاة . وتصعد إلي الحجرة ، بسـلم خشـبي ، لا يتجاوز اثنتى عشرة سلمة ، إلي جانب منه علي الأرض قدر رخـامي أبيـض مجـزع بخطوط سوداء خفيفة ، لا يتجاوز ارتفاعه نصف متر ، لشرب الماء ، وتحتـه قـاعدة رخامية مجوفة ، للاغتسال .

وأطيح بمئذنة جامع الموافي المجاور ، وكانت قصيرة ، ومـن نفـس العصـر ، وغيروا بعض حيطانه ، وفي النهاية أجهزوا عليه ، وأقاموا آخر ذا طراز مختلف .

واقتطعت قطعة أرض من باحة أمامه ، وأصبح متعذرا الدخول من بابه الرئيسـي الذي كان ينبسط أمامه ميدان الموافي . دخل نصف الميدان في الشارع . ونصفه الأخـر قامت به محال خردوات ، وازدحمت الأرض بعربات بيع المناديل الملونـة والمزدانـة بالترتر ، والجوارب والرفائع النسائية ، وأدوات الزينة .

وشق الشارع سوق التجار ، الشهير بسوق الخواجات إلـي نصفيـن . وإذا أردت دخول الجامع من بابه الخلفي ، عليك أن تعرج من سوق التجار الشرقي ، حيث محـال بيع الأقمشة والخردوات علي جنبيه ، وسقفه مغطي بأقمشة قديمة ، لا تسـمح بسـقوط الشمس والمطر ، ويحتك المارة ببعضهم بعضا من الضيق والتعـرج ، ومـن تداديـهم للملابس المعلقة علي شماعات في مقدمة المحال . وتدخل يمينا فـي إحـدي الحـارات المبلطة بمربعات من حجارة البازلت القمحية ، تلك التي جعلت سنابك خيل فرسان لويس تتزحلق ، ويحاول راكبوها الهرب ، فيجدون الحارات مسدودة ، وسـرعان مـا تنـهال عليهم النساء والأطفال والشيوخ والرجال ، بمخارط الملوخية وأغطية الحلل النحاسـية ، وأيدي الهاونات ، وسكاكين الجزارين ، وكل ما تطوله أيديهم .

وفي هذه الحارة ، ستعوقك عن السير ، بضاعة التجار المرصوصة ، تزحم الطريق .

عرج يساراً فى شارع السكة الجديدة ، ليلتقط عربة أجرة ، تذهب به إلي محطة الباص إلي العريش . إلي جواره مسجد الصالح أيوب ، بخطوطه العريضة ، بعرض حيطانه ، طوبية وبيضاء كالحة . وقامت خلف مئذنته ، عمارة كبيرة ، ذات شبابيك زرقاء ، فأصبحت تتبينها بصعوبة ، وكنت تراها سامقة من أول السكة الجديدة ، من ناحية المحطة ، والسماء خلفها ، بلونها اللبني الخفيف ، تسبح فيها نتف قطنية ، ترق وتنتشر . وكلما اقتربت ، لاحت لك المئذنة بحجارتها الجيرية متماسة دون مونة وظهرت شرفتها الثلاثة . الأولي ، مقسمة إلي شريفات وهمية ، بين واحدة وأخري ما يقرب من متر ونصف ، وفى عنق المئذنة مقرنصات محفورة فى الحجر ، تعلوها الشرفتان الأخريان ، كل منهما مسورة بخطين من الحجارة ، بينهما زخارف من نفس الحجارة فى الفراغ ، ويسمق عامود المئذنة ، متوجا بمسلة صغيرة ، مخروطية ، فوقها هلال ، وكلاهما أخضر داكن .

ركب عربة ، استجاب سائقها لإشارته ، وأخذ يردد فى خاطره ، بيت الشعر الذى طالعه مراراً عندما كان يزور بيت القاضى ، وهو صغير ..

دار ابن لقمان علي حالها .. والقيد باق والطواشي صبيح

ترك الطريق ، وعرج يسارا . انحني علي النبات ، مرر أوراقه المشرشرة بين راحتيه . عيدانه تشبه عيدان البازلاء . وأخذ يتشمم النبات . الجعيثران بالتأكيد ، أو ابن عم له . علي أية حال زهرته ليست غريبة عليه .

رفع رأسه ، لاح له البيت علي البعد .. محمد عايش .. لماذا لم يفكر فيه وهو سيناوي مثلهم ، وسيتفهم الموقف بسرعة ، والأهم ثقته به . وهل سيفوت الجهات الأمنية الربط بينهما ، لو شمت خبرا بما قد يحدث .

انتفض فجأة ، وقد سمع حفيفا . لمح ما يفلت سريعا بين عيدان النبات ، المنتشر علي الرمال الرطبة .

تمتم ، غير مصدق :

- أبو مريرة .. ؟!

بالتأكيد هو ، فظهره مرصع بخطوط سوداء عريضة ، بينها خط برتقالي ، وبطنه الزاحفة تظهر حوافها الصفراء . قدر طوله بما يزيد علي نصف متر ، وهو لا يخفي إعجابه بجماله . لكن آه .. من هذا الجمال . مد يده محاذرا ، من لدغته ، التى لا علاج لها فى هذا الهو ، ليأخذ بعض الزهرات لأم سمية . مرر زهرة علي خده ، مستريحا لملمسها وقال فى نفسه : جمال مؤذٍ وجمال شافٍ . تري .. هل علم محمد عايش بما حدث، فيوفر عليه نصف الطريق .. أم يتعين عليه أن يخبره عن تجمهر الصيادين . كانوا يتصايحون . ومكبرات الصوت تحثهم علي الانصراف ، مع وعد بالإفراج حالا ، عن المحتجزين . وأن مشلكهم فى طريقه للحل .

استمرت مكبرات الصوت تزعق دون ملل ، واشتد القيظ والغيظ .

ظل الإسرائيليون يذيعون دون ملل " أنت تذيع بيانا ونحن نذيع بيانا أن الطائرات الأمريكية ضربت طائراتنا علي الأرض صباح الخامس من يونيو" حتى تعبت أعصابنا .

نشكك في صحة التسجيل ، ونتساءل .. كيف أمكنهم توليفه .. أو كيف أمكنهم التقاطه . ومع استمرار الإذاعة ، غادرتنا عصبيتنا ، وأخذ كل منا ، عندما يقابل زميلا ، يبادره :

- أنت تذيع بيانا ، وأنا أذيع بيانا ..

ثم ننطلق ضاحكين ، وقد غابت نظراتنا فى المجهول

سمع الحفيف ثانية ، وكان يسير بين النخيل ، والأرض معشوبة . اللعين .. يبحث عن مكان رطب بالقرب من جذور نخلة .. أم هو يجد فى أثري ..

بالقرب منه مدق مرتفع عن الأرض ، أسلم له أن يمشي عليه . أغلب الظن كان شريط السكة الحديدية للعريش يمر فوقه .

عندما رأيناه تجمعنا حوله فى دهشة ، وقد أعلنت للتو دولة إسرائيل فى فلسطين . كان أبيض البشرة ، فارعا ، عيناه ضيقتان فى اخضرار الفيروز . يضع حمله من الأقمشة عن كتفيه ، أمام عتبة إحدى البيوت ، وتتجمع النسوة حوله . وبالـه طويل ،

سواء في تعريفهن بنوعية ومتانة أقمشته ، أو في مداعبتنا وعدم نهرنا ، عندمـــا نلتـف حوله ، وأحيانا نتبعه ونشاكسه .

وكنا عندما نراه قادما ، نسرع لإخبار أمهاتنا بوصول " سمعان كتف " كأنما تمـيزه عن صاحب محل الأقمشة الشهير سمعان صيدناوي .

ولمح السؤال علي وجوهنا : لماذا لم يسافر .

جلس وقد غادرته بشاشته ، وبدا نافد الصبر ، وقال :

– لم تكن القدس بعيدة عني .. آخذ قطار العاشرة إلا ربعا من محطة القاهرة .

ترك المدق ، وخطا علي الأرض المعشوشبة ، في الطريق إلي بيت محمد عايش ، وبالمرة يكلمه في أمر سمية . الحفيف ثانية . كان المظنون أن أبا مريرة اختفي ، وأنــــه لا يظهر إلا في فلسطين . لكن ها هو يعاود الظهور . ربما كثرة الحركة وإعداد الأرض للزراعة ، تقضيان عليه . أم أن الرطوبة التي كسبتها الأرض من الزراعة ، ومســاحات الظل الناتجة عن التشجير ، تجعلانه يلبد هنا .

تابعه بناظريه ، يظهر ويختفي ، وراء جذع نخلة مبتورة .

– ما قولك يا بنت الحلال ..

– ..

– لا يصح تركه وحيدا يوم فرحه

– أمي مريضة ولا تتحمل مشاق السفر

– عربة ستأخذها ، من الباب للباب

– الطريق طويلة

– نستريح قليلا في الإسماعيلية

زامت حمدية ، تبحث عما تقوله ، قال صفوت :

– وبالمرة تشجعين صفية علي الحضور

عادت تعتذر ثانية :

– لن نأخذ راحتنا عند أناس أغراب

– أصبحوا أهلنا الآن ..

وأشار إلي باب الشرفة ، مستئذنا ليفتحه .

– الشمس

تركته لتعد الشاي ، نهض لمواربته ، ملتمسا نسمة هواء . عشيت عينيه أشعة الشمس ، كأن القرص متربص خلف الباب .

اعترض حمدي علي موعد تطوير الهجوم . قال عبد السلام فاروق :

– لم يكن هناك خيار أمامنا ، أوقف الإسرائيليون اندفاع السوريين في المرتفعات السورية المحتلة ، وكان لابد من التخفيف عنهم ، خاصة ونحن نشعر بالامتنان لهم . ففي الساعة الثانية بعد ظهر السادس من اكتوبر ، كانت الشمس في عين العدو الإسرائيلي ،

وكانت فى عين السوريين أيضا ، تحملوا ، لتكون جبال سيناء مكشوفة أمامنا ، حيث فـي الصباح يغرق الضباب كل شئ .

قال حمدي :

– لكن تطوير الهجوم مكن الإسرائيليين من التسلل إلي الغرب ، بعد دفـع قواتنـا الاحتياطية من الغرب إلي الشرق .

ضحك عبد السلام فاروق وقال :

– أثير هذا الكلام مرة فى حضور اللواء جورج ، فقـال أن الأمـر ليـس هكـذا بالضبط ..

لقد قامت الطائرات الأمريكية من طراز س ٧ علي ارتفاع وصـل إلـي خمسـة وعشرين كيلو مترا ، وبسرعة وصلت إلي ثلاثة أضعاف سـرعة الصـوت ، بثـلاث طلعات، آخرها بعد ظهر السبت الثالث عشر من أكتوبر ، وقدمت صورة كاملة لأوضـاع القوات المصرية ثلاث مرات . وليس هذا فقط . وأخرج قصاصة من أحـد جيوبـه .. قامت أمريكا بعمل جسر جوي من ٢٢٨ طائرة نفذت ٥٦٩ طلعة ونقلت ٢٢٤٩٧ ألـف طن من الأسلحة والذخيرة والمعدات خلال الفترة من الثالث عشر إلي الرابع وعشـرين من أكتوبر ، وهي الفترة التى حدث فيها التسلل .

وفي بداية إقامة الجسر ، تمسك جيمس شـليزنجر وزيـر الدفـاع الأمريكـي ، بضرورة أن تصل الطائرات إلي إسرائيل فى الظلام ، وأن تفرغ حمولتها قبـل طلـوع النهار . والتزم السفير الإسرائيلي فى واشنطن سمحا دينتز بذلك . وفي الساعات الأولـي من صباح أول يوم بعد الاتفاق تحركت الطائرات الأمريكية شرقا . لكن عاصفة أدت إلي تأخير الطائرات ، وهبوطها ، فى صباح اليوم التالي ، وعليها علامات الجيش الأمريكـي.

ولم يستطع الأمريكيون أن ينكروا أنهم شاركوا فيمـا حـدث . ففرحـة الإسـرائيليين بوصول الإمدادات ، والتى جعلت نصف سكان تل أبيب (أبيب) يلتفون حـول مكـان هبوطها ويصفقون ، لم تمكنهم من ذلك .

ضحك حمدي .. فعاجله عبد السلام :

– ماذا .. ؟

- تذكرت تصريح السادات : نحن لا نحارب إسرائيل .. بل نحارب أمريكا ..
- وفيم الضحك
- لأنه صرح مرة : أنا لن أحارب أمريكا
وعاود تساؤله :
- ألم يكن ممكنا تحريك حائط الصواريخ إلي سيناء ..
- أنشئ فعلا مقر لقيادة الصواريخ فى الشرق ، وسرعان ما تم تدميره بصواريخ ليست فى حوزة الجيش الإسرائيلي ، ولم يزود بها الجيش الأمريكي ، وبعد الحرب قال الأمريكيون للمصريين فى أحد اللقاءات : فى صفوف القوات الإسرائيلية يهود أمريكيون، ويعرفون تقنية هذه الصواريخ .
- ولماذا لم يستخدموا الصواريخ التى في حوزتهم .. ؟!
ضحك عبد السلام فاروق ، وقال :
- اخترعنا طريقة جديدة لصيدها .. نضع فى مجالها جريد النخل ، وأحيانا نشعل النار .. فتتجنب .. كما تتجنب لعادم الطائرات .. وعلي أية حال لم يفيدوا كثيرا من تسللهم .
- يا شيخ .. !
- اللهم إلا أخذهم فلاحي الجناين أسري .. ليبادلوهم بأسراهم لدينا .
استمر الفلاحون تحت القصف اليومي ، وفي مرمي الأسلحة الخفيفة يزرعون منطقة الجناين والشط . كفر عامر ، الدفرسوار ، أبو خليفة ، وحتى الكاب والتينة شمالا، وكان الإسرائيليون مغتاظين منهم .. فالجنود الذين مكثوا فى الجبهة ما يقرب من ست سنوات ، عندما يرون من يزرع ويقلع بجوارهم .. تطمئن نفوسهم .. لذلك ساقوا الفلاحين إلي عربات نقل ، وهم يضربونهم ..
نظر إليه حمدي ، دهشا ، فأمّن علي دهشته بقوله :
- يعني سيادتك كنت معرضاً ..
شرب الشاى ، اقترب منها ، وقد جلست غير بعيدة عنه ، وأثناء تحاولان التقاط أي حركة للأم . مد إحدي يديه ، ليحيط خصرها . انفلتت فى خفة تحمل الصينية .

إلام ستظل حصينة .. ؟!

كانت الملاجئ حديدية ، مكسوة بخرسانة مسلحة ، تعلوها طبقـــات مـــن قضبـــان السكك الحديدية ، بالتبادل مع فلنكات خشبية وشكائر رملية ، ثم طبقات مــــن الحجــارة الجيرية ، أو الصخرية ، متخذة شكلا هرميا ، داخل شبكة من ســـلك حظـــائر الأرانـــب القوي وضعت ضمن الكسوة . كل ذلك بغرض امتصاص الموجات الانفجاريـــة لجميـــع أنواع القنابل ، حتى زنة ألف رطل ، ولضمان انفجار الطابات ذات التأخير قبل أن تصل إلي الكسوة الرئيسية للملجأ . وتصل بين الملاجئ ومرابض النـــيران طرقـــات مكســـية بألواح من صاج متعرج وزوايا حديدية ، وشكائر رملية . ودشم النيران مـــن الخرســـانة المسلحة بسمك يصل إلي نصف متر ، وبها مزاغل تسمح بتغطيـــة جميـــع الاتجاهـــات بنيران متشابكة ، تحقق التعاون بين الدشم . والملاجئ مزودة بالمطابخ وأدوات الترفيـــه من تليفزيون وفيديو ..

وقال صفوت فى نفسه .. اثنان وعشرون موقعا ..احتوت واحدا وثلاثين نقطـــة .. بعمق وصل إلي ثلاثمئة متر ، تسيطر علي المحارو الرئيسية بطـــول قنـــاة الســـويس ، وأبراج مزودة بأجهزة استطلاع ألكترونية للرؤية الليلية وأجهزة لإدارة نيران المدفعيـــة وتوجيه الطائرات ..

من أقام خط بارليف .. لم يكن يفكر فى دفاع مؤقت عن أرض احتلها ، وســـوف يتركها ، ولكنه فكر أنه سيبقي إلي الأبد ، يُرجح ذلك تجهيزهم حجارة تعـــادل حجـــارة الهرم الأكبر ، ألقوها فى البحيرات المرة ، وتسللوا فوقها .. فهل كـــان إحضـــار هـــذه الحجارة ، من أجل التسلل فى حالة الزنقة ، كماحدث،أم من أجل العبور فـــى حالـــةتنفيذ خطة الحزام الأسود.. ؟! . وطفت في ذهنه مقولة لضابط التوجيـــه المعنـــوي .. كـــان تحتمس الثالث يضع مجموعة من المراكب فوق عربات تجرها الثيران لاستخدامها فـــى عبور المجارى المائية التى ستقابله فى الشام ..

وتذكر قول كليم السادات :

حين ذهبت للعبور ، وجدت اثني عشر قارباً من اثنين وثمانين قاربا ، المفـــروض أن أعبر بهم .

الجنود المجدفون تحمسوا ، وانضموا للمقاتلين ، وتركوا القوارب . ماذا أفعـــل .. لابد أن ألحق بالنسق الأول بأسلحتي الثقيلة . المشاية التى تم نصبها لا تتحمل الدبابـــات الثقيلة . لابد من فرد الكباري . نزلت إلي الماء أتدبر وسيلة .وجدت سائقا من شـــركة قناة السويس يسير بقاطرة بحرية ، ذاهبا إلي السويس . استنجدت به . عاونني الرجل فى فرد الكباري رغم الطائرات الإسرائيلية المحومة . وحتى لا أخل ببرنامج العبور ، دفعت بعربات برمائية وعوامات عليها جنود معهم صواريخ " ستريلا " المحمولة علي الكتـف ، لتملأ السماء كطيور شيطانية جارحة ، ومدافع " شيلكا " ٢٣ مللي تبصـــق النـــار فـــي خرطوم طويل رهيب بسرعة أربع آلاف طلقة فى الدقيقة . وبالفعل نجحت فى تعطيـــل الدبابات الإسرائيلية عدة ساعات حتى تم فرد الكوبري . وحين عبرت دباباتنا ومدفعيتنـــا المضادة للدبابات ، سمحت للرجل بالإنصراف وهو يتصبب عرقا .

وتنفست فى راحة ، وقد انتظم طابور الدبابات . وإذا بواحدة تسقط فى الماء . لـــو انتظرنا النجدة ، سيموتون داخلها من الاختناق . أحضر أحد الضباط خرطوم هواء مـــن عربة " زل " وأوصله بفتحة الدبابة ، وظل يدفع الهواء إلي داخلها ، حتـــى لا يتسرب الماء فيغرقون . ولما كانوا تحت سطح الماء بعدة أمتار ، فلن يستطيعوا دفع غطاء البرج لأن ضغط الماء شديد . وتملكنا أنفسنا ثانية ، حين أبصرنا دبابات النجدة ومعها ونـش ، وانتشلت الدبابة .

أطلت حمدية برأسها وقالت :

– تتغدي معنا اليوم ..

لم يشأ أن تعاود غضبها ، فأومأ برأسه موافقا . وسرعان ما صكت مســـامعهما ، أصوات تحليق طائرات ، تطلع إليها .

– من مطار شاوة القريب .

– محمومة ..

– ربما غارات إسرائيلية علي جنوب لبنان .. أو اصطدام بالفلسطينيين فى الضفـة الغربية وقطاع غزة .

عملت الطائرات المصرية مظلة دائمة فوق مطاراتنا ، وكانت أطقم إصلاح المطارات جاهزة لأي عمل . وفي أيام الثالث والعشرين والرابع والعشرين والخامس والعشرين من سبتمبر عام ثلاثة وسبعين ، قامت الطائرات المصرية بطلعات بأعداد كبيرة فى الجو . وأخرجت اسرائيل كل طائراتها ، خوفا من المفاجأة . وعندما انطلقت طائراتنا فى الثانية وخمس دقائق يوم السادس من أكتوبر لتدمير مراكز القيادة الإسرائيلية في سيناء ، لم تتحرك طائرة إسرائيلية واحدة .

أغلقت الباب ، وجلست بالقرب منه .

- ماما .

- نائمة

وغابا فى قبلة طال إليها الشوق .

نقرات علي الباب .. انتفضت في حضنه . وجاء صوت الأم :

- ألن تحضري الغداء ..

تبادلا النظرات .. قامت علي مضض .. ووشت نظراته برغبته فيها وليس فى أي غداء . وقفزت إلي ذهنه ذكري أول مرة تلامسا . في آخر مكان يتوقع أن يلامس فيه فتاة . فى حصن الرصيف .. حيث منفع أبي جاموس .. الحصن محاط بالماء من ثلاث جهات ولا يربطه بالبر سوي رصيف صغير .. ومن هنا استمد اسمه . نأى بها عن الرحلة فى ممر جانبي .. ولم يكد يحيطها بذراعيه حتى انسلت هاربة . لكنه كان قد أحس ليونة جسدها وحرارته .. ومن لحظتها عشش إحساسه بها فى كيانه .

ضابط إسرائيلي ، يرتدي نظارة سوداء ، لف العلم الإسرائيلي وسلمه لضابط مصري ، ثم قدم التحية وسلم نفسه ومن معه من جنود للوحدة المصرية . نجحت نصف كتيبة من الصاعقة فى عبور الموانع المائية ، وظهر الثلاثاء التاسع من أكتوبر ، كان العشرات من جنودها يرابطون فوق الحصن ، يغنون ويرقصون ، فى انتظار استسلام الجنود الذين احتموا به ، وقد أغلقوا أبوابه الحصينة .

ووضح من الإشارات التى أرسلها قائد الحصن لقيادته ، والتقطها المصريون ، نفاد الذخيرة لديه والطعام والدواء . ووعدته قيادته بإرسال طائرات لفك الحصار . وضحك

المصريون وهم يعلمون استحالة اقتراب الطائرات الإسرائيلية من خط القناة ، وكانت القيادة الإسرائيلية قد أرسلت تحذيرا فى وقت سابق لطائراتها بعدم الاقتراب من القناة لمسافة خمسة عشر كيلو مترا .

لحظ المصريون زورقين من زوارق الطوربيد من الفرقة ٧٠٧ ، قادمين لإنقاذ الحصن . وعندما تأكدا من سيطرة قواتنا على المنطقة ، عادا ووقفا جنوب رأس سدر .

وسرعان ما جاءت أربعة زوارق مطاطية ، تحمل جنودا من نفس الفرقة ، في اتجاه الحصن بمحاذاة الشاطئ . وأثناء اتصال قائدهم برئيس المخابرات البحرية الإسرائيلية يخبره عن سير العملية ، التقط المصريون الإشارة ، لسيطرتهم علي رادارات المنطقة ، وانتظرهم رجال الصاعقة أمام الحصن . ولم تكد الزوارق تقترب ، حتى انهال الرصاص من كل جانب . ابتعدت القوارب قليلا ، ظناً أنها طلقات عابرة . وعندما اشتدت، وأصبحت أكثرتحديداً ، أدرك القائد الإسرائيلي ، أن المصريين كشفوا العملية . عاد فورا من حيث أتى وأرسل رئيس المخابرات البحرية رسالة لقائد حصن الرصيف :

" استسلم فورا للمصريين ، وسنخطر الصليب الأحمر ليشرف علي عملية سقوط الحصن " .

وضحك صفوت فى خاطره .. وآخر شخص توقعت أن يأتيني بعمل هو حمدي .. لم تبق إلا الشقة .. فمن أي جهة لا أتوقعها سوف تأتي .. وأحس الآن .. وقت فرقته حمدية منذ لحظة .تاركة الباب مواربا ، أنه يريدها الآن أكثر من أي وقت مضى .. لكن يا ترى .. هل ستوافق ..لو عثر علي شقة فى الزقازيق أو الإسماعيلية ، وتنقل عملها .. وهي المعتزة بالمنصورة . واستعاد حماتها .. عندما مروا بالقرب من المعبر الذى استشهد عنده أحمد حمدي .. لم يكد يذكر إسمه .. حتى سارعت وبعض زملاء الرحلة ، قائلين فى زهو :

– من المنصورة .

أتم الضابط المهندس أحمد حمدي مد المعبر . لحظ عبوات فى الماء ، فى الطريق إليه . ركب طوفا وأسرع لإبطال مفعولها . جاءت الطائرات محمومة لقصف المعبر .

حذره. الضباط والجنود دوي جدوي . انفجرت عبوة ، وأصابته شظية . طالبهم بـــإخلاء المعبر ، حتى تهدأ الغارات .

- الجنود وضباط الصف أولا ، يليهم صغار الضباط ، ثم القادة .

اشتدت عليه الإصابة ، فأسرع أحد الجنود لنجدته . اعترضه أحد القادة ، وصمـــم في حزم علي منع باقي الضباط ، وتقدم غير مبالٍ بالنيران .. حمله ، وهو يلفظ الروح ، وتردد برهة .. هل يذهب ناحية الغرب ، أم ناحية الشرق . لم يطل تردده ، وذهب إلـــي الشرق .

ونجح طيار مصري فى إصابة إحدي طائرات الشبح المغيرة ، ورأوا قائدها يقفـــز بالمظلة ، قبل أن تنفجر ، وبعد لحظات قفز الطيار المصري لنفاد الوقود . التقي الإثنـــان علي الأرض . حمي الطيار المصري الإسرائيلي من غضب من أحاطوا بهما . وسرعان ما حضرت هليكوبتر مصرية نقلتهما إلي المستشفي .

تخلت الأم ، حتى لا تتركه وحيداً ، لحين انتهاء حمدية ، ولم يكن في حالة نفسية ، تسمح له بالتبسط في الحديث مع امرأة عجوز . قالت الأم :

- فتحوا باب التقديم في المساكن الشعبية ، كلفت قريباً لي يعمل في مجلس المدينـــة باستخراج ورقة أن البيت آيل للسقوط ، فقد أخبروني أن نسبة كبـــيرة مخصصـــة لـــهذه الحالات .

- هكذا .

واستمرت الأم :

- حمدية بسلامتها مكسوفة ، تروح تستلم الورقة من الإدارة الهندسية .

عصته الكلمات . تطلع إلي وجهها وود لو يقبلها في جبينها .

خيل إليه أنه سمع تزييقا .. نظر إلي السقف .. عروق خشبية مقوسة إلي أسـفل .. لو كان السقف من الأسمنت لانهار من زمن ..

انتبه إلي ضحكة حمدية وقد واربت الباب ، مشيرة له أن الطعام سيكون جاهزاً بعد قليل ..

حدث عطل فى ياى الحركة فى المدفع .. أبلغ الورشة وقائد الفصيلة .. لكنه لم يستطع أن ينام .. ربما طلبوا منه التحرك .. فكيف يعمل بهذا المدفع ..كان الوقت ليلا .. أحضر المدفع ، ورغم عدم خبرته ، فك الجزء الخاص بالياى ، ومد يده ليكتشف سر عدم رجوع الياى . عامود طويل فى أسطوانة ، تحبك عليه . خلعه وأحضر مبرداً وبرده.. ما زال يعاكس . خلعه ثانية ، وبرده ، حتى سهل حركته . جرب المدفع ، وأعطي تماما لضابط الفصيلة ، الذي أبدي دهشته .

– حتى لا يكون موتي مجانا .

كانوا وقتها فى تدريب علي الماء فى بحيرة الفيوم . يأخذونهم من الجبهة للراحة . لم يكونوا يريدون هذه الراحة التى تعني مشروعات . محاضرات نظرية ، وسحب علي الماء .. أحيانا إلي حوالي خمسة وعشرين كيلو مترا . ويأتي محكمون من الجيش لمشاهدة التجربة علي الطبيعة .مرة فى منطقة سحب إلي أسفل غرزت دبابة . تركوها وأنجزوا المهمة . أحضروا دبابة جر فغرزت هي الأخري . معهم فى الدبابات ألواح سميكة من شجر الكافور ، وضعوها تحت الجنزير ، وأحضروا من بعض الدبابات حبل من الصلب كانت معهم . طول كل حبل حوالي ستة أمتار ، أوصلوها ببعضها بعضا . أوقفوا دبابة ثقيلة علي الطريق أوصلوا بها الحبل . قامت علي السرعة الأولي ، ثم نقلت بسرعة إلي الثانية . قفز لوح خشب بقوة تزيد علي خمسمئة حصان ، اصطدم بحبل الصلب فقطعه ، وكاد أن يهوي عليهم ، لولا تحركهم بسرعة .

كان المحكمون يثنون عليهم ، ويطلبون المزيد ، وأعلموهم أن الإسرائيليين يقومون بتدريبات لصد الهجوم فى بحيرة طبرية .

وقفت حمدية بالباب ، تشير له أن ينهض ، فأومأ لها أن تأتي ..

ظن بحصوله علي العمل أن مشاكله انتهت وإذا بها تبدأ . وضحك من نفسه ، حين ظن أن الحرب انتهت بالنسبة له فور انتهاء مهمتهم فى مضيق سدر ، وإذا بها تبدأ ، وتنهال التكليفات عليهم فى طريق العودة .

ضحكت حمدية ، وفتحت الباب علي اتساعه .

(٤٦)

ذهب حمدي إلي سعد في شقته الجديدة بحي المساعيد ليبارك له حصوله عليها. وجد ندا هناك، وقد فرشت علي كنبة في المدخل، ملابس مطرزة باليد، وشيلانا وأغطية. تناول قطعة من الملابس. أخذته دقة التطريز، منمنمة بالخرز والخيط الملونين.

قالت ندا :

- أمي تجهز هذه الملابس، منذ طفولتي.

- تعيشين وتذوبين.

وهما يغادران، قال سعد :

- يعني لو كنت قسمت معي على شقة

- حمار.

ضحك سعد، وأردف :

- ملحوقة.

وهما في الطريق، ظل حمدي صامتا.

- وراءك شئ.

- لمحت ذبابة فاكهة.

- رشة من رشك

- لو أفلتت واحدة ، سوف تقرفنا بعد ذلك . خطرها فى تعدد أجيالها ، وما تسببه من وخزات للثمر ، تؤدي إلي تلفه ، وسقوطه . وتنمو الفطريات مسببة العفن ، ولم نكد نبدأ .

قال سعد ضاحكاً :

- اعمل محطة إنذار مبكر .

- ويشغلها الأمريكان ..

اكتشف القمر الصناعي الأمريكي ، تحركات غير عادية علي الجبهة المصرية ، قبل الحرب بيومين ، وأنذروا الإسرائيليين . ونفذ ديان خطة التعبئة . وكان يجمع عشرين ألف جندي كل عدة ساعات ، عن طريق نداء بالشفرة في الإذاعة والتليفزيون ومكبرات الصوت فى الميادين العامة : ٩٢- ١٠٧- ١١٥- ١٢٤- ١٢٥-١٤٦.

ومع ذلك ، وثب الجيش المصري وثبة هائلة بطول قناة السويس ، وتشبث بالأرض .

ولم يأخذ السوريون برأي الفريق أحمد إسماعيل ، قائد الجيش المصري ، بالوثب والتشبث ، وعندما يستقر الوضع ، يقومون بوثبة أخري ، وهكذا . واندفعوا فى المرتفعات السورية المحتلة ، ليصلوا بسرعة إلي بحيرة طبرية ، حيث السهل القريب ، وحيث عرض إسرائيل لا يتجاوز ثلاثين كيلو مترا ، ويمكن فصل شمالها عن جنوبها ، ولو بطلقات المدافع . وأثناء اندفاعهم تركوا جيوباً خلفهم ، لم يصفوها . وحين أوقف اندفاعهم ، تعبتهم هذه الجيوب أيما تعب .

نظر إليه حمدي ، وقال متنهدا :

- من الآن فصاعدا ، علينا ألا نغفل لحظة واحدة .

وقال سعد :

- تقابلني عربات الأمريكيين العاملين فى المحطة ، بسرعة ملعونة علي الطريق ، ولولا يقظتي لدهمتني .

ابتسم حمدي ، وقد طن فى رأسه الحوار الذي كان يدور عبر القناة .

– يا ديدي .

– نعم .

– ملعون أبوك .

تكرر يومياً ، إلي أن صحا ديدي مرة مبكرا :

– يا جمعة

– من ينادي

– ديدي

– ملعون أبوك

وفي صباح السادس من أكتوبر ، نوي جمعة أن يهنئ ديدي بعيد كيبور ، وهو عيد التكفير عن سيئاتهم ، قبل استقبال العام الجديد . لكن الأوامـر صـدرت فـي الصبـاح بالتزام الصمت . وبدا جمعة متضايقا . ولما دوت المدافع المصرية بعد الظهر ، اسـتعاد مرحه وقال :

– كفرنا عن سيئاتهم .

كان الوقت بعد العصر ، وقبل أن يدلفا إلي المقهي ، اقترح حمدي أن يذهبـا إلـي المخزن ليتفقدا رشاشات العبيد .

– لن نجد أحداً الآن .

– نؤجل ذلك غداً ، مبكراً .

– هل نسيت الإشارة ، بتوصيل بعثة حاخامات غدا إلي وسط سيناء ، للبحث عـن قتلاهم .

– عظلة .

– لا أفهم اهتمامهم الزائد بأناس شبعوا موتا .

– يعتقد اليهود أنهم لن يبعثوا ، ما لم تنقل رفاتهم إلـي مقـابرهم وتتلـي عليـها الصلوات .

ضحك سعد ، وقال :

– ولماذا نساعد علي بعثهم.

رد حمدي بسرعة :

- ليقرفونا في الأخرة .

ضايقتهم الطائرات الإسرائيلية كثيرا ، في مواقعهم بالقرب من القناة .

في التاسع والعشرين من يونيو عام ٧٠ بدأ زحف كمـــائن الصواريـــخ . قـامت مجموعة بأعمال المناورة المكانية ، تغير مواقعها كل يوم . وقامت مجموعة على حافـة منطقة الأمان حول القاهرة في خط موازٍ لقناة السويس . بعد تثبيت هذا الخـط، تقدمـت المجموعة الثانية حوالي عشرين كيلو مترا باتجاه الجبهة ، وفي نهاية اليوم التالي، فكـت المجموعة الأولي معدات محطاتها ، وتقدمت بعد المجموعة الثانية بعشرين كيلو مـترا ، وهكذا تبادليا ، حتى اقتربت من حافة القناة .

وبعد حلول مساء السابع من يوليو ، مر قائد قوات الدفاع الجوي ، ليتفقد القـوات ، وأحوال التشغيل ، وليرفع الروح المعنوية . قال له نقيب :

- لا يمكن لعدد من أطقم الصواريخ القليلة ، أن تقابل طائرات اســرائيل كلـها ، ومن ورائها الإمدادات الامريكية من سلاح وتكنولوجيا وطيارين وفنيين .. إن القتال فـي هذه الحالة انتحار .

بعد عدة أيام حاولت إسرائيل ، نطح جدار الصواريخ ، فتساقطت طائراتها .

ومع أن حرب اكتوبر بدأت وخلف الجيش المصري خطان فقـط مـن الأسـلحة والذخيرة ، بينما كانت خلف الجيش الإسرائيلي ستة خطوط من الأسلحة والذخـيرة ، إلا أنه وقت " الثغرة " كان لدي القوات الإسرائيلية المتسللة أربعمئة دبابة ولدينـا ثمانيمئـة دبابة ، تحاصرهم ، وعندنا صاروخ ونصف لكل دبابة .

وقال الرئيس السادات لكسينجر :

- ليس أمامي قناة سويس لأعبرها ، ولا خط بـارليف لأنسـفه (تكلـف خمسـة مليارات دولار ، وشارك في انشائه خبراء أمريكيون وألمان) . أنا عـبرت ونسـفت . أمامي التسلل ، وسأصفيه في لمح البصر .

رد كيسنجر :

- ساعتها سيضربك البنتاجون (وزارة الدفاع الأمريكية) .

وقال حمدي :

– أخشي إن وجدنا رشاشات صالحة ألا نجد المبيد اللازم . وليس هذا ما يقلقني علي أية حال . ما يقلقني تلويث التربة ، وأخشي علي النحل .

كان حمدي قد أحضر طرداً من النحل ، ليساعد فى تلقيح زهور الفواكه ، وأخبره اختصاصي نحل أنهم أحضروا ملكات نحل أمريكية ، نتاجها عال .

راقب حمدي النحل وهم يشم رائحة العشب وشجر الفاكهة ، ليرى مدي تآلفه معها. وحين لحظ كثرة أعداد النحل ، خمن أن من خرج للاستكشاف ، والتعرف علي معالم البيئة قد سمح للشغالات بالخروج للعمل .

ونصحه الاختصاصي أن يكون النحل يتيما ، فإذا لم يكن ، عليه أن ييتمه من ملكته، حتي يقبل الملكة الجديدة .

وضع حمدي الملكة الأمريكية فى قفص صغير ، بالقرب من الخلية لتعتادها النحل قبل أن تدخل إلي الخلية ، وراعي أن يكون النحل مشغولا ، ليتقبلها حتي ينهي عمله .

– بنا نرى النحل .

اقتربا من غور قريب ، بين أشجاره خلية النحل .

رفع حمدي الغطاء . تأمل الخلية والتفت إلي سعد دهشاً .

– ماذا

– تجاهل النحل الملكة الجديدة ، وخرجت ملكة من أحد أقراص الشمع ، تقود الخلية ، والجميع فى طاعتها .

(٤٧)

لاحت العريش ، بمبانيها ذات الدور والدورين ، كعلب بيضاء ، متناثرة بين أشجار النخيل ، وقد تمايل جريدها . تراءت ندا لسعد ، فتغلغلت نسمة رقيقة بين حناياه ، وتلهف لإخبزها ثم أحضر القطن ، وبعض الملاءات وأغطية الفراش ، مـــن نسـيج المحلــة الكبري .

والعربة نصف النقل تنزل الطريق ، والسائق يهدئ السرعة ، أفلتت من سعد :

- أخ .. !

- خير ..

- نسيت حافظة الأوراق فى المحطة ..

- بها شئ هام

تفكر سعد قليلا ..

- أبداً .. باستثناء البطاقة ..

- حين عودتي ، سأوصي عامل المقصف أن يحفظها لك، إذا كان قد عثر عليها .

فكر سعد أن يعود مع السائق ، بعد إفراغ حمولته ، لكن إحساسه بالإرهاق ، جعلـه يعدل عن الفكرة .

كان عائداً للخلف في مأمورية ، يوم ٢٢ أكتوبر ، وهو يوم لا ينساه . قالوا : وقف إطلاق نار . واستمر الإطلاق بقوة ، أكثر من ذي قبل ، كأن كل جـــانب يفعـــل مـــافي وسعه، قبل أن يتوقف فعلاً . طلب منه الجنود أن يحمل رسائلهم ، وأعطوه ثمن تســجيلها بعد أن جمعوه ممن معهم ، فلم يكن تبقى مع أغلبهم نقود ، فقبل العمليات توقف صـــرف المرتبات ، حتى لا يستغلها الإسرائيليون ، إذا ما عثروا عليها في ملابس أحد الموتـــي ، في التسلل بين صفوفهم .

هل ينجح في الوصول إلي السويس ..

تسلل الإسرائيليون من الثغرة ، وساروا في طريق الجناين . كان يتقدمهم بمســـافة بسيطة ، وأخبره جنودنا في بعض المواقع التي مر بها ، أن قوة إسرائيلية تســـللت مـــن الجنوب عند السخنة ، وهدفهم أن تتقابل القوتان ، فيتم عزل السويس عن قوات الجيـــش الثالث في سيناء .

غذا السير بالعربة ، حتي يتمكن من تسجيل الرسائل وقضاء مأموريته في توصيـــل مظروف خاص ، مغلق بالشمع الأحمر، لمركز تابع لقيادة الجيش الثالث ، بالمدينة .

اقترب من السواتر الترابية علي شاطئ القناة في مواجهة السويس . كان جنود مـــن الجيش الثالث ، ينشئون سواتر جديدة لتعزيز الموجودة ، بعد أن احتلوها . وتنفس ســـعد براحة ، عندما انطلقت مدافع الجيش الثالث ، موقفة تلاقي القوتين الإسرائيليتين ، لتحتفظ بممر يصل السويس بسيناء ، وسط حوض الدرس .

سلم المظروف ، وسجل الرسائل ، وأسرع عائدا . أشار له طبيب ضابط ، فأركبـــه معه .

أثناء السير ، تعرف علي جندي من وحدته . ناداه ، فرفض أن يركب . هـــدأه .. صعد .. جموع كثيرة من الأهالي تهرول .. وسمعوا حركة دبابات .. وحومت الطائرات المغيرة . قفز الجندي من العربة ، وسعد يلاحقه :

– عيب يا دفعة .

واري العربة في منطقة الجناين ، وسارا بحذاء القناة ، سعد يود الوصـــــول إلـــي وحدته في سيناء ، والطبيب يود الوصول إلي كبريت .

كان سعد قد أحضر جوالين ، بهما فلفل وطماطم ، فاكهة الجنود الذين مَلُّوا التعيين الجاف ، وبعض الخبز ، فقد عافت نفوسهم البسكوت . أنزلهما من العربة ، هو جوال ، والطبيب جوال . لبدا بجوار ترعة فى جانب من الطريق . مرت بهماعربة مسرعة ، بها نساء وأطفال ، فعرفا أن الإسرائيليين قريبون . عادا إلي السويس ، وقد تخليا عن الجوالين . عبرا خطوط السكة الحديدة ، ودلفا إلي حي الأربعين . قابلا جنوداً كثيرين ، أغلب الظن كانوا فى مهام وقُطعت عليهم الطريق . انضما إليهم . كانت معهم أسلحة خفيفة وقنابل يدوية . انبطحوا فى أجناب الشوارع ، وقذفوا الدبابات الإسرائيلية بالقنابل وتسببت غارات الطائرات في وقوع المساكن القديمة فوقهم . بحث بعضهم عن الشوارع الضيقة ،التى لا تستطيع الدبابات أن تمر منها ، وتمترسوا مطلين علي الشوارع الواسعة. جاءهم بعض الجنود ممن عطبت دباباتهم ومعداتهم ، وأخبروا أن الإسرائيليين قطعوا طريق السويس القاهرة ، قبل هجومهم علي السويس ، فحمدوا الله علي ذلك ، فلو تُركت الطريق مفتوحة ، ما انضم إليهم هؤلاء الجنود . انطلقت دبابة اسرائيلية فى الشارع وعادت بسرعة . وسرعان ما بدأ القصف .

وعندما هدأ فوجئوا بالبقر تجرى فى شوارع السويس. ضحكوا رغم إجهادهم ، وقد خمنوا أن الإسرائيليين خشوا استخدامه ، مخافة أن يكون المصريون قد حقنوه بمادة سامة. ساقوه من الجناين حتي وصل إلي أبواب السويس . وكانت فرصة لهم ، عاشوا علي لحمه أياماً .

توقف تقدم الدبابات الإسرائيلية ، استدارت إلي الخلف ، بعد تدمير بعضها ، عطلت الطريق فى مدخل المدينة .

وبينما يستعدون لاستقبال موجة جديدة من الدبابات الإسرائيلية ، بعد أن سحبوا دباباتهم المعطلة ، فوجئوا بوجود عربات صواريخ أرسلها الجيش الثالث . صاح الناس فى الشوارع :

- الله أكبر .. الله أكبر ..

ولاحت الفرحة فى العيون ، وقد أدركوا أن الجيش الثالث احتفظ بالممر بينه وبين المدينة . كف الإسرائيليون عن محاولاتهم دخول المدينة .

نام سعد يومها علي بسطة سلم ، مع أكثر من عشرة أشخاص ، غير راغبين في اقتحام البيت ، خوفا عليه من السرقة ، ومراعاةً لحرمته .

وتسلل الجنود إلي خطوط الإسرائيليين ، وكانوا يحضرونهم أحياءً . مرة أحضروا حدثا ، أرجعوه ، وقال له جندي معهم يتحدث الإنجليزية :

– يا بني .. لا نتعامل مع أطفال .

واستطاع بعضهم إحضار أجولة من الدقيق .. كيف أفلتت رغم شدة القصف .هل تركوا هذا المخزن عمدا ، ليستنفدوا الماء القليل ، الباقي معهم في عجنه ..

سحابة من القلق غشت الوجوه .. الخبز مقدور عليه .. أما الماء ..

وإذا بموجات من الأهالي ، تجوب الشوارع ، وهتافاتهم تتعالي :

– الله أكبر .. الله أكبر .

استطلع سعد الخبر ، فرد عليهم بعضهم بسرعة :

– بئر الأربعين .

ولما كان غريبا عن المدينة ، فلم يفهم . عرج إلي أحد المقاهي . وجد صاحبه مستبشرا ، يصنع الشاي ، ويوزع علي رواده مجاناً . لمح الجندي الذي تحدث بالإنجليزية ، سأله ، فرد بسؤال :

– الدفعة من أين .. ؟

– من الصعيد

– غريبة ..

نظر إليه مستطلعا ، فقال :

– أربعون صعيدياً ، فروا من الفرنسيين عندما غزوا مصر بقيادة نابليون ، وجاءوا إلي هنا . وجدوا الفرنسيين يحاصرون بئر عجرود ، وكانت تشرب منها السويس وقتها . اشتركوا مع الأهالي في فك الحصار عنها ، وها هي نفس البئر تعود .

حين هدأ الجو ، شرع سعد في العودة إلي سيناء . سمعوا زيطة بالقرب من القناة . كويتي من لواء اليرموك ألقي بنفسه في الماء ، يسبح باتجاه البحيرات المرة ، لينال من الإسرائيليين .

قفز وراءه بعض المصريين . أخرجوه وهدأوه .

وصلت قوة من الكويت ، لتحل محل قوتهم ، التي كان مقرراً عودتها علي دفعات.

وسأل هذا الجندي زميلٌ له إذا كان يود أن يبلغ أهله بشئ لأنه سيغادر فى اليوم التالي .

شنت الطائرات الإسرائيلية غارة علي الموقع . وتم ترحيله فى اليوم التالي ، لكن فى تابوت .

أوقف عربة بها بعض الجنود ، ودلهم علي طريق أسفلتي ، كانوا قد غطوه بالرمال ، حتي لا يستخدمه الإسرائيليون . كان نصيب الفرد كوب ماء وكوب دقيق ، يجتمعون معا ، كل خمسة أوستة أفراد ، يحضرون إحدي فلنكات السكة الحديدية ، من أحد حصون خط بارليف ، يكسرونها ، ويشعلونها ، ويضعون فوقها قطعة من الصاج ، لإنضاج الخبز ، وتسخين ما معهم من معلبات الأرز والخضروات باللحم . وعندما كانوا يقرفون من المعلبات ، يشككون فى رواية سعد عن جوال الخضروات ، ويتهمونه ببيعه للإسرائيليين .

ورغم الهدوء الظاهرى فى الجبهة ، كان التوتر يشملهم ، متوقعين ، أن يندلع القتال بين لحظة وأخري ، لتصفية قوات الثغرة .

سافر الرئيس الجزائري هواري بومدين إلي موسكو ، وعقد صفقة بتمويل من السعودية ، لشراء خمسمئة دبابة ، سرعان ما دعمت حصار القوات الإسرائيلية فى الغرب ، دون الحاجة إلي سحب دبابات مصرية من الشرق . ووُضعت الخطة شامل لتصفية الثغرة ، ولم يبق إلا صدور الأمر بذلك ، وغلق الفجوة بين الجيشين الثاني والثالث قبالة البحيرات المرة ، التى عبروا منها ، وهي لا تتعدي أربعة عشر كيلو متراً، مما يقطع خطوط مواصلاتهم وتموينهم الطويلة عبر سيناء إلي قواتهم فى الغرب ، ويُحكم الحصار حولهم .

وبينما هم في انتظار الأمر بذلك ، وصل هنري كيسنجر مساءً إلي إسرائيل قادماً من مصر ، ومعه مسودة اتفاق فك الإشتباك ، وطلب ديان وزير الدفاع الإسرائيلي ، مهلة ، وأن يعدل فقرة ، كي يبدو الأمر أن مجلس الوزراء الإسرائيلي ، اجتمع وناقش ،

أفهمه كيسنجر أنه يود الانتهاء من هذه الاتفاقية بسرعة . طلب ديان الانتظار حتى الصباح ، كي يبدو منظرهم مقبولاً أمام الناس في إسرائيل ، فكان له ما أراد .

وقفت العربة أمام بيت ندا . عزم سعد على السائق بشدة ، أن يستريح ، ويتناول لقمة ، لكنه اعتذر بضيق وقته ، ونظراً للإلحاح ، اكتفي بكوب من الشاي . وعند انصرافه ، ذكره سعد بالحافظة ، وهو يعجب ، كيف نسيها .

كانا في العربة ، في انتظار العبارة، لتقلهما إلي الضفة الشرقية ، وأمامهما صف كبير من العربات عند المعبر ، بالقرب من الصالحية . وحتى يلحقهما الدور في العبور ، ذهبا إلي مقصف المعبر ، ليرطبا حلقيهما بمشروب مثلج ، فجأة تجمع رواد المقصف ، من راكبي عربات الأجرة والخاصة ، حول بعض السياح الإسرائيليين ، وأحد المصريين يصيح غاضبا .

عندما صعد السياح إلي الباص ، احتل صبي اسرائيلي مقعد صبي مصري . حاول هذا أن يجلس في مقعده دون فائدة . دفع الصبي المصري ، الإسرائيلي ، وجلس . زاحمه الإسرائيلي ، دون جدوي ، فقد تربص المصري ولم يتزحزح .

صاح الصبي الإسرائيلي مغيظا :

- خمسة يونيو .

رد الصبي المصري :

- ستة أكتوبر .

بكي الصبي الإسرائيلي .

وبدلا ، أن يُجلس أهل الصبي الإسرائيلي ، الولد معهم ، كما كن قبل التوقف ، نزلوا إلي المقصف ، وطلبوا الشرطة ليأخذوا المقعد من الصبي المصري .

رفض الصبي ، ورفض أبواه ، وسبوا السياح الإسرائيليين ، وهاجوا علي الشرطي، الذي أراد مراضاة الإسرائيليين . وحين وجد الشرطي الدفة دارت ناحيته ، أراد أن يقصر الموضوع ، فصاح في المصريين :

- خلاص .. قال خمسة يونيو .. ورد عليه ستة أكتوبر .. انتهينا

- لم ننته ..

أطلقت العبارة صفارتها بتنغيم ، أسرعوا جميعا إلي العربات ، للحاق بها . كـــرر سائق العبارة تنغيمه . وتجاوب معه سائقو العربات :

- ستة أكـــ .. توبر .. ستة أكـــ .. توبر ..

انزلقت العبارة علي سطح الماء ، وقداندمجت أبواق العربات فى ايقاع واحد :

- ستة أكـــ .. توبر .

وتذكر سعد ، ما سمعه من الباشمهندس حمدي ، أن سائقي العربات فى صغـــره ، كانوا ينغمون بأبواقها : يحيى النحاس .. باشا .

أبطأت السفن المارة فى قناة السويس ، من جنسيات مختلفة ، من سرعتها ، لتسمح للعبارة بالمرور ، وهي تطلق صفارتها بالتحية ، بينما انتظم الإيقاع :

- ستة أكـــ .. توبر .

تنويه

أفدت في هذا العمل من بعض المعلومات التاريخية التى وردت في :

- مذكرات المشير محمد عبد الغني الجمسى .
- مذكرات ديفيد اليعازار ترجمة رفعت فوده .
- مذكرات الفريق كمال حسن علي .
- يوميات حرب أكتوبر – لواء جمال حماد .
- الفيلق – أمين عز الدين .
- رجل من نسيج خاص – جيل بيرو ، ترجمة لطيف فرج .
- مقالات وتحقيقات من جريدتى " الأهرام " و " الأهرام المسائى " ومجلة " حواء " .

فلأصحابها الشكر والتقدير ،

المؤلف

صدر للمؤلف

قصص قصيرة

- سلامات – طبعتان . أدب الجماهير – نوفمبر ١٩٦٩ – إقليم شرق الدلتا الثقافي – ينـــاير ١٩٩٩ .
- كراكيب –٣ طبعات –أدب الجماهير-سبتمبر ١٩٧٠ وسبتمبر ١٩٨٣وفبراير ١٩٨٧.
- سجناء لكل العصور – طبعتان . أدب الجماهير . يونيو ١٩٧٧ وأكتوبر ١٩٨٧ .
- الزمن المستباح – ٣ طبعات . أدب الجماهير . مارس ١٩٧٨ وأغسطس ١٩٨٢ ومارس ١٩٨٦ .
- النيل ينبع من المقطم . مواهب . فبراير ١٩٨٥ .
- كحكة للصبى . دار النديم . يونيو ١٩٩٠ .

الرواية

- شارع الخلا. ٣ طبعات . أدب الجماهير . أكتوبر ١٩٦٨ وأكتوبر ١٩٧٩ وأكتوبر ١٩٩٥.
- نافذة علي بحر طناح – ٣ طبعات . أدب الجماهير فبراير ١٩٧٦ – الثقافـةالجديدة ١٩٧٩ – فرع الثقافة بالدقهلية مارس ١٩٩٩ .
- المحاصرون . طبعتان . أدب الجماهير . أغسطس ١٩٧٢ و ١٩٩٧ .
- رجال وجبال ورصاص . طبعتان . أدب الجماهير . يونيو ١٩٧٢ و ١٩٩٧ .
- الأسري يقيمون المتاريس .ست طبعات. أدب الجماهير . فـبراير ١٩٧٦ ومـايو ١٩٧٩ ويونيو ١٩٨٥ و سبتمبر ١٩٨٧ وديسمبر ١٩٩٥ وأكتوبر ٢٠٠١
- العمرة – طبعتان . أدب الجماهير . أكتوبر ١٩٧٧ وديسمبر ١٩٩٦.
- القرفصاء . ٣ طبعات . أدب الجماهير . مارس ١٩٧٨ وفـبراير ١٩٩٢ . دار الوفـاء بالإسكندرية.أغسطس ٢٠٠٠ .
- متهمون تحت الطلب . ٣ طبعات . أدب الجماهير. مايو ١٩٨١ وينـاير ١٩٨٥ . وزارة الثقافة بسوريا ١٩٨٢ .
- عنقودة وسمرة– طبعتان – إقليم شرق الدلتا الثقافي – ديسمبر ١٩٩٦ . أدب الجمـاهير. أكتوبر ١٩٩٩ .
- الرقص علي طبول مصرية – طبعتان – ثقافة الدقهلية ديسـمبر ٢٠٠٠– أدب الجمـاهير – أكتوبر ٢٠٠١

المسرح

- الناس اللي ما معاهاش . مسرحيتان من فصل واحد . طبعتان . أدب الجماهير . إبريل ١٩٧٢ ومايو ١٩٨٤ .
- حاملات البلاليص . مسرحية في ٣ فصول .أدب الجماهير . يونيو ١٩٨٦ .
- عفوا رئيس الديوان . ٥ مسرحيات من فصل واحد . أدب الجماهير . مارس ١٩٨٧ .

- - - - - - - - -

- أوراق أدبية . طبعتان . أدب الجماهير. ديسمبر ١٩٨٠ . ثقافة الدقهلية . ديسمبر ١٩٩٨.
- أوراق نقدية . إقليم شرق الدلتا الثقافي . ديسمبر ١٩٩٨ .

- - - - - - - - -

أدب الطلائع

- حلوان شامة . قصة طويلة . ٣ طبعات . أدب الجماهير . فبراير ١٩٨٣ وأكتوبر ١٩٩١. رؤيا بالإسكندرية مع دار آزال ببيروت تحت اسم (حكاية الأمير سيف والأميرة شامة). فبراير ١٩٩٠ .
- أمن الذئاب . قصة طويلة . رؤيا . نوفمبر ١٩٨٨ .
- تعظيم سلام . قصص . طبعتان . أدب الجماهير . يونيو ١٩٨٩ . إقليم شرق الدلتا الثقافي. مارس ١٩٩٥ .
- الأسد ينظر في المرآة . قصص . الحقيقة . فبراير ١٩٩٠ .
- شجرة الدر تتلقي الأمانة . رواية . طبعتان . أدب الجماهير . مايو ١٩٩٠. هيئة الكتاب ١٩٩٥ .
- بنات رشيد . مسرحية . هيئة الكتاب . نوفمبر ١٩٩٠ .
- تمرد رئيسة البنائين . قصص . طبعتان .أدب الجماهير . أغسطس ١٩٩١ . يافا للدراسات والأبحاث ١٩٩٢ .
- براءة مارية القبطية . قصة طويلة . أدب الجماهير. سبتمبر ١٩٩٣ .
- مجلس الملكات ، قصص . قطر الندي . أغسطس ١٩٩٦ .
- زفاف تحت الماء. قصص . طبعتان. كتاب الهلال. أبريل ١٩٩٩ وتحت اسم (طيور البجع تضحك). إقليم شرق الدلتا الثقافي . مايو ١٩٩٨ .

صدر حديثا :

- ليلة ٢٠ فبراير – قصائد منسوخة	شعر	أشرف يوسف
- المشي بمحاذاة رجل يشبهني	شعر	هشام الصباحي
- غائب مؤرق بالحضور	شعر	محمد خيري الإمام
- رجلي ف وضع الشهوة	شعر	احمد عجاج
- لم أيها القمر	شعر	طارق الطبيلي
- سكتم بكتم	رواية	هشام علوان
- واحة الخصيان	رواية	هشام علوان
- العمرة (الطبعة الثانية)	رواية	فؤاد حجازي
- رجال وجبال ورصاص (الطبعة الثانية)	رواية	فؤاد حجازي
- المحاصرون (الطبعة الثانية)	رواية	فؤاد حجازي
- عدة أسباب للقسوة	قصص	عبد الحميد بسيوني
- الانسحاب للأمام	قصص	محمد عبد الواحد
- الضحية	قصص	محمد خيرت حماد
- الوجوه الحبيبة لا تموت	قصص	عادل الكاشف
- عنقودة وسمرة (الطبعة الثانية)	رواية	فؤاد حجازي
- جسد باتجاه نافذة مغلقة	قصص	ممدوح رزق
- الأسري يقيمون المتاريس (الطبعة السادسة)	رواية	فؤاد حجازي
- الرقص علي طبول مصرية (الطبعة الثانية)	رواية	فؤاد حجازي

رقم الإيداع
٢٠٠١/١٧٠١٦

الترقيم الدولي I.S.B.N.
977-324-123-8

دار الإسلام للطباعة والنشر ٢٢٥٠٤٥٣/ ٠٥٠